

مينيكه شير

المكشوف والمحجوب

من خيط بسيط إلى بدلة بثلاث قطع

ترجمة: عبد الرحيم يوسف



مينيكه شيبر

المكشوف والمحجوب

من خيط بسيط إلى بدلة بثلاث قطع

ترجمة

عبد الرحيم يوسف



المحتويات

"ولماذا تهتمون باللباس؟
تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو!
لا تتعب ولا تغزل."

إنجيل متّى (6:28)

مقدمة المترجم

مينيكه شيبر كاتبة وأكاديمية وروائية هولندية من مواليد عام 1938. درست اللغة الفرنسية والفلسفة في جامعة أمستردام الحرة، ودرست النظرية الأدبية والأدب المقارن في جامعة أولتريخت. بدأت حياتها العملية بتدريس اللغة الفرنسية والأدب الأفريقي في جامعة ليبر دو كونجو في الكونغو من عام 1964 إلى 1968 ثم من عام 1970 إلى 1972. كانت أطروحتها التي تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراه عام 1973 أول رسالة دكتوراه في هولندا عن الآداب الأفريقية. في عام 1988 أصبحت أول بروفيسيرة في الدراسات الأدبية عبر الثقافية في هولندا، وشغلت هذا المنصب أولا في جامعة أمستردام الحرة ثم في جامعة لايدن منذ عام 1993. وباعتبارها الأمين الدولي لمركز القلم الهولندي Netherlands PEN Centre، ولعضويتها في صندوق القلم للطوارئ PEN Emergency Fund فقد عملت مع لجنة الكُتَّاب المسجونين ومع الكُتَّاب والصحفيين في أجزاء مختلفة من العالم لدعم حرية الكُتَّاب.

وطوال سنوات عديدة عملت **مينيكه** كأستاذة زائرة في نيجيريا وكينيا وزيمبابوي وبوركينا فاسو. وحصلت عام 1999 على درجة الأستاذية الفخرية من جامعة سيشوان الصينية بعد أعوام من التعاون مع زملائها في الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية في بكين، نتج عنها كتابان أولهما عن الملاحم وثانيهما عن أساطير الخلق الصينية. وفي ديسمبر من عام 2008 ألقت خطاب وداع في كلية الإنسانيات بجامعة لايدن وحصلت على وسام ملكي بلقب فارس على جهودها «لبناء جسور عبر ثقافية وطنيا ودوليا، داخل وخارج الأكاديميا.» وهي مازالت تحتفظ بمنصبها كباحثة في مركز جامعة لايدن للآداب والفنون في المجتمع، لكنها متفرغة حاليا بشكل أساسي لحياتها ككاتبة.

تخاطب أعمال **مينيكه شيبر** الجمهورين الأكاديمي وغير الأكاديمي. ولذلك فهي لم تحاضر فقط في الجامعات والمعاهد العلمية (من بيركلي إلى بكين، ومن بريتوريا إلى ستوكهولم)، بل ألقت محاضراتها أمام جماهير واسعة الاختلاف خارج الأكاديميا؛ مثل صانعي السياسات في لاهاي أو بروكسل، وأمام ألف امرأة في مركز أمستردام للمؤتمرات،

وأمام نساء يهوديات في معبد يهودي بلايدن، وجمهور من المسلمين في مسجد بنيروبي، وفي مؤسسة المرأة والذاكرة بمصر، وداخل بيت شاي في بكين ومعرض كتاب في استانبول، وحلت ضيفة على العديد من المؤسسات الثقافية من كوراساو جنوب البحر الكاريبي مرورا بالقاهرة ووصولا إلى بنوم بنه.

في عام 1994 نشرت **مينيكه** روايتها الأولى Conrads rivier (نهر كونراد) والتي تدور أحداثها في الكونغو الحافلة بالأحداث والتي عاشت فيها سنوات. ثم نشرت عام 1998 روايتها الثانية De zieleneters (آكلو الأرواح) ذات الأحداث السحرية في سياق أوروبي. وبعد تسعة أعوام جاءت روايتها الثالثة Vogel valt vogel vliegt (طائر يقع طائر يطير) عام 2007 لتصطحب فيها شخصيتين غريبتين في رحلة إلى هونج كونج وفييتنام.

إلى جانب كتبها الروائية والبحثية، كتبت **مينيكه** للعديد من الجرائد والمجلات في هولندا وخارجها. لكن شهرتها جاءت من دراساتها حول أدب المرأة والدراسات الأدبية عبر الثقافية. ومن بين هذه الكتب التي بلغت ما يقرب من 20 كتابا وحدها أو بالاشتراك مع آخرين: (المسرح والمجتمع في أفريقيا، 1982)، (ماوراء الحدود: النص والسياق في الأدب الأفريقي، 1989)، (أصل كل الشرور: أمثال ومقولات أفريقية عن النساء، 1991)، (في البدء لم يكن هناك أحد: كيف جاء أول الناس إلى العالم، 2010)، (آدم وحواء في كل مكان: أول شخصين في اليهودية والمسيحية والإسلام، 2012). وقد أصدرت دار الشروق المصرية ترجمة لكتابها (إياك والزواج من كبيرة القدمين: النساء في أمثال الشعوب) الذي صدر في مصر عام 2008، وكانت طبعته الهولندية الأولى قد صدرت عام 2004 وقامت بترجمته د. **هالة كمال** ود. **منى إبراهيم** الأستاذتان المساعدتان في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة.

في الأول من مايو عام 2015 صدر كتابنا بالهولندية: Bloot of bedekt. Van niets om het lijf naar strak in het pak. وترجمته بالعربية (العاري أو المُغطّى: من خيط بسيط إلى بدلة ثلاث قطع). وقد نقلته الكاتبة نفسها إلى الإنجليزية وترجمته أنا عبر نسختها الأولى وقبل طباعة الترجمة للإنجليزية، أي يمكننا القول أن صدور الطبعة العربية من هذا الكتاب سيسبق صدور الطبعة الإنجليزية منه. ويقدم الكتاب دراسة ثقافية شيقة تجمع بين الأنثروبولجيا والتاريخ والأدب والأديان المقارنة في رحلة تتتبع تطور نظرة الإنسان لجسده

وإحساسه بالخزي أو الاعتيادية لعريه، وظهور فكرة الملابس كغطاء منذ كانت مجرد خيط بسيط يستر جزءا بعينه إلى أن تحولت إلى مجال للصراع بين تطرفات الموضة من ناحية والقواعد الدينية من ناحية أخرى، بين السياسة والاقتصاد، والأعراف والتقاليد والأمثال الشعبية، وعلم النفس والخرافات.

في مراجعته للكتاب يقول الأديب الجنوب أفريقي الحاصل على نوبل للأدب عام 2003 **جي إم كوتزي**: "إن مسألة أي أجزاء الجسد البشري يجب أن تُغطى وأيها يمكن أن يُترك عاريا مازالت ساحة معركة بنفس القدر الذي كانت عليه دائما. وتقدم **مينيكه شيبر** خلاصة وافية فاتنة وواسعة النطاق ما بين الحقيقة والخيال عن تغطية الجسد عبر العصور.»

أما **سارة نوتال** Sarah Nuttall أستاذة الدراسات الأدبية والثقافية ومديرة معهد ويتس للأبحاث الاجتماعية والاقتصادية في جوهانسبرج بجنوب أفريقيا فتقول عن هذا الكتاب: «إذا أخذنا بعين الاعتبار الأعداد الكبيرة من المهاجرين في عالم اليوم؛ فسيبدو من المهم أكثر من أي وقت مضى أن نستكشف – بنفس تلك النغمة التي يتبناها هذا الكتاب – العادات المعقدة والمتنافسة الخاصة بارتداء ملابس بعينها أو عدم ارتدائها، بالحجب والتعري، وتاريخ هذه العادات ونقاط تحولها، وتراجعها أو عودتها للظهور. هذا هو المطلوب إذا كنا نريد فرصة أكبر للعثور على طرق للعيش معًا عبر خطوط الاختلاف في عالم يبحث عن المزيد من الأوضاع الدفاعية والتأمينية. هذا الكتاب من النوع الذي تقرأه في نهاية الأسبوع؛ لأنك بمجرد أن تبدأ لن تكون قادرا على وضعه جانبا. إنه كتاب مليء بالقصص والنوادر والحقائق الثقافية المبهرة، التي تبعث الحياة في سرد بحثي دقيق لتاريخ الجلد البشري، تاريخ الناظر والمنظور إليه، تاريخ الإثارة والخوف. لقد أحببت هذا الكتاب!»

ويقول **ستيفن شانكمان** Steven Shankman ، صاحب كرسي اليونسكو في الدراسات عبر الثقافية والحوار بين الأديان والسلام، جامعة أوريجون بالولايات المتحدة عن الكتاب ومؤلفته: «بعين أنثروبولوجية ثاقبة، وأسلوب أدبي لكاتبة روائية، وبمنطق سليم ثابت، تقودنا **مينيكه شيبر** عبر آلاف السنين من المواقف المختلفة بشكل ملحوظ تجاه ارتداء البشر للثياب وخلعهم لها. كتاب غني بالألوان، جيد في أبحاثه، وملائم لوقته. كتاب أوصي بقراءته بشدة.»

وقد استمتعت بالفعل بقراءة الكتاب والعمل عليه طوال الشهور الثلاثة – تقريبا – التي

استغرقتها ترجمته. فموضوع الكتاب الشيق ومنهج الكاتبة الحصيف ولغة الكتابة الرشيقة كلها أسباب للمتعة في القراءة والترجمة، وحتى مشقة البحث في المصادر الأصلية التي تقتبس منها الكاتبة كثيرا وتحيل إليها – خاصة المصادر العربية والإسلامية – كانت ممتعة بقدر ما كانت مرهقة. وفي إحدى المرات وجدت اختلافات واضحة بين النص العربي الأصلي والترجمة فوضعت الاختلافات بين قوسين وأشرت إلى ذلك في حينه. وعلى ذكر هذا أود أن أتوجه بالشكر للصديقة الكاتبة والروائية **منصورة عز الدين** لاستجابتها السريعة وإرسالها لنص شهادتها الأصلي بالعربية الذي اقتبست منه الكاتبة في الفصل التاسع.

وعلى ذكر الصعوبات التي واجهتها على قلتها، أعتقد أن أكثر ما وقفت أمامه مترددا كان ترجمة كلمة Shame التي تستخدمها الكاتبة كثيرا بمعانيها المتعددة: الخزي، الخجل، العار، و(العيب) وهي الكلمة التي اقترحت الكاتبة نفسها استخدامها كترجمة ممكنة للعربية في معرض اقتباسها من شهادة للكاتبة اللبنانية الكبيرة **حنان الشيخ**. وقد آثرت استخدام المعاني المتعددة للكلمة وفقا للسياق.

أود أن أشكر الكاتبة البروفيسيرة مينيكه شيبر على سعة صدرها وتفضلها بالإجابة على جميع ملاحظاتي وأسئلتي، وأود أن أشير هنا إلى حرصها الكبير على التعامل مع جميع تفاصيل العمل واعتذارها المهذب على كثرة أسئلتها – المتعلقة بسير العمل وشكل الكتاب – لأنها ترى أن أي كتاب هو بمثابة "مولود جديد للكاتب" حسب تعبيرها. أود كذلك أن أتوجه بالشكر للصديقة داريا أوفمان Daria Ofman الباحثة الهولندية على مساعداتها فيما يتعلق بنطق بعض الأسماء الهولندية التي وردت في الكتاب، وأهمها اسم الكاتبة نفسه والذي أوضحت لي الصديقة أن نطقه الصحيح هو مينيكه شخيبر، لكننا آثرنا نطق وكتابة الاسم كما تم استخدامه في الكتاب الصادر عن دار الشروق بعد الرجوع للكاتبة حفاظا على فكرة التراكم ولعدم إرباك القارئ.

في النهاية أتمنى أن يحظى قارئ هذا الكتاب ببعض ما وجدته من متعة، وأن أكون قد نجحت في نقل أفكار الكاتبة وجهدها الكبير الذي يستحق التقدير ولا يمتنع على النقد.

الإسكندرية

في 31 أغسطس 2016

المقدمة

عراة أم مستورون؟

تسير الحيوانات، أو تجري، أو تزحف، أو تطير، أو تسبح مكتسية بجلدها أو شعرها أو ريشها أو حراشفها، لكن أسلافنا البشريين غطوا أجسادهم تدريجيًا أو زيّنوها بمواد مختلفة عما منحتهم إيَّاها أُمُّنا الطبيعة. فعلوا ذلك لكي يظهروا أكثر جاذبية أو أكثر قوة، أو ليُموِّهوا على العيوب، أو ليحموا أنفسهم من البرد والحر والأذى، أو ليُداروا خجلهم. ومازلنا نفعل هذا لنفس الأسباب ذاتها.

يثير الجسد المشاعر، سواء كان عاريًا أم مغطى. لقد أصبح مظهرنا في المجال العام بطاقة شخصية يقرأها الآخرون من النظرة الأولى باعتبارها نصًا عن النوع، والعِرق، والمهنة، والدين، والجاذبية، واضطرابات الأكل، وعادات الشرب، والدلال، وضبط النفس – فقط لنذكر بعض الجوانب. ويصدر الحكم سريعًا.

قد توحي قبعة قبطان مدببة بالاحترام، وقد تُرى رأس عارية لامرأة كأمارة على عدم الاحتشام أو قلة الطاعة. في نفس الوقت ينمو الاحتشام في اتجاهات غير متوقعة وتختلط الموضات اللعوب بالمحرَّمات الدينية الصارمة. في السعودية تُعبِّر عباءة سوداء تغطي الجسد ماركة (أرماني) الفاخرة عن أن المرأة التي داخلها ليست فقط مسلمة مؤمنة لكنها سيدة أنيقة كذلك.

قد يعكس زيّ المرء حالة الطقس المحلية أو ما هو عليه من احتشام، لكن مظهرنا يتم تأويله باعتباره هويتنا في المقام الأول. مَن نكون ومَن نحن مجبرون أن نكون من جانب الآخرين؟ يتقابل الناس ويتبادلون التحية أو يتجاوزون بعضهم البعض – بلا مبالاة أو بطريقة انتقادية، أو حتى بإعجاب صريح بما يرونه. من اللطيف أن تحظى بالمجاملة، لكن ما العمل مع إظهار واضح للاستهجان؟

في الضوء الواهن ذات أصيل، كنت مسافرة من (زنزبار) إلى (دار السلام). كنت واقفة على ظهر عبَّارة بجوار ثلاث نساء يرتدين عباءات سوداء طويلة، كما تفعل نساء كثيرات على ساحل شرق أفريقيا. كان الجو مليئا بالرياح وأصيبت إحدى النساء بدوار بحر. «هل أنتِ بخير الآن؟» سألتها بعد فترة، وبدأنا في الحديث. لم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ هي وصديقتاها في توبيخي بسبب ملبسي. كنت أرتدي تيشرت وبنطلونا طويلا وجاكت أيضا – لكن لا، لم يكن هذا كافيا. ينبغي أن أبدأ في ارتداء عباءة كما يفعلن، زيّ يغطي كذلك رأسي العارية: «إذا لم تفعلي هذا، ستحترقين في نار جهنم للأبد في الحياة الأخرى.» كن واثقات من هذا.

حاولت أن أعترض بأن الله سيريد أن يعرف إذا ما كنا أشخاصا صالحين أكثر من معرفة ما هو نوع الملابس التي كنا نرتديها أثناء حياتنا. بلا جدوى. فقد أصررن بقوة أن الجنة ستنفتح فقط للنساء اللاتي قد غطين أنفسهن بشكل تام وباحتشام: «من فضلك، انظري للطريقة التي نلبس بها. لا، انتظري، من الأفضل لك التقاط صور لنا لتُريها لصديقاتك في الجزء الذي تعيشون فيه من العالم. إذا لم يقتدين بنا، سيحترقن أيضا في الجحيم.» (صورتان رقم 1).

التقطت الصور. كانت ثيابهن السوداء الواسعة تخفي أجسادهن، لكن وجوههن كانت مكشوفة – حتى لاحظن هذا الخطأ: «لحظة واحدة، صورة أخرى من فضلك.» وبحركة ذراع سريعة سحبت كل واحدة منهن قطعة من القماش من خلفها لتغطي وجهها؛ وتحولت عباءاتهن إلى نقاب. لم تبق إلا أعينهن وأيديهن ظاهرة للعيان. «أترين؟ هذه هي الطريقة التي ينبغي أن تلبس بها كل امرأة إذا كانت تريد أن يكون لها أي فرصة في دخول الجنة بعد الممات. هذه هي الصورة التي ينبغي أن تُريها للنساء في بلدك.» لا شك أنهن كن يردن الأفضل لي ولكل النساء الأخريات في العالم، لكن كم امرأة من نساء بلدي ستكون مستعدة لتصديق أن مثل هذا الزي الأسود السابغ سينقذها من الجحيم؟

عودة إلى أمستردام. dress less to impress (البسي أقل لتؤثري أكثر) هي الرسالة للمارة في الشوارع وفي محطات المترو تصرخ بها الملصقات من لوحات ضخمة عليها امرأة نحيلة ترتدي القليل من الملابس الداخلية وتتمدد في أوضاع موحية. في إعلان أثاث

بجريدتي الرصينة تستلقي امرأة عارية تماما على أريكة جلدية أنيقة لتروج لها. نساء يرتدين أقل القليل من الملابس يستندن بطريقة مغرية على سيارات جديدة. في الشعار القائل Fill her up and feel her go (املأها واشعر بها تنطلق) أصبحت السيارة شيئا أنثويا سلبيا.

لا شك أن الرسالة dress less to impress كانت ستملك جاذبية أقل للرجال الغربيين. استحسان وتصفيق للمنجزات المهنية أو الرياضية، نعم، لكن المزيد من الاهتمام بفضل المزيد من الجلد العاري أمام الجميع؟ حتى الآن من الصعب أن تجد رجالا بفتحة جريئة أعلى الفخذ على جانب بناطيلهم.

في مسرح (أمستردام كونسيرت خيباو) تجذب عازفة كمان أولى الانتباه بفستانها المفتوح، فيما لا يوجد عازف صولو واحد يقدم نفسه بفتحة صدر جريئة الاتساع. أليس كافيا لأي امرأة أن تكون ذات جودة مهنية عالية؟ قطعة الملابس الوحيدة التي أبطلها الرجال الغربيون هي رابطة العنق، لكن في المكاتب نادرا ما يفتحون أكثر من زرين في القميص. في المجتمع الغربي الحديث قد يُنظر إلى التعري أكثر من المعتاد على أنه ضار بصورة المرء عن الرجولة.

منذ أن بدأ البشر يقابلون بشرا آخرين لديهم أفكار مختلفة عن العُري، أصبح العالم أكثر تعقيدا. نحن نعرف ما الذي نجد فيه صعوبات مع الآخرين، لكننا عادة لا نملك أدنى تصور عن كيف يرانا الآخرون. ومن وقت لآخر يرتفع طرف من هذا الحجاب السميك على غير توقع. في أمستردام ناقشني سائق تاكسي مسلم حول حالة الطقس وشرح لي بجدية لماذا كانت السماء غائمة لأكثر من شهر:

> "السماء مستاءة تماما من عدم احتشام النساء الغربيات والشمس تعرف جيدا أنها بمجرد أن تشرق ستملأ هذه النسوة الشوارع بأذرعهن وأرجلهن العارية وبفتحات ثيابهن غير المقبولة. هناك شيء مؤكد: هذا العُري المروع هو من حيل الشيطان ليضع الرجال في موضع الاختبار. هذا بالتحديد هو السبب في أن الشمس قد قررت أن تتوارى... هذه منجاة لنا، وكما نعرف جميعا؛ لا شيء يحدث دون سبب."

بعد أسبوع جاءت موجة حارة وخرجت النساء في ملابس صيفية خفيفة. لقد غيرت الشمس رأيها، لكن ماذا عن الشيطان وسائق التاكسي؟

حكت لي طبيبة ممارسة عامة في أمستردام عن واحد من مرضاها: رجل عجوز من إيران في الأصل. كان يرفض بشكل قاطع أن يغادر منزله، حتى لزيارة طبيبه. والسبب: أن النساء الغربيات يقدمن أنفسهن عاريات ومتهتكات للغاية في المجال العام لدرجة أنه كلما صادفهن انزعج بشدة.

حكى لي صحفي هولندي يعيش في قطر كيف كان يشعر كلما عاد إلى أوروبا الغربية. فعند وصوله إلى (مطار سخيبول) يشعر دائما بصدمة خفيفة لدى رؤيته لكل هؤلاء النساء غير المحجبات ويتوجب عليه بالفعل أن يعتاد على هذا المنظر غير المعتاد من جديد. وبالمثل، لي زميلة من جامعة لايدن تقوم ببحث في اليمن اعتادت على ارتداء الحجاب ولفترة كانت تشعر أنها «عارية بشكل محرج» بعد عودتها مباشرة إلى حياتها غير المحجبة في أوروبا. ما لا يعتاده الناس من أشياء يدهشهم، والتنوع الثقافي قد يكون تحديا إلى حد كبير، لكن معظم الناس قادرون تماما على التكيف مع أي بيئة جديدة يتصرف فيها الأغلبية بطريقة مختلفة عما اعتادوه في ثقافاتهم الأصلية.

في العالم الغربي لدى كل فرد الكثير من الحرية – في إطار القانون – وهذه الحرية قد تكون مربكة للقادمين الجدد. هؤلاء الذين تربوا على فكرة أن النساء المحجوبات هن فقط المحتشمات، يحتاجون إلى أن يطرحوا عنهم فكرة أن "العُري" والعفة نقيضان. زد على ذلك أن الجسد المغطى ليس ضمانة على الاحتشام، كما تثبت السُّنة القديمة في رجم الزانيات حتى الموت. لا توجد نهاية للشك، وهناك حكمة تراثية من (التاميل) تتساءل بسخرية عمًّا إذا كان «حجاب واحد كافيا لستر عفة امرأة.» أو بكلمات نظيرتها الغربية «الرداء الديني لا يصنع راهبا.»

يظل الجسد العاري شاغلا للناس. في كل يوم تأتي وسائل الإعلام بأخبار عن العُري، والاحتجاج ضد العُري، والعُري كاحتجاج. في بعض الأماكن تسببت الأجزاء المكشوفة من الجسد في فتاوى نتج عنها الاعتداء على أشخاص أو قتلهم، بينما في أماكن أخرى يُعرض الجسد العاري بحماس لكل من يريد أن يراه. الأجساد الأنثوية أو أعضاؤها يتم استغلالها

بشكل خاص لكي تجعل الناس يشترون أشياء ليس لها علاقة بعريهن المكشوف:

"تقريبا كل منتج يباع بالجنس، من الصابون إلى الحساء إلى مادونَّا. حتى الأخبار والطقس يجري الترويج لهما بالجنس. فكلما زاد حجم نهود فتيات الطقس، كلما زادت جماهيرية النشرة الجوية.»[1]

ديكتاتورية المُعلنين المبدعين تجعل النساء يفرغن أجسادهن، ولا عجب أن السلطات الدينية المبدعة تجعل النساء يفعلن العكس. وفي كلتي الحالتين تخضع الغالبية للقواعد.

كما سنرى، يحمل الناس أفكارا واسعة التباين حول «العاري» و«العُري». يمكن لطقم ملابس يثير إعجاب شخص أن يراه جاره صادما، والميل للحكم على الآخرين على أنهم أقل شأنا أمر واسع الانتشار.

جاءتني فكرة هذا الكتاب لأول مرة أثناء العمل على (آدم وحواء في كل مكان)، وهو كتاب عن أول الكائنات البشرية في اليهودية والمسيحية والإسلام (2012). في خضم محيطها الوافر من القصص، تصر هذه الأديان الثلاثة على تغطية الأعضاء التناسلية كفريضة على كل البشر، منذ أن أكل آدم وحواء الفاكهة المحرمة في الجنة. قبل عصيانهما، كان أول بشريين يمرحان في الجنة، عاريين في العادة وخاليين من الهموم، لكن بعد مخالفتهما لأمر الله انتهت براءتهما فجأة. تقول القصص أنه في هذه اللحظة وُلد الخجل – متضمنا الوعي بأنه يجب تغطية العري، وهي فكرة تجذرت بعمق في التراث الغربي وفي كثير من الثقافات الأخرى كذلك.

بفضل الانتباه المبذول للأجساد العارية والمغطاة لأسلافنا الأوائل في القصص التي تحكي عن آدم وحواء، تساءلت فجأة لماذا يُظهر معظم الناس أياديهم وأنوفهم وأفواههم ووجناتهم وعيونهم للآخرين دون الكثير من الحرج، لكنهم يميلون عادة لإخفاء أعضائهم التناسلية ومؤخراتهم. قادني فضولي إلى السؤال المثير للاهتمام: كيف ولماذا نغطي أنفسنا؟ كل إنسان يأتي إلى العالم عاريا، وكان أسلافنا الأقدمون – رغم أنهم كانوا

1- Philip Einstein Lipski, in Jan Pieter Ekker 'Het merk Von Trier', VPRO Gids, 1, 2014, 28- 29.

مشعرين أكثر بكثير مما نحن عليه الآن – يتجولون دون قطعة قماش مخيطة عليهم.
لماذا وقعت الإنسانية تدريجيا في حبائل هذه الشبكة الأخلاقية المعقدة من قواعد الملبس؟

لا ينشأ الخجل فقط بسبب الأمور المتعلقة بالجنس أو أجزاء الجسد الظاهرة. فكرة أن الخجل يتلاشى بمجرد تغطيتنا لمنطقة العانة تبدو خطأ فادحا بنفس القدر الذي يكون عليه الاعتقاد بأن الخجل لم يوجد قبل أن يبدأ الناس في تغطية أجسادهم. يظهر الخجل لدى الناس بمجرد أن ينحرفوا عن السلوك الاجتماعي المطلوب ويؤدي إلى الإحساس بمشاعر الرفض أو الاستهجان أو النبذ. ولأنه ليس من أحد منا يرغب في أن يجعل من نفسه مغفلا، نميل إلى التكيف مع جماعتنا، خاصة في المجتمعات التي يعتمد البقاء فيها على دعم أفراد العشيرة. من الوهم أن نعتقد أن التغطية الكاملة لكل البشر المنتمين إلى جنس واحد ستمنع الشعور بالإثارة لدى الجنس الآخر. فقد تكون الأجساد المغطاة أكثر إثارة من الأجساد العارية. إن طرق الحياء والإثارة غير متوقعة على نحو مدهش ونحن جميعا نواجه الاثنين طوال حياتنا.

عندما يسخر الآخرون من انتصابك الظاهر الذي لا تستطيع التحكم فيه، ستأخذ كل احتياط ممكن لتمنع هذا من الحدوث مرة أخرى أبدا. يبدو أن البشرية عندما قررت أن تبدأ في تغطية أجسادها كانت الأعضاء التناسلية الذكرية هي الأولى، بسبب عدم القدرة على التنبؤ بسلوك القضيب. كيف نعرف؟ **بيتر أوكو Peter Ucko** – أنثروبولوجي بريطاني جمع معلومات مؤكدة من الماضي والحاضر في دراسة مقارنة مثيرة للإعجاب عن أغلفة القضيب حول العالم – وجد فرقا كبيرا في عادات التغطية لدى الرجال؛ ففي الكثير من المجتمعات صغيرة الحجم كانوا يغطون إما القضيب بأكمله أو الـ glans فقط. والـ glans (الحشفة) هي الكلمة اللاتينية لـ «جوزة البلوط» وهي تشير – بسبب شكلها – إلى رأس القضيب الذي يكون مغطى بشكل طبيعي بالقلفة. واحد من الاثنين (القضيب بأكمله أو الحشفة فقط) كان يتميز بالتغطية، بينما في الغالبية العظمى من الحالات كان كيس الخصيتين يُترك حرا:

> "بالنسبة لأي مجتمع لا يخفي ببساطة العضو الذكري أسفل ثوب يغطي كل الجزء الأسفل من الجسد، لا توجد إلا عدة احتمالات متبقية:

> السماح للقضيب بالبقاء حرا في حالته الطبيعية، أو وضعه داخل شكل ما من الأغلفة، أو بتثبيته في وضع ما غير طبيعي. حيث لا يُسمح للقضيب بأن يتدلى بحرية تامة في حالته الرخوة الطبيعية فإن الاحتمالات المتعددة أمام الإبداع البشري تكون محدودة، وفي نفس الوقت تكون هذه الاحتمالات متعلقة بمنطقة من الجسد يمكن الزعم بأنها ذات أهمية جنسية عالمية. بكلمات أخرى... فإن القاسم المشترك هو القضيب / الحشفة الذي يمكن الزعم بارتباطه بأفكار الفحولة (وكل الرموز والمشاعر التي يمكن أن تتماشى مع هذا التصور) وفي نفس الوقت يرتبط بمنطقة من النشاط الإنساني تسمح فقط بإبداع محدود لهؤلاء الناس الذين لا يتركون القضيب على حريته ببساطة.»[2]

تدريجيا، وفي أوقات وثقافات مختلفة، امتدت التغطية إلى أجزاء أكثر من الجسد كانت تُعرض سابقا علنا دون أي حرج. وبالرغم من ضغط القواعد المتزايد، إلا أن الناس يحتاجون الانتباه والإعجاب من هؤلاء المحيطين بهم. أثناء فعل التباهي بشكل أو بآخر، يواجه المرء خطر ردود الفعل العدائية. فالإنسان كائن مُعرَّض للهجوم. وبين طرفي النقيض: عرض الجسد بكل الطرق الممكنة وإخفاؤه عن النظر؛ تبحث الإنسانية دائما عن حل وسط بين العرض والإخفاء، في كفاح مستمر.[3]

من الواضح أن الأديان قد لعبت دورا هاما في تغطية البشرية المتزايدة لأعضاء الجسد، رغم أنه كانت هناك ومازالت طقوس دينية يخلع فيها الكهنة والمؤمنون قطعة أو أكثر من الثياب. هناك طبيعيون مسيحيون وتتجمع أقلية منهم عراة لأداء شعائرهم الدينية، مجادلين بأن الله خلق البشر عراة، لكن بالطبع يفضل معظم المسيحيين والمؤمنين الآخرين اللباس المحتشم. مازال للأفكار الدينية القديمة عن الجسد العاري أو المغطى تأثير على القواعد الاجتماعية، حتى دون وعي الناس بأصلها. إن ميلنا للخضوع لقوانين الملبس

2- يذكر أوكر في (تغليف الشحفة القضيب) تنويعة كبيرة بشكل لا يصدق. تقييد القلفة، ربط القضيب أو تقييده إلى أعلى، والأغلفة: غلاف اليقطين، غلاف ورق الشجر، غلاف العشب، قشرة القضيب، الجوز، البامبو، طائر أبو قرن، الربط بالألياف النباتية، ألياف الخضروات وهكذا دواليك. انظر -http://www.scribd.com/doc/27641647/Penis-Sheaths-A Comparative-Study#scribd,

3- انظر كتاب جون كارل فلوجيل الرائع (سيكولوجية الملابس) 1930.

المحددة سلفا له علاقة قوية بالتقاليد المفروضة أكثر مما له بصيحات الموضة.

من لديهم السلطة هم من يفرضون القواعد، لكن طوال التاريخ كان هناك أفراد يتساءلون ويتمردون. يوجد اليوم ممثلو مسرح ومغنون جريئون، لكن المرء يجد كذلك أفرادا أو مجموعات من المتعرين تظهر فجأة وسط حشد ممن يرتدون ملابسهم، لنقل رسالة سياسية أو لمجرد جذب الانتباه.

الموضوعات المتنوعة للفصول التالية هي جزء من قصة انشغال الناس بالجسد العاري والأسئلة المستمرة لتعريفات الناس شديدة التنوع للعري وقواعدها التي تُملي أو تحدد أي الأجزاء يجب تغطيتها في المجال العام. تبدو عملية تغطيتنا محكومة جدا بالتهديدات والمخاوف في مواجهة الآخرين. لا شك أن البشر قد نظروا دائما بمشاعر مختلطة لأنفسهم ولبعضهم البعض. لم يكن لكلمتي «عاري» أو «مستور» معنى إلا عندما امتلك الناس بالفعل ثيابا يمكنهم ارتداؤها وخلعها: فلم يكن هناك أحد عاريا عندما لم يكن هناك وجود للملابس.

إلى أي حد تتحكم قواعد الماضي في سلوكنا اليوم؟ بتوضيحه لحدود ظهور الجسد، يسعى هذا الكتاب حثيثا عبر تاريخ البشرية، مستكشفا وجهات النظر المتباينة حول الجلد البشري بتأثيراته غير المتوقعة على الناظرين، سواء كان هذا الجلد بلا زينة أو متجملا، مخفيا باحتشام أو مرئيا على نحو فاضح.

1

لا شيء على الجسد

لا تعرف الحيوانات العفة؛ فقرود البابون تحك أعضاءها التناسلية في أعضاء رفاقها من الجنسين في حضور الحيوانات الأخرى، وقرود الشمبانزي تستمني أمام الجميع. البشر لا يفعلون هذا. من أين يأتي الخجل البشري في مسائل النشاط الجنسي والأعضاء التناسلية؟ تساءل **مونتين** Montaigne عن هذا:

> "ما الذي قد فعله الفعل التناسلي للبشر – وهو فعل طبيعي للغاية، وضروري للغاية، وصائب للغاية – حتى أنهم لا يجرؤون على التحدث عنه بصراحة ويقومون باستبعاده من اللغة الجادة والمنضبطة؟ نحن نجرؤ على أن نقول بوقاحة 'قتل' و'نهب' و'خيانة'، ونجرؤ على أن نقول هذا فقط من بين أسناننا."[4]

عاش هذا الفيلسوف الشهير في القرن السادس عشر عندما كان الناس قد اعتادوا على تغطية أجسادهم لعصور. دعونا نبدأ من البداية.

على رِجلين

عاش أول بشري سار منتصبا من أسلافنا (هومو إريكتوس Homo erectus أو

4- Sarah Blaffer Hrdy 259; Montaigne, Essays. Book III, p. 270

الإنسان المنتصب) منذ حوالي 1.6 مليون سنة وحصل على اسمه من حقيقة أنه قضى وقتا أقل على الأشجار من الوقت الذي قضاه على الأرض. سلفنا المباشر (هومو سابيينس Homo sapiens أو الإنسان العاقل) تطور تقريبا منذ 200.000 سنة.[5] كان للمشي منتصبًا نتائج جسدية هائلة لأسلافنا الأقدمين. كانت الميزة الأعظم للسير على رجلين من السير على أربعة هي القدرة على فعل أشياء أخرى بأطراف الإنسان الأمامية. وقد أشار بعض الأنثروبولوجيين إلى أنه بفضل وضعهم المنتصب استطاع الرجال جذب انتباه نافع لرجولتهم من شريكاتهم المحتملات من الإناث. لم يعد هذا ممكنا في عالم أصبح السير فيه عاريا أمام الجميع ليس بالأمر المعتاد.

تسمح الحيوانات ببساطة لأعضائها التناسلية بأن تتدلى دون قيد، ولا شك أن أسلافنا الأوائل كانوا يفعلون ذلك أيضا. إلى أي حد إذن أدَّى السير على رجلين إلى أول تغطية بسيطة؟ لا توجد شهادات مباشرة، والطريقة الوحيدة للإجابة على هذا السؤال هي مراجعة روايات الغربيين الذين عاشوا بين أناس كانوا يتجولون عراة. عندما وصل **كريستوفر كولومبوس** إلى (ترينيداد) عام 1498 رأى أن النساء لا يرتدين أي ملابس وكان الرجال يضعون نطاقا صغيرا حول الأوراك. (صورة رقم 2)

في عام 1776 وصف المستكشف الإنجليزي **وليام دامبير** William Dampier الأستراليين الأصليين كأناس لا يرتدون ثيابا ماعدا حزاما صغيرا من لحاء الشجر. ولاحظ الرحالة الأوروبيون أن العري بالنسبة للشعوب الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى كان هو الأمر المعتاد. في مذكرات رحلته ذكر المستكشف والأنثروبولجي **جاكوليو** Jacolliot أن أبناء قبيلة الدينكا (في السودان) كانوا فخورين بعريهم، بينما كانوا يطلقون باستهجان على الرحالة الذكر المغطى بالملابس «السيدة التركية».[6]

5- Http://humanorigins.si.edu/evidence/human-fossils/species/homo-erectus.

6- William Dampier The voyages and adventures of Capt. William Dampier. Wherein are described the inhabitants, manners, customs, Trade, Harbours, Soil, Animals, Vegetables &c. London, 1776, Volume 2 History and Geography, p. 254; Louis Jacolliot, Untrodden fields of anthropology. Observations on the Esoteric Manners and Customs of Semi- Civilized Peoples; being a record of thirty years experience in Asia, Africa, America and Oceania, by a French Army Surgeon (in 2 volumes), under the pseudonym Jacobus X, 2nd edition in English. Paris: Librairie de Médecine, Folklore et Anthropologie 1898: 183-4.

في عام 1863 أشار **وليام وينوود ريد** Winwood W. Reade إلى أنه في أفريقيا الاستوائية لم يكن العري بالتأكيد يتسبب في بعث الشهوة، ولم تكن الفتيات اللاتي لا يرتدين أي ملابس يتسببن في أي إثارة. في منطقة (الأورينوكو الأمريكية) أصاب اليأس الأب الورع **جوميلا** Gumila عندما رأى الهنود يلقون كل الأقمشة التي وزعها عليهم بنية حسنة إلى النهر. كان من المفترض أن يصنعوا من تلك الأقمشة ملابس محتشمة، لكنهم كانوا يعتبرون الثياب أمرا غير لائق وكانوا يشعرون بالخجل من تغطية أجسادهم.[7] من أمريكا الهندية إلى (تاسمانيا) بأستراليا، وفي كل انحاء الكوكب يبدو أن الأنثروبولوجيين وجميع أنواع الرحالة يتفقون على أن هذا العري لم يكن فيه شيء مغوٍ، واليوم سيوافق الطبيعيون على هذا بالتأكيد.

بلا أعضاء سرية

يؤكد باحثو القرن التاسع عشر مرارًا وتكرارًا أن الشعوب التي سمُّوها «بدائية» لم تكن تشعر بأدنى حرج أمام أجساد بعضهم البعض العارية. ولا يعني هذا أنه لم تكن هناك قواعد للسلوك.

كتب **كارل فون دير شتاينن** Karl von der Steinen عن (الباكيري)، شعب كان يعيش في منطقة (شينجو) وسط البرازيل عند نهاية القرن التاسع عشر: "بعد 15 دقيقة لا يرى المرء ذلك العري القبيح على الإطلاق [و] فكرة أن الآباء والأمهات والأطفال الذين يتجولون أو يتسكعون ببراءة يجب أن يكونوا محلا للعنة أو الشكوى.." لقد وجد هذا سخيفا، وهي وجهة نظر كان سيرفضها بقوة معظم معاصريه من الأوروبيين. **هؤلاء الناس "ليس لديهم أعضاء جسدية سرية ويطلقون نكاتا محايدة عليها... والرجل الذي يريد أن يشرح لغريب أنه والد شخص ما، والمرأة التي تريد أن تقدم نفسها كأم لطفل، يُظهران بحماس أنهما الآباء الحقيقيين بأن يمسكا بتفاخر تلك الأعضاء التي جاءت منها الحياة في الأصل.»**

7- Winwood W. Reade, Savage Africa. Gumilla, (Padre) Joseph. El Orinoco ilustrado y defendido. Historia natural, civil y geográfica de este gran río y de sus caudalosas vertientes. Escrito en 1731.

طبقا لواحدة من قواعد (الباكيري) تزيل النساء البالغات شعر العانة ويرتدين حلية صغيرة مثلثة الشكل من لحاء الشجر معلقة من الأمام ومن الخلف بخيط يحيط بالوركين. ويبدأ الرجال في ارتداء خيط مماثل منذ سن البلوغ. بالنسبة للشباب يكون لهذا الخيط الصغير وظيفة إضافية: فمن سن البلوغ يُرفع القضيب بطول أسفل البطن ويُفرَد جلد القلفة ويُشد فوق الحشفة ويُربط بإحكام تحت هذا الحزام البسيط. هناك شعوب أخرى كثيرة كانت لديها هذه العادة، عادة ربما نشأت عن الحاجة، لأنه على ما يبدو بحشفة تبرز فجأة بسبب انتصاب عفوي، كان الرجل يجعل نفسه مثارا للسخرية في جماعته.

بعض الشعوب الهندية التي تم دراستها في هذه المنطقة نفسها، مثل الـ (ترومای Trumai)، قد طوروا طريقة آمن لمنع خطر انكشاف الحشفة العارية أمام الجميع. ها هي الطريقة: أولا افرد القلفة بقدر ما يمكنك، ثم اربط خيطا حولها – يُنصح بأن يكون هذا الخيط أحمر، لأنه لون يحمي من قوى الشر. بمجرد تثبيت الخيط وربطه، ستظل الحشفة مغطاة. إذا كان لديك قضيب غير مختون، يمكنك محاولة هذه التجربة بنفسك. بفضل هذه الكسوة من الخيط البسيط أمكن لأي رجل أن يتطابق مع النموذج المطلوب. أما ذكور شعب (ترومای) الأكبر سنا، فغالبا لم يعودوا يكلفون أنفسهم مشقة ربط مثل هذا الخيط.[8] فربما كانوا واثقين من قدرتهم على البقاء متحكمين في قضبانهم.

توجد ممارسات شبيهة في أجزاء أخرى من العالم، في ثقافات محلية عديدة في اليابان والفلبين على سبيل المثال. إما كان الرجال يرتدون الخيط حول أوراكهم طوال الوقت، أو كانوا يفعلون ذلك فقط عندما تكون النساء حولهن، وكانت تلك العادة الأخيرة هي أيضا القاعدة في المجتمعات التي توجد بها أغلفة أو أغطية للقضيب أكثر تعقيدا.[9]

في كل المجتمعات التي كان يجب تغطية الحشفة فيها أمام الناس، كان الرجال يتحملون مسؤولية قضبانهم ذات السلوك غير المتوقع، وهو موقف جدير بالملاحظة إلى حد كبير عندما تفكر أنه كيف بمرور الزمن أصبح اللوم على إثارة الذكر يوضع بشكل أساسي على

8- Karl von der Steinen 1897: 66-67 and 187-190.

9- Cf. Peter Ucko's detailed comparative study (1969).

الجنس الآخر.

في اليونان القديمة حيث كان الرجال يمارسون الألعاب الرياضية عراة، كانت الحشفة الظاهرة تُعتبر أمرا محرجا وهمجيا. ومن الجدير بالملاحظة أنه في الفن الكلاسيكي تظهر الحشفة عارية فقط في صور العبيد والبرابرة. وكان الرياضيون الذين لا يريدون المخاطرة يستخدمون طوقا جلديا رفيعا لربط القلفة إلى أعلى لمنع الحشفة من الظهور. وكان الطوق يُشد إلى حزام حول الوسط يكشف كيس الخصيتين على نحو بارز – تقريبا بنفس الطريقة التي كانت تستخدمها الشعوب البرازيلية الأولى. يُسمى هذا الطوق باليونانية kynodesme والتي تعني ترجمتها «لجام الكلب».

في اليونان لم يكن عري الذكور مشكلة، بل كان مطلوبا في مواقف عديدة، مثل الجمنازيوم، وهي الكلمة المشتقة من gymnos أي «العاري». لكن الحشفة العارية كانت تُقابَل بالازدراء: إذ كان يجب تغطيتها بالقلفة. وكان الطوق الجلدي الرفيع يؤدي هذا الغرض نفسه، لكن بفحص النصوص والأعمال الفنية اليونانية القديمة؛ وجد الباحثون أن kynodesme لم تكن وظيفته فقط أن يُبقي الحشفة في مكانها أثناء الأنشطة الرياضية. فقد كان هذا الكساء الصغير يؤدي كذلك غرضا جماليا: إذ كانت حشفة المرتدي الصبور لهذا الطوق تنفرد بشكل جذاب وعلى نحو دائم.[10].

يختلف النظر إلى أشخاص عراة في مجتمع بلا أعضاء جسدية سرية اختلافا كبيرا عن لمحة غير متوقعة من شخص آخر لأعضائك التناسلية العارية في مجتمع معتاد على تغطية تامة للجسد. لم تكن أثداء السيدات محرجة على الإطلاق طالما كان من الطبيعي أن تكون ظاهرة للعيان، وكانت النساء يرضعن أطفالهن أمام الجميع، ومازالت هناك ثقافات يكون هذا فيها عاديا تماما. من المحتمل أن الهاجس الذكوري حول الأثداء لم يبدأ إلا بعد أن أصبح من الواجب إخفاء هذه الأعضاء من جسد الأنثى لأسباب تتعلق بالاحتشام. اليوم تؤكد وسائل الإعلام والمعلنون واستغلال البورنو لأثداء النساء على جاذبيتها. ومع

10- Cf Paley 86; Eva C. Keuls. The Reign of the Phallus in Ancient Athens, 1985: 68-69; Ucko 43 and plate 14 bij zijn artikel voor een afbeelding.

توجد في المتحف البريطاني أمثلة عديدة من لابسي الـ kynodesme على مزهريات إغريقية. انظر كذلك:

'The Kynodesme, a diminutive article of menswear from ancient Greece: http://www.geocities.ws/kynodesmae/.

ذلك، أثبتت الأبحاث أن صور الأثداء المعالجة بالفوتوشوب في وسائل الإعلام في كل أنحاء العالم قد نشرت حالة هائلة من القلق بين الفتيات اللاتي يتم تلقينهن من سن مبكرة للغاية رسالة فحواها أن نسب الجسد الأنثوي المستحيلة لا غنى عنها بقدر ما هي غير قابلة للتحقق.[11]

التنافس القضيبي

لقد أصبحت الجرعة اليومية من الأثداء في الإعلانات مقبولة في بعض أجزاء من العالم، لكن جرعة شبيهة من الأعضاء الذكرية المعالجة بالفوتوشوب مازالت غير واردة في وسائل الإعلام الجماهيرية. برغم ذلك، يبدو أيضا الرجال اليوم في قلق متزايد بشأن إمكانية أن تكون أعضاؤهم ليست مثالية تماما. ومنذ أصبحت الأعضاء الذكرية الخاضعة للتكبير شائعة في أفلام البورنو وإعلانات الفياجرا، تهبط عروض كثيرة للغاية في صندوق بريدي للرسائل الضارة أو المشكوك فيها (spam)، ودائما باللغة الإنجليزية. ها هي بعض امثلة قليلة منها:

أداتك الذكورية بحاجة لتحسين.

زِد حجم رجولتك.

كبِّر سلاح حبك.

عش كملك بصولجانك العملاق.

قل (لا) لأن تكون فاشلا صغير الحجم.

اطلب قضيبك ذا السبع بوصات هنا.

أبعاد بالغة الضخامة من أجلك...

11- E.g. Marzano, 2002.

لا شك أن هذا التدفق المزعج من الإشارات القضيبية يقلق راحة بال الرجال بنفس القدر الذي تفعله بالنساء تلك الإشارات الخاصة بالأثداء. ربما لم يحدث أبدا أي بحث منهجي لتأثير هذه الرسائل، لكن يبدو أن التنافس القضيبي ظاهرة غير قابلة للاستئصال:

"يكون هذا التنافس في الحجم على أشده في المدارس الثانوية. قد يحصل الأولاد على ألقاب بناء على الشكل الذي تبدو عليه أعضاؤهم الذكورية: الثعبان، الضفدع الصغير، الزاحف الأرجواني. قيل لي 'يَرى المرء قضبان الآخرين عندما يأخذ دشا في المدرسة الثانوية. والفتى ذو القضيب الجيد يتباهى به. سيُلوّح به ويهزه إذا كان مع أصدقائه في نفس حجرة الدش.'"

أما الآخرون، الذين يظنون (غالبا بالخطأ) أنهم محرومون من هذه الميزة، فهم حتى لن يفكروا أبدا في فعل هذا. وعندما لا يكون هناك أحد حولهم فإنهم يحاولون أن يمطوا عضوهم المسكين، ويعلقون أثقالا عليه ليزيدوا طوله، أو يبتلعون الفياجرا بلهفة في سن البلوغ.[12]

"القضيب ذو الطول المتوسط لا بأس به" يهتف بذلك عنوان رئيسي في جريدة لتبهج قراءها. أخيرا رسالة مريحة. عرضت دراسة حديثة على أكثر من مائة امرأة (متوسط أعمارهن 26 سنة) رسوما متحركة بالكومبيوتر لأجساد ذكور من كل الأشكال والأحجام – ووجدت أن طول القضيب الذي يزيد عن 7.6 سم قلّما يضيف لجاذبية الذكر. كان سؤال الدراسة هو لماذا يكون القضيب كبيرا هكذا بين البشر، مقارنة بالقردة التي نتشارك معها الأسلاف. فما بين الغوريلا وإنسان الغاب يكون القضيب أصغر من ثلاث إلى أربع مرات عن الإنسان. من جديد، لاحظت هذه الدراسة أن القضيب أصبح بشكل آلي محطا للنظر بشكل ملفت عندما انتقلت الكائنات البشرية من فصيلة ذوات الأربع إلى فصيلة ذوي القدمين.[13] منذ ذلك الحين أولى الرجال والنساء بطريقة آلية اهتماما أكبر للأعضاء التناسلية الذكرية وأصبحوا يربطون بين القضيب الطويل وبين المزيد من الفحولة والهيبة، مشجعين بذلك التنافس.

12- Paley 18.

13- Sciences Supplement NRC Handelsblad 9 April 2013.

من ناحية أخرى لم تكن حليات وزينة الأعضاء التناسلية بين الشعوب العارية متضمنة في الدراسة المذكورة أعلاه. من المحتمل أن الغطاء المزخرف لم يكن فقط من وحي الانتصابات غير المرغوبة أمام الناس، لكن أيضا خشية ألا يكون المرء كفؤا للنموذج المُتخيَّل. وقد تساعد إجراءات معينة في منع النظرة الحاسدة المدمرة من البشر الآخرين. وفقا للمثل الفرنسي القديم «كل شيء كان سيغدو على ما يرام لو لم يكن هناك قضيب.» في هذا الجانب يبدو أنه لم يتغير الشيء الكثير.

يخشى الناس دائما أن يفقدوا هيبتهم ومظهرهم العام. لعل أقدم وأكثر أشكال تغطية الجسد أوليَّة قد جاءت في الأصل خوفا من التعرض للسخرية من الآخرين بسبب الاعتقاد بأن عضوا هاما في الجسد به عوار. أو الخوف من أن يصبح المرء هدفا للضحك بسبب حركات جسده غير القابلة للتحكم – والتي يثيرها في أسوأ الحالات وجود النساء اللاتي كن عادة يفتقدن القوة البدنية والسياسية، لكنهن كن يستخدمن جاذبيتهن الجنسية لإهاجة الرجال. لا شك أن هذا الخوف أقدم بكثير من تعاليم الكتب السماوية الثلاثة. ورغم أنه لم يكن هناك أي مراسل صحفي ليُدلي بشهادته حول السياق قبل التاريخي للأمور، إلا أن هناك شيئا واحدا لا يمكن الخلاف عليه: بمجرد أن بدأ البشر في السير منتصبين، أصبح لديهم منظور جديد واهتمام بالسمات البدنية لبعضهم البعض.

إرث التطور

فكرة أن الآخرين قد يكونون أكثر جمالا أو قوة أو كفاءة، وأنك لست مواكبا للمعيار المقبول، تنتهي ببساطة إلى الخوف والخجل، بين الأقوام التي تمضي عارية وتلك التي تمضي مغطاة. النظر يؤدي إلى المقارنة.

المتخصصون في نظرية التطور يؤمنون أنه بفضل سير البشر منتصبين أصبح القضيب المرئي الآن بشكل ملفت هو المعيار الحاسم للاختيار الأنثوي بالنسبة للخصوبة الذكرية وأن هذا الاهتمام الأنثوي بالقضيب هو الذي دفع نموه التطوري.[14]

14- Miller, chapter 7.

وحيث أن الأعضاء التناسلية الأنثوية لم تكن ظاهرة للغاية في الموقف الجديد، ولّدت النساء السائرات منتصبات اهتماما ذكوريا بالمؤخرات والأثداء الأنثوية الكبيرة. ربما ربط أسلافنا بين سمنة الجسد وبين الخصوبة؛ لأن التأكيد على هذه الأجزاء من جسد الأنثى واضح تماما في أقدم صور الخصوبة. (الصورة رقم 3)

كانت أثداء إناث الثدييات تتدلى من الجانب السفلي لأجسادها، بينما أصبحت الأثداء الظاهرة بوضوح للنساء السائرات منتصبات أمارة جنسية للإعلان عن خصوبة الجسد الأنثوي. نتيجة لذلك غدت أثداء النساء بارزة، حتى وهن لا يرضعن، كسمة مميزة عن إناث الحيوانات الأخرى. نحن مدينون بمفاتننا الجنسية كرجال أو نساء لعملية التطور وفقا للأبحاث (القائمة على الافتراض بعض الشيء هنا وهناك) الخاصة بعلماء النفس التطوري:

"أجسادنا مصادر ثرية للأدلة الخاصة بضغوط الاختيار الجنسي، لأنها ظاهرة للعيان، وقابلة للقياس، ومن السهل مقارنتها بأجساد الأنواع الأخرى، ولم تشوهها الثقافة البشرية نسبيا... إن الكثير من قسمات جسدنا مثل الأعضاء الذكرية، والأثداء، والمؤخرات، واللحى، وشعر الرأس، والشفاه الممتلئة تُظهر سمات الانتقاء الجنسي عبر اختيار الشريك. إنها مُكبَّرة على نحو فريد في نوعنا... في العالم كله تحظى بقيمة واضحة كعلامات جنسية، ويتم إبرازها أكثر عبر الزينة والماكياج. ربما تطورت جزئيا كمؤشرات للياقة وجزئيا كحِليات... ست اختلافات هي علامات مميزة جدا للاختيار الجنسي. والقسمات الموجودة في جنس لكنها غير موجودة في الآخر تنتج عادة من الاختيار الجنسي.»[15]

تتعلق المغازلة بالنضج الجنسي ويتفق علماء النفس التطوري على أن آليات الاختيار الجنسي لم تتغير منذ ما قبل التاريخ: أثداء الإناث ومؤخراتهن ولحى الذكور وأعضاؤهم الذكرية وعضلات نصفهم العلوي. لقد بقي التفضيل الذكوري الأول للأثداء البارزة وصمد أمام تقلبات الزمان.

15- Miller 225ff.

طوال القرنين الماضيين ردد العلماء كثيرا فكرة بعضهم البعض أن الرجال لديهم «بشكل طبيعي» شهوة أكبر مما لدى النساء. في زمن داروين، ولعقود بعده، آمن المتخصصون أن النساء سلبيات ويتبعن سياسة (فلننتظر ونرى) في أمور الجنس. ولسهولة التناول فضلوا أن يغضوا الطرف عن ملاحظة داروين أنه طوال تاريخ التطور كان للاختيار الأنثوي تأثير قوي على زينة الذكور وسلوكهم. تقبل زملاء داروين ببساطة أفكاره عن تنافس الذكور، لكنهم وجدوا فكرته الثورية عن تفضيلات الأنثى كقوة محركة لعملية التطور أمرا عصيا للغاية على أن يبتلعوه حتى أنهم تجاهلوها في العموم. اختفت فكرة اختيار الأنثى في الخلفية، بينما بقيت فكرة الأنثى السلبية مفرطة الاحتشام كعقيدة لا تقبل الجدل لمدة ما يقرب من قرن من الزمان.[16]

كان لدى داروين ومعاصريه أفكار مختلفة تماما عن الشهوة الأنثوية مقارنة بأفكار الرجال في اليونان القديمة الذين آمنوا بأن «طبيعة المرأة الحيوانية كانت تكمن في جوهر كينونتها»، وكانوا يقارنون الفتيات الصغيرات بإناث الدببة واللبؤات، وهي حيوانات لديها غريزة جنسية منفلتة، قادرة على التسافد كل 15 دقيقة، ليلا ونهارا، مع ثلاثة ذكور على الأقل. وتوجد في التراث العربي قصص لا تقل هولا عن نساء لديهن نهم جنسي ولا يستطيع في النهاية أزواجهن أن يشبعنهن، بل لا يفعل ذلك إلا دب فحل أو حمار بقضيب هائل. فاطنة صبّاح Fatna Sabbah – وهو اسم مستعار لمؤلفة لم تجرؤ على النشر باسمها الحقيقي – درست هذه القصص التي تعكس المخاوف الذكورية في سياق الإيروتيكية العربية والإسلام. ونشرت كتابا رائعا تقتبس فيه على نحو واسع من نصوص عربية إيروتيكية:

> "في الخطاب الإيروتيكي، يتغذى الجنس عند المرأة بالرجال الذين يقتربون منه كقطب للطاقة الحيوانية، لا يُقاوَم، يهتز ويجعل الكون يهتز على إيقاع خاص به كلية، حيث يتقلص دور الجسد الذكري إلى مجرد النظر، كالمنوم مغناطيسيا: 'تمددت على ظهرها، وعرَّت فخذيها... ثم عاينت فرجها...

16- Vandermassen (2005) 76-82 and Blaffer Hrdy quoted by her on page 76.

انفتح كفرج فرس عند اقتراب فحل من الخيل.' تتحرك المرأة الميالة لكل أنواع الجنس في مساحات لم تعد توجد بها فروق بين الحيوان والإنسان. وفي موضع آخر يوصف الجنس الأنثوي بالمفردات التالية: 'جعل بينهن خلقة هائلة شبيهة برأس الأسد في العرض إذا كان ملحما ويسمى بالفرج. فكم من واحد مات عليه حسرة وتأسفا من الأبطال!'»[17]

من يجرؤ على التقدم لمواجهة هذا التحدي؟ وتلك الشهوة الجامحة، ألن تكون سببا منطقيا للنساء كي يشتقن للعلاقات الجنسية خارج الزواج طوال الوقت؟ وبالتالي أدت المخاوف عميقة الجذور إلى قواعد صارمة كان القصد منها كبح هذه الشهوة الأنثوية المريعة.

النساء في أيامنا مكبوتات أكثر من إناث الشمبانزي. لماذا؟ بين القردة وكذلك بين الناس يمكن أن تؤدي الاهتمامات المتصارعة إلى توترات مزمنة. ويجادل المتخصصون في التطور بأن السلطة الأبوية والهيمنة الذكورية أقدم من البشر وتحدث على نطاق واسع بين الثدييات.

لماذا قبل جنس واحد نظام تربية ينتقص من قدره ومفروض عليه من الجنس الآخر، كما يحدث غالبا في المجتمعات الأبوية؟ إذا حصرنا السؤال في النوع الإنساني، فإن أحد أسباب موافقة النساء على مثل هذا النظام كان خطر العنف البدني، سبب آخر كان هو حقيقة أن الحياة كان يمكن أن تكون خطرة للغاية بالنسبة للأطفال لدرجة أنه كان من الممكن ببساطة ألا يبقوا على قيد الحياة دون ذكر حارس.[18]

أراد الحارس – من وجهة نظره – أن يطمئن إلى أن ذريته من نسله، وهي معركة انتهى فيها التنافس والتحكم الاستحواذي إلى وضع جسد الأنثى في سجن الذكر للاستخدام الحصري من قِبَل مالكه.[19] وكانت التبعية الاقتصادية عاملا حاسما كذلك: «الرجل الذي

17- Blaffer Hrdy 262; Fatna A. Sabbah 26-27;
الاقتباسات من كتاب الشيخ النفزاوي (الروض العاطر في نزهة الخاطر)، وهو مثال رائع للأدب الإيروتيكي العربي من القرن الخامس عشر، وقد تُرجم لاحقا إلى عدة لغات أخرى مثل الفرنسية تحت عنوان: La prairie parfumée عام 1976

18- Blaffer Hrdy 258. Vandermassen 191

19- Ibid. 263.

يكسو امرأة من حقه أن يُعرّيها.» هكذا اعتاد الفريزيون (قبيلة جرمانية تقطن ساحل بحر الشمال في هولندا وألمانيا) أن يقولوا، ومازال هذا هو نظام الأشياء في كل أنحاء العالم.

لم تنتهِ الذكورية إلى سيطرة الرجل في كل مكان، ولم تنتهِ الأنوثة دائما إلى الخضوع المغطى والعفة المطلوبة بصرامة. أثناء كتابته عن (جُزُر بولينيزيا) حيث كان من النادر وجود جسد واحد مغطى، لاحظ **جاكوليو** – أحد باحثي القرن التاسع عشر – أنه كانت توجد على جزيرة (تاهيتي) حرية جنسية غير محدودة تقريبا: «حتى أن النساء المتزوجات إما يسرحن بأنفسهن أو يقوم أزواجهن بإعارتهن بمنتهى السهولة، [و] لم يكن الحياء معروفا على الإطلاق.» على العكس من ذلك كان الرجال في نيوزيلندا يصرون على حقوق ملكيتهم و«تُعاقَب غالبا بالموت المرأة المدانة بالزنا المحرم.» لكن نادرا ما كان يحدث هذا؛ لأن النساء كن محتشمات إلى حد كبير: كن يلبسن دائما أحزمتهن المصنوعة من الكتان (phormium tenax) حتى وهن ذاهبات للسباحة، وخلال نومهن.[20]

أينما تساوت العفة الأنثوية بالمطالب الزوجية، اعتُبرت المرأة ممنوعة من معاشرة أي رجل آخر غير الرجل الذي يدير حياتها؛ زوجها. وأصبحت العفة شرطا بديهيا للزواج والأمومة:

> "كانت الحيلة هي إقناع المرأة بأن العفة من مصلحتها وفي نفس الوقت دليل على أنها أم صالحة. سيكون للمرأة نصيب واضح في الإذعان عندما تعتمد مكانة ذريتها على 'فضيلتها'، على كيفية توافقها مع المعايير الأبوية. من هنا فصاعدا، يصبح من الصعب للغاية فصل مصالح الزوج عن مصالح زوجته وأطفاله.»[21]

طوال ألف عام وُضعت قاعدة عفة الأنثى تلك كمثال وتم توارثها لتصبح مستبطنة من كلا الجنسين كسمة لا غنى عنها للفتيات، والنساء، والزوجات، والأمهات، خاصة في المجتمعات التراتبية التي كان فيها الرجال متعددي الزوجات وكان بإمكان الفتيات

20- Jacolliot 185-186.

21- Blaffer Hrdy 263.

أن يتزوجن «بدرجة أعلى» بفضل سلوكهن المثالي. في المجتمعات الأبوية تُعلِّم طقوس التلقين الأولى الفتيات أن مستقبلهن سيتحدد بالزواج من خارج القبيلة وترتيبات التبادل: ستتزوج الفتيات بعيدا وينتهي بهن الأمر في قرية أخرى، بينما سيظل الرجال محاطين بعائلاتهم في بيئة مألوفة لهم منذ الطفولة. تتعلم الفتيات كيف يتصرفن ويلبسن بطريقة لائقة، وترجع معايير السلوك المحتشم للنساء إلى آلاف السنين. وبسبب عملية طويلة من التراتبية الجنوسية المستبطنة تستمر نساء كثيرات مقيدات بالأغلال في صور سلبية للذات وحالة من الخضوع مدى الحياة.[22]

لإخفاء زوجة عن نظرات الرجال الآخرين المحدقة، يمكن حبسها في البيت. وفي المجال العام كانت الملابس السابغة بالكامل تُقدَّم كثيرا باعتبارها درعا للعفة. لكن بالرغم من جميع الاحتياطات، كيف يمكن لأي رجل أن يكون واثقا من عفة زوجته؟ عندما كنت أُدرّس في (الكونغو) كان كل طلابي من الذكور، وبعد الأسابيع الأولى أراد أحدهم أن يسألني «سؤالا شخصيا جدا»: كيف أمكن لزوجي أن يسمح لي بأن أقضي اليوم بأكمله في صحبة رجال فقط؟ فهو نفسه لم يجرؤ أبدا على أن يسمح لزوجته بالذهاب وحدها إلى السوق. هذا إحساس حقيقي بالخوف من شخص مقتنع بأنه «حتى الرب ليس ذكيا بما يكفي كي يقبض على امرأة عاشقة» كما يقول المثل الأفريقي. تبعت ذلك مناقشة ممتعة، محاطة بالكثير من الضحك المُخفي للتوتر.

كثيرا ما تمت ترجمة طاعة الأنثى إلى قواعد مفروضة بتغطية الجسد، بالرغم من أن الزي الإلزامي وغيره من القواعد المقيّدة لم تنتج أبدا ضمانا غير مشروط بالعفة الأنثوية أو الذكورية. كان اسم الأب دائما هو سر الأم، وظلت الأبوة حقيقة حياتية غير موثوق منها بالنسبة للبشرية حتى أتت أبحاث الدي إن إيه DNA في النصف الثاني من القرن الماضي بالمزيد من القدرة على جلاء الحقيقة.

22- Blaffer Hrdy 261. انظر كذلك الأجزاء الخاصة بالفتيات والبنات في كتابي (إياك والزواج من كبيرة القدمين)

لقد فهم علماء النفس – بشكل لا يقل عن أسلافنا – ذلك التأثير المفزع لكشف الأعراض التناسلية للمرء أمام الناس. في الكثير من الثقافات القديمة كان الفالوس (القضيب) phallus – العضو الذكري المنتصب – يُستخدم بشكل عام كسلاح في المواقف المهددة للحياة. ربما كان لهذا الفعل تأثير محبب على المجتمع بأكمله، لكن مثل هذا العرض غير الشاعر بالحرج يختلف تماما عن شخص استعراضي يقوم بنفس الفعل لمتعته الجنسية فقط. إنها عادة قديمة جدا. في اليونان القديمة كانت لتماثيل الإله (بريابوس) Priapus بقضيبه المنتصب قوة سحرية تخيف المتسللين وتطردهم، وكان الإله الروماني (فاسينوس) Fascinus – الذي كان يتم تصويره بنفس الشكل – يتم استدعاؤه كقوة حامية ضد السحر والحسد والعين الشريرة.[23]

وكانت الأعضاء التناسلية الأنثوية كذلك – بل وأسبق من الأعضاء الذكرية وفقا لمصادر عديدة – تُستخدم لمحاربة قوى الشر أو التأثيرات السلبية، أو لتهدئة خطر الكوارث الطبيعية، أو للسخرية المكشوفة من عدو ما:

> "كانت الأشكال الأنثوية ذات الفرج المكشوف تُستخدم على نطاق واسع كتمائم في الأزمنة القديمة في مصر واليونان وروما وأوروبا المسيحية وأجزاء أخرى عديدة من العالم. وكان يُعتقد أنه يمكن تلطيف الطقس السيء، وإخماد العواصف، وتجنب الصواعق، وإنزال المطر، وتأمين خصوبة الأرض عن طريق نساء يكشفن أعضاءهن السرية للسماء والحقول، أو للبحر.»[24]

كان **بلينيوس الأكبر** Pliny the Elder (من 23 أو 24 إلى 79 م) – الذي لم يتزوج أبدا ولم يكن لديه أطفال – يعتقد أن امرأة عارية حائضة بشعر محلول يمكنها أن تؤثر بقوة على عواصف البرد، والزوابع، والبرق: إذا سارت هكذا حول حقل، فإن اليرقات والديدان والخنافس ستتساقط من كيزان الذرة. بل إنه كان متيقنا بالفعل أنها حتى دون

23- Bertling 86-94; Barcan 182ff

24- Benjamin Walker quoted in Barcan 192

حيضها يمكنها أن تجعل عاصفة بحرية تهدأ بمجرد أن تبدأ في خلع ملابسها.[25]

في الميثولوجيا اليونانية هناك مثال (بوبو) Baubo وهي امرأة عجوز ذات فرج مميز بوضوح على ذقنها أو بين ساقيها، كما يمكن رؤيتها في العديد من الصور القديمة. تقول الحكاية أنها حلقت شعر عانتها وكشفت أعضاءها التناسلية للربة الحزينة (ديميتر) Demeter لكي تبهجها. وفي شمالي أوروبا هناك أمثلة أخرى لمنحوتات حجرية قديمة لهيئات أنثوية لها فرج مفتوح على اتساعه. توجد هذه الأشكال العارية على الكنائس والقلاع وأسوار المدن القروسطية، خاصة في آيرلندا وبريطانيا العظمى حيث يُطلق عليها: شيلا نا جيج sheela-na-gig. ربما خدمت هذه الأيقونات أغراضا مشابهة، أي تجنب الموت أو الشر عن طريق التمثيلات الغريبة والهزلية. (الصورة رقم 4).

وفقا للعديد من الباحثين، كانت الأعضاء التناسلية والعري كذلك من أقوى وسائل درء الشر في آسيا، مثلا في (آتشيه) بإندونيسيا. في جزر (كارولاين) في (ميكرونيسيا) ثُبتت أشكال أنثوية منحوتة من الخشب على مدخل بيت الزعيم. تستقر أياديها على أفخاذها، وتكشف الأرجل المتباعدة عن فرج بارز مميز بمثلث أسود. مثل هذه الأيقونات – المسماة ديلوكاي dilukái – عملت على حماية صحة وحصاد أهل القرية وطردت الأرواح الشريرة. (الصورة رقم 5).

بحسب **ميرتشا إلياده** Mircea Eliade "ليست مصادفة أن كل مثال من العلامات الممثلة لأعضاء المرأة التناسلية والمستخدمة كأحجبة توجد على البوابات. فالفرج هو البوابة الأولى، الفاصل الغامض بين العدم والحياة."[26]

هناك قصص قديمة تُحكى كذلك في آيرلندا والصين عن التأثير الرادع على الأعداء عند الكشف المتعمد لأعضاء المرأة التناسلية، قصص ترفع فيها النساء تنوراتهن أو يخلعنها،

25- As explained in the work of his nephew Pliny the Younger, Historia Naturalis, xxviii. c.23, p.304 in the English web edition of John Bostock, Pliny the Elder, The Natural History, http://www.perseus.tufts.edu/hopper/text?doc=Plin.+Nat.+toc.

26- Juliette Dor, 'The Sheela-na-Gig: An Incongruous Sign of Sexual Purity', in Bernau, Evans and Salih 2003: 33-55; Bertling 96ff; .Mircea Eliade in the Encyclopedia of Religion: http://en.wikipedia.org/wiki/Sheela_na_gig#cite_note- Eliade-14.

وبذلك يستطعن إفزاع وإبعاد العدو بإظهار أعضائهن الجنسية. من الواضح أن هذا كان شكلا مؤثرا من أشكال اللعنة. لايزال المرء يجد أمثلة حديثة في أفريقيا. خلال أحد الاحتجاجات على شركات النفط في يونيو 2002 استخدمت النساء هذا النوع من الأفعال، بعد سنوات من تدمير بيئي غير مسبوق، ومعاناة وفقر في المجتمع. كان المنطق الكامن هو نفسه: كلنا نأتي إلى العالم عبر المهبل. بكشف مهابلهن أمام الجميع، كانت النساء ينقلن الرسالة دون كلمات: «بهذه الطريقة نسترد الحياة التي قد منحناها لكم.» وبهذا الإعدام الاجتماعي كن ينكرن على العدو وجوده المستمر. والرجال الذين تحل عليهم هذه اللعنة يُعتبرون أمواتا. من الآن فصاعدا سترفض كل النساء أن يطبخن لهم، أو يتزوجوهم، أو يعقدن أي اتفاق معهم، أو يشترين منهم شيئا.[27] احتلت النساء أرض شركة النفط وهن يغنين، وانضم رجال كثيرون إلى الاحتجاج. فقد أدركوا أن أخواتهم، وأمهاتهم، وجداتهم، وزوجاتهم كن قادرات على جذب انتباه العالم بطريقة لا يقدرون عليها هم أنفسهم.

عزلاوات دون سلاح احتفظن بسبعمائة عامل كرهائن ونجحن في منع إنتاج نصف مليون برميل يوميا. كانت لعنة العري تلك – المتجذرة بعمق في التراث – هي أكثر وسائلهن تأثيرا لتجنب البؤس وسوء الحظ. منحتهن شركة البترول كثيرا من مطالبهن: وظائف جديدة، ومدارس، ومياه وكهرباء لأهل القرية في المنطقة.

تمتلك الأعضاء التناسلية فتنة أكثر استحواذا في المجتمعات التي تكون رؤيتها علانية فيها غير مسموح بها، وحيث لا يجرؤ أي شخص على التحدث عنها صراحة. وهذا هو السبب في أنها ألهمت رقصات وطقوسا وصورا وتمائم وكتابات على الحوائط ونكاتا ولعنات وإيماءات.

27- Sokari Ekine, International Coordinator Niger Delta Women for Justice,
http://www.imow.org/wpp/stories/viewStory?storyId=1098. ; http://en.wikipedia.org/wiki/Anasyrma; see also antropologist Terisa Turner quoted in: Women, Power and Politics,
http://www.imow.org/wpp/stories/viewStory?storyId=1098.
في عام 2011 حدث شيء مشابه في أبيدجان بساحل العاج حيث اجتمعت في الثالث من مارس خمسة آلاف امرأة للتظاهر ضد الرئيس لوران جباجو الذي رفض التنازل عن السلطة بعد خسارته للانتخابات ضد ألاسان كواتارا. ارتدت بعض النساء ملابس سوداء، ولم ترتد أخريات أي شيء، على الإطلاق: وكلاهما من المحرمات هناك. كانت تلك هي طريقتهن في جلب اللعنات على نظام جباجو غير الشرعي. للأسف في هذه الحالة يبدو أن اللعنة لم تعد ناجحة: لقد فقدت سبع سيدات من المحتجات حيواتهن.
See http://en.wikipedia.org/wiki/Apotropaic_magic

الإيماءات الممثلة للقضيب ليست نادرة في المجال العام، مثل رفع إصبع الوسطى العاري أمام شخص ما. يعود أصل هذه الإيماءة إلى اليونان – على حد علمنا – ويبلغ عمرها أكثر من 2000 عام. وكانت تشير إلى الجنس الشرجي في العلاقات المثلية بين الرجال. بين الرومان الذين أخذوا هذه الإشارة من اليونانيين كان رفع إصبع الوسطى يُعتبر فعلا وقحا للغاية. عادت هذه الإيماءة التي تماثل جملة fuck you إلى أوروبا من الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن العشرين، وتُعتبر الآن مهينة للغاية حتى أنك تخاطر بغرامة كبيرة إذا قمت بأدائها لرجل شرطة.

كانت هناك إيماءة جنسية أخرى شائعة بين الجنود الرومان كرمز للحظ الطيب: تميمة 'القبضة والقضيب' (manus fica باللاتينية) والتي يشار إليها بالإيطالية كـ **mano fica** وكلمة fica تعني "تين" وهي إشارة مبتذلة للمهبل. بوضع إصبع الإبهام بين إصبعي السبابة والوسطى تشير **mano fica** إلى الجنس. لقد ارتحلت إيماءة وتعويذة 'القبضة والقضيب' من بلاد المتوسط إلى أجزاء أخرى من العالم.

في الأصل كانت هذه الإيماءة تساعد على تجنب العين الشريرة أو الأرواح الشريرة. قد يكون الاعتقاد بتأثيرها الواقي أتى في الأصل من فكرة أن الشياطين بلا جنس، ويمكن طردها سحريا عن طريق رؤية إيماءات أو أشياء ذات قوة تشير إلى الجنس أو التناسل. على المزهريات اليونانية القديمة كانت الأعضاء الجنسية الذكرية المنتصبة تُرسم وقد تزينت رؤوسها بعين حارسة، كما كان الناس يفعلون على السفن: عيون يحتاجها المرء ليجد طريقه في أرض مجهولة.[28]

يوجد الإيمان بالقوى السحرية للأعضاء التناسلية في أماكن كثيرة. في مناطق البحر المتوسط يوجد اعتقاد منتشر بأنك إذا وضعت يدا (ويُفضّل اليمنى) على أجزائك السرية عارية أو مغطاة، فستزيد من الحظ الطيب وتتجنب الحوادث المؤسفة. وبحسب عازف الكمان والمخرج الفرنسي **جان بيير واليز** Jean-Pierre Wallez فإن بعض المغنين دائما ما يلمسون أعضاءهم التناسلية بسرعة قبل أن يعرضوا.[29] هل التصقت هذه

28- John Boardman, Athenian Red Figure Vases. The Archaeic Period. London: Thames and Hudson 1975: 220

29- Le livre des superstitions. pp 1,246-1,249

الإيماءة التقليدية في جينات شعوب البحر المتوسط؟ قام الرئيس المصري المعزول **مرسي** بهذه الحركة بطريقة آلية خلال مقابلة في التليفزيون، دون أن يتوقع أن هذه الإيماءة الواضحة ستتسبب في ضجة وصخب في العالم كله.

هل تستحضر الإيماءات والكلمات القوى الحارسة أم أنها تمثل تساميا للرغبة الجنسية المحبطة؟ وفقا **لسيجموند فرويد** فإن الشخص الذي يستخدم لغة فاحشة يُلمِّح بطريقة لا واعية لفعل جنسي مع الشخص المهان.[30] يبدو من غير المحتمل تماما أن يكون العدد الكبير من قائلي الألفاظ النابية المعاصرين والمُخاطَبين واعين بهذا الربط الفرويدي، لكن هل نعرف بالفعل أعمق ارتجافات القلب؟

ظلال التاريخ

تتدلى ظلال الماضي الطويلة فوق عالم اليوم، وتجعل معظم الناس يتوافقون مع توقعات الآخرين المهيمنين. تطور الخيط المحيط بالوركين عند الإنسان العاقل Homo Sapiens إلى مآزر محتشمة مصنوعة من ألياف النباتات ولحاء الشجر، وأصبح المئزر تنورة ملفوفة بعد زراعة الكتان. وأمد الصيد وتربية الحيوانات الناس بالجلود والصوف. وشكّل دولاب الغزل ونول النسج تقدما تقنيا هائلا. لكن الناس لم يغطوا أنفسهم على الفور في كل الظروف.

في المناطق الاستوائية كان السكان نادرا ما يرتدون ثيابا، ماعدا خلال الطقوس والاحتفالات. فسر الزوار الغربيون هذه التغطية النادرة على أنها من علامات غياب الحضارة، رغم أنه كان هناك أنثروبولوجيون لديهم آراء مضادة.[31] بناء علي تقرير من القرن التاسع عشر، لم يكن الناس في (نيو كاليدونيا) يتبولون أبدا على أي حائط في الوقت الذي لم تكن متاحة فيه أي مراحيض عامة، وكان هذا ينبغي «أن يكون مثالا يُحتذى بالنسبة للرجل الإنجليزي»:

30- Freud in Bertling 87.

31- Sinclair 1977: 20.

"في كل أنحاء بولينيزيا [بحسب لوتورنيو **Letourneau**] كان العري فيما سبق هو الموضة. وكان أهل تاسمانيا وبولينيزيا – عند الضرورة – يلقون على أكتافهم عباءة من جلود الكنجارو، لكن هذا كان فقط بسبب البرد، أو كحماية من النباتات الشوكية. لم تكن النساء حتى يحلمن بالاحتشام، ولابد أن يتأثر المرء بهوس الجنس البشري بالعثور على أي نية للاحتشام في عادات نساء تاسمانيا، عندما كن يجلسن القرفصاء ليرفعن قدما أو كلتى القدمين ليغطين عريهن. يحدث كثيرا أن يكون الرحالة الأوروبيون – خاصة من المبشرين – الميَّالون لأن ينسبوا إلى الأعراق الأدنى جزءا من أفكارهم عن الاحتشام أو كلها.. يحدث أن يكونوا قد رأوا نية للاحتشام في مجرد الأشكال الأولية من الملبس، التي كانت تُستخدم فقط لأغراض الحماية. إن الخيوط وقطع اللحاء الخاصة بأهل (نيو كاليدونيا) والأصداف التي يرتديها أهل (جُزُر ماليكولو) لا تكشف بأي شكل من الأشكال عن أي نية أخلاقية؛ والدور الذي تلعبه هو دور درع خاص مُعَد لحماية أعضاء حساسة."[32]

بالطبع ليس الأمر بهذه البساطة. فلدى الناس حاجة للتجمُّل أو الحماية، وخوف من إظهار جزء من الجسد عصي على التحكم أو معيب – توجد هذه المخاوف في تشكيلة واسعة من التركيبات. ويحدد الامتثال للمعايير المطلوبة سلوك الناس العام، سواء كانت أجسادهم في العموم مغطاة أم لا.

في حدود ما تعيه الذاكرة الحية، كان رجال السلطة دائما ما يرتدون ملابس مميزة لكي يعززوا مكانتهم وهيبتهم. على مزهريات من عصور قديمة يرتدي خادم تنورة قصيرة فقط بينما يلبس سيده رداء طويلا. فيما بعد في أوروبا كانت أزياء النبلاء محرمة على الرعية. في أوقات التغيير – أثناء الثورة الفرنسية مثلا – كان العامة يخرقون القواعد المفروضة عليهم من الطبقة الأعلى. وبعد أن جعل التصنيع إنتاج الملابس أقل جهدا وتكلفة، بدأت الطبقة العاملة تلعب دورا أكثر أهمية في الموضة.

32- Letourneau quoted in Jacolliot 1898: 181-82.

في العمل يفضل معظم الناس ملابس لا تعيقهم. فالمرأة الغربية التي تعمل من أجل قوت يومها لم تكن ستشعر بالراحة لو ارتدت رداء ببطانة طويلة بمشد خصر خانق، مثلما كانت ترتدي السيدات غير العاملات من الطبقات العليا في القرون السابقة. في أوروبا، أصبحت الموضة للرجال أبسط وأكثر تماثلا – وأكثر مللا لهذا السبب – بغض النظر عن الطريقة التي يحاول بها مصممو الأزياء جاهدين أن يقلبوا الأوضاع.

في المناطق التي احتلتها أوروبا خلال القرون الماضية، كان لدى الناس ردا فعل واضحان: الاستيعاب والمقاومة. تبنى الكثيرون الزي الغربي، لكن كان هناك أيضا قوم قاوموا بوضوح عن طريق تفضيل الزي التقليدي، كما يظهر في الصور الفوتوغرافية للسياسيين في اللقاءات المحلية والدولية.[33]

في الدول الاشتراكية كان لابد للزي أن يتوافق مع مبدأ المساواة الاشتراكي. أثناء الثورة الثقافية، لم تنتج الصين سلعا ترفيهية مثل الماكياج والفساتين الفاخرة. في ظل حكم **ماو تسي تونج** (1949 – 1978) كان الرجال والنساء يرتدون نفس البدل الماوية الزرقاء العملية وعديمة الشكل.

ابتكر الناس الملابس في تنويعة لا تنضب من الأشكال والألوان، وكثيرا ما يعود المصممون إلى إبداعات من عصور أسبق. لقد ألهمت موضات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مصممي الأزياء: وتم تقديم مشدات الخصر، والتنورات الشبكية، ومشدات الصدر كبدع جديدة في عروض الأزياء المعاصرة. بفضل الثورة الصناعية أصبحت الأقمشة المنسوجة وتقنيات التلوين أكثر وأكثر ديناميكية وتنوعا، ومعها عاداتنا في الملبس. اليوم تنتقل الموديلات من نيويورك إلى بوينس آيرس، ومن باريس إلى سان باولو، ومن جوهانسبرج إلى مومباي وبكين، وبالعكس. ويستلهم المصممون في القارات السبع طرز وتقاليد الأزياء من كل أنحاء العالم. وتُزهر خلطات جديدة من التقاليد في كل مكان. يتعلق هذا بالتأثير الصيني على وجه الخصوص:

"أظهرت المجموعات الجديدة لبيوت الأزياء الرئيسية في أوروبا والولايات المتحدة أن المصممين يوجهون أنظارهم إلى الصين بحثا عن

33- Cf. Robert Ross's interesting book, Clothing. A History, 2008.

الإلهام. مع تحرك تغير القوة العالمية إلى الشرق، فإن المصممين الغربيين مثل دريس فان نوتن، كارل لاجرفيلد، مارك جاكوبس، جيورجيو أرماني، رالف لورن، أوسكار دي لا رينتا يبتكرون مجموعات للمستهلك الصيني بالاستيلاء على رموز وطرز صينية في مقابل تصميماتهم المميزة.»[34]

منذ أن بدأت العولمة، تفقد باريس وميلانو ولندن مواقعها الرائدة كعواصم للموضة. هناك الآن (أسابيع للموضة) من ريو إلى طوكيو، ومن أمستردام إلى كوالالامبور؛ لكي يتمكن المزيد من المصممين المحليين ومحدودي النطاق من عرض إبداعاتهم للعالم. ويتمتع هؤلاء القادمون الجدد بالاهتمام الدولي بفضل الإنترنت، لذلك يمكن للمحلي أن يصبح فجأة عالميا. بكلمات أخرى، تُلهم العولمة مصممي الأزياء المعاصرين بنفس القدر الذي يفعله تاريخ الأزياء. وتزدهر الموضة بفضل التبادل بين الثقافات والتقاليد من مختلف القارات.

في الوقت نفسه هناك شيء آخر واضح في عالم اليوم. بسبب الخوف الأعمى من التحديث والعولمة، تقاوم جماعات محافظة وتحتج على ابتلاع أفرادها داخل العالم الخارجي، باسم التراث والعِرق والدين. يؤدي الخوف من فقدان الهوية إلى العِرقية والاتجاه إلى الاصطفاف وعزل «نا» عن «الآخرين». وقد أصبح الزي طريقة هامة للتعبير عن انتماء المرء.

لقد سارت البشرية في طريق طويل منذ أن كانت لا ترتدي شيئا. وعبر الأزمان والثقافات والأديان، جاءت القواعد المكتوبة وغير المكتوبة لتغطي العري البشري بأكثر الأشكال تشعبا – قواعد للكبار وللصغار، للرجال وللنساء، قواعد قصدت أن تحدد أين تنتهي العفة ويبدأ الفسق.

34- Linda T. Lee. 'Han-Centric Dress: Fashion Subculture or a National Identity for China?' In Fashion. Exploring Critical Issues, 2012: 170.

2

من خيط بسيط إلى استعراض مفرط

"يخفي الحياء نفسه خلف نشاطنا الجنسي"

- فرانسيس بيكابيا Francis Picabia

ينطلق الأنثروبولوجيون من فكرة أن ميل الناس لتزيين أجسادهم أو تغطيتها لم يكن الخجل من العري هو دافعها الأكبر بقدر ما كان الحاجة لجذب الانتباه. يميل الناس بشكل طبيعي لإظهار أنفسهم للآخرين، لكنهم يخافون كذلك من ردود الفعل السلبية المحتملة. يضع الخوف كابحا أمام «تفخيم الذات» المنفلت، وهو خوف مفهوم يغذيه الوعي بأن رفض أو إدانة الجماعة قد ينتج عنهما عزلة كاملة. إن التطاول ورفع الرأس والأكتاف أعلى من الآخرين ليست بالأشياء محل التقدير دائما، والبشر كائنات اجتماعية لا تستطيع العيش دون شبكة من العلاقات.

بالتوازي مع المزيد من التغطية، أصبح الجسد يتميز بالاحتشام أو عدم الاحتشام طبقا لوجهة نظر المجتمع حول غطاء الجسد الكافي أو غير الكافي أو المنحرف. ويؤمن العديد من الأطباء النفسيين أن الحياء والإحساس بالخجل نشأا أساسا من الخوف.[35]

35- E.g. Wolfgang Lederer, The Fear of Women. Harvest/HBJ Book 1968, Bergler 1953: 24; Westermarck, History of Human Marriage 1891: 555ev. James Laver, Modesty in Dress 1969. 7ev; Flügel 1930; see also Stratz 44ev; Havelock Ellis, Psychology of Sex 1948; Shafa 2014.

في المجتمعات التي كان الناس يمشون فيها عراة في الحياة اليومية، كانوا أحيانا ما يلونون أو يزينون أجسادهم من أجل مناسبات خاصة؛ مثل طقس القبول، وحفلات الزفاف أو الحداد. في أجزاء كبيرة من أفريقيا وأمريكا الجنوبية وجنوب شرقي آسيا وأستراليا، كانت العادات توجب القيام بتشريطات زخرفية للجسد. مثل هذه العلامات القبلية أو الجنسية كانت تُظهر صلابة المرء أثناء العملية المؤلمة لخدش أو وسم أو حرق تصميم لا يُمحى ممتلئ بالرسائل الرمزية على الجلد البشري.

حتى وقت متأخر من القرن الماضي ظلت التشريطات الزخرفية موجودة في ثقافات كثيرة، غالبا كجزء من الانتقال الطقسي إلى مرحلة جديدة من الحياة للرجال والنساء على السواء. وكانت أسباب هذه العادة سياسية أو اجتماعية أو جمالية أو دينية. وقد أصبح هؤلاء الذين حاربوا للقضاء على هذه العادة دخلاء ولم يعد الناس يعتبرونهم أفرادا كاملي العضوية في المجتمع.

كان المقصود كذلك من الندبات الزخرفية للنساء أن تكون دليلا على قدرتهن على تحمل آلام الولادة. في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، قابلتُ نساء كونغوليات ينتمين لثقافة كويا Kuba (مقاطعة كاساي) كن يحملن بفخر تلك الزخارف على نهودهن وبطونهن. وعرضت عليّ إحداهن الرسومات المتنوعة التي يمكن للفتيات الراشدات اختيار ما يفضلنه من بينها. هذه الرسومات كانت مستخدمة كذلك في الأبسطة المنسوجة والعاج المنحوت وتماثيل الأسلاف الخشبية الصغيرة والأطباق والسلطانيات والعلب. واكتشفت موتيفات شبيهة في الرداء الرسمي للزعيم الجديد الذي جاء إلى بيتنا ليقدم نفسه. هذه الزخارف الهندسية تحتوي على رسائل – يمكن مقارنتها بتلك المطبوعة على التيشرتات حاليا. مثلا دائرة حول السُرة تمثل مقولات مثل «تبدأ البشرية من السُرة» أو – كتحذير من الزنا – «السُرة هي الباب والمفتاح موجود في الزواج.» (الصورة رقم 6).

بعض الشعوب – مثل (البوتوكودو Botocudo) في البرازيل، أو (المورسي Mursi) في إثيوبيا، أو (الماكوندي Makonde) في تنزانيا – كانوا معتادين على وضع سدادة أو قرص خشبي مزخرف في الشفة السفلى، لتكبيرها إلى أقصى ما يمكن.

وآخرون كانوا يزينوا أنفسهم بإعادة تشكيل الجمجمة، أو ثقب شحمة الأذن، أو إطالة العنق، كما تفعل نساء الكارين Karen في التبت البورمية: إذ يرتدين كيلوجرامات من الحلقات النحاسية الثقيلة حول أعناقهن لكي يجعلوها أطول. (الصورة رقم 7).

ربما كانت الكثير من هذه التقاليد موجودة كذلك قبل وقت طويل من عادة تغطية الجسد، لكن هناك اختلاف واحد جوهري: فالملابس يمكن ارتداؤها وخلعها، لكن في كل الأمثلة المذكورة أعلاه لا يمكن إزالة أثرها. وكانت أول الحليات القابلة للإزالة تتكون من خيط يحيط بالوركين وقد تعلقت به شراشيب مزينة بالخرز أو الأصداف أو الريش، أشكال أولية من زي يتم ارتداؤه من أجل رقصة ويُخلع من جديد بعد الاحتفالات الطقسية. وقد وجد علماء الآثار أثناء أعمال حفرهم في أماكن عديدة آثار حلي، أحد الاكتشافات الحديثة لحلي مصنوعة من الأصداف البحرية والتي قُدِّر عمرها بنحو 75.000 سنة، وتعود أصولها إلى كهف بلومبوس Blombos الجنوب أفريقي بالقرب من المحيط الهندي.[36]

لقد زيَّن الناس أنفسهم دائما بإبداع هائل: بالألوان أو الوشم على الجلد، بالريش في الشعر أو شحمات الأذن، بسدادات الأنف، بخيوط ملونة حول الأطراف، بأساور مصنوعة من ألياف نباتات مضفَّرة، بحلقات حول الذراع والساق والرقبة مصنوعة من الخشب أو العظم أو المعدن، بحلي حول الأوراك أو بعقود منمقة بالأصداف أو البذور أو النوى أو أسنان الحيوانات أو قطع من لحاء الشجر أو قشر البيض، وبتصفيفات شعر من جميع الأنواع.

قبل نهاية القرن التاسع عشر قابل الأنثروبولوجي **أبراهام هيل** Abraham Hale بين الساكاي Sakai– السكان الأصليين لشبه الجزيرة الماليزية – امرأة عجوزا ذات مجموعة رائعة من الحلي تتكون من خيوط من بذور سوداء وبيضاء، وعُقد من العملات النحاسية، وعدة خرزات من الزجاج، وقطعة من ذيل سنجاب، وخصلتين من شعر قرد، وسوار ذراع

36- Cf. http://en.wikipedia.org/wiki/Blombos_Cave; Flügel 26 and 72.

معدني لولبي، وخمس قواقع، وبضعة أسلاك من مظلة. كان الناس يصنعون حليهم من كل شيء تقع أياديهم عليه، ومازال الأمر هكذا.

في صورة فوتوغرافية قديمة لرجلين من جزر أندمان Andaman مزينين بعقود من مواد مختلفة، يضع الرجل الواقف على اليسار طوقا مزينا بالأصداف، بينما يرتدي الرجل الواقف على اليمين مئزرا مستوردا مع الشراشيب التقليدية المعتادة، لكن هناك تعليق يشير إلى أنه قبل التقاط الصورة أصر المصور البريطاني المجهول أن يرتدي الرجل الواقف على اليمين هذه الكسوة المستوردة لأسباب تتعلق بالاحتشام.[37] (الصورة رقم 8).

إن المقصود من تغطية الجسد والتجميل هو التأثير على الآخرين. يمنح عُقد من أسنان فهد الهيبة والاحترام، وكأن مرتديه نفسه هو الذي اصطاد وقتل ذلك الحيوان الخطير. باتباع نفس المنطق حاول الديكتاتور الكونغولي **موبوتو** أن يؤثر على أبناء بلده بارتداء طاقية مميزة من جلد الفهد. غطاء رأس أو كساء للجسد مزين بالأصداف، تاج ملكي مليء بالماسات أو عمامة، فقط الحاكم الشرعي هو المسموح له بارتداء هذا الزيّ الخاص: زعيم أو ملك أو بابا.

تعكس الثياب والحلي الاختلافات في المكانة والطبقة، وفيما بين الأفراد. تتلألأ الملابس المميزة والموحدة بالسلطة أو الهيبة: البالطو الأبيض لطبيب متخصص، والرداء الأسود لقاض، بالإضافة كذلك للنياشين المهيبة على زيّ جنرال أو المجوهرات الثمينة لسيدة ثرية.

هؤلاء الذين يفوقون الناس العاديين بريقا يخرقون قاعدة «العمومية» وبهذا يواجهون خطر ردود الفعل السلبية. وقد توصل الناس إلى استراتيجيات عديدة لحماية أنفسهم من العداوات. فلم يكن المقصود من الحلي الزينة فقط، بل الحماية كذلك. بارتدائهم التمائم كان أصحابها يأملون في الحظ الطيب أو الحماية أو الشفاء، وليس من المدهش أن الكثيرين مازالوا يفعلون هذا.

37- Https://en.wikipedia.org/wiki/Andamanese_people.

بدأ الناس في ارتداء المزيد من الملابس الأساسية عندما غادروا مناخ أفريقيا الدافئ، كما اكتشف الباحثون بتحليلهم لـ دنا DNA قمل الجسد، الذي يختلف عن دنا DNA قمل الرأس. كان قمل الرأس يعيش على جماجم البشر العراة وفي شعر رؤوسهم، بينما جاء قمل الجسد إلى الوجود بعد ذلك بكثير. من المثير للاهتمام أن تطور هذا النوع المختلف والأحدث سنا يتصادف تقريبا مع هجرة الإنسان العاقل Homo sapiens من أفريقيا إلى المناخات الأكثر برودة. خلص باحثو الدنا DNA إلى أنه لا يبدو أن ارتداء الملابس المغطية للجسد كان بدافع الخجل، بل بالأحرى كحماية من البرد.[38] بمجرد أن بدأ الناس في تغطية أجسادهم على نطاق أكبر، استقر النوع الجديد من قمل العانة في شعر الجزء الأسفل الدافئ من الجسد البشري. وفقا لبعض الباحثين فقد حدث هذا منذ 72.000 إلى 42.000 سنة. عبر وادي النيل والشرق الأوسط وصل المهاجرون إلى جنوب آسيا منذ حوالي 50.000 سنة، وإلى أوروبا منذ حوالي 43.000 سنة، وإلى أستراليا منذ حوالي 40.000 سنة.

في المناطق الدافئة التي نبت منها أسلافنا، قد يظن المرء أن أقدامهم كانت هي ما يحتاج الحماية من الرمال المتقدة الحرارة أو الغابات المليئة بالهوام الزاحفة، لكن لم يتم العثور على أي آثار لنعال قديمة. وقد وُجد أقدم حذاء حقيقي في آرمينيا ويعود تاريخ صنعه إلى حوالي 5.500 سنة مضت. لا شك أن الناس كانوا قد بدأوا في لف مواد نباتية أو قطع من جلد الحيوان حول أقدامهم قبل ذلك بكثير، لكن لم يتم العثور أبدا على مثل هذه الأشياء القابلة للتلف.

كان من الصعب على علماء الآثار أن يكتشفوا متى بدأ الناس يغطون أقدامهم، حتى خطرت لأحد الباحثين فكرة فحص أعداد كبيرة من عظام أقدام مستخرجة كانت تخص أسلافنا الأوائل. واكتشف أنه منذ حوالي 35.000 سنة أصبحت الأصابع الصغيرة في أقدام

38- Kittler, Kayser and Stoneking 2003: 1,414-1,417; or even older: cf. Melissa A. Toups, Andrew Kitchen, Jessica E. Light, and David L. Reed. 'Origin of Clothing Lice Indicates Early Clothing Use by Anatomically Modern Humans in Africa'. Molecular Biology and Evolution Published online, Sep 7, 2010:
http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3002236/.

البشر أضعف. هؤلاء الذين يمشون حفاة يتشبثون بالأرض – وهو رد فعل طبيعي – وهكذا تقوى أصابع أقدامهم الصغيرة.

أدى ابتكار الأحذية الغليظة إلى تقليل حاجة المرء إلى التوازن بأصابع أقدام قوية ومرنة. أدى ارتداء الأحذية إلى أصابع أقدام أضعف، وهو تطور نتج عنه تغيير ثوري.

بالإضافة للبرد، كانت هناك أسباب أخرى لارتداء كسوة حامية؛ وهي الشجيرات الشائكة، والهوام المشاكسة، وبالطبع الأعداء من بني البشر. كان شعب البابوان Papuans في غينيا الجديدة يحيطون أجسادهم بحلقات بامبو متعددة ليحموا أنفسهم من سهام الأعداء. وفي أماكن أخرى كان الرجال يرتدون دروعا حديدية في المعارك.

الحساسية الذكورية

تُظهر العديد من الدراسات أنه حتى القرن الماضي وفي ثقافات كثيرة كانت كسوة الرجال محدودة بعض الشيء: إذ كانوا يدارون فقط ذكورهم أو حشفاتهم بغمد أو غلاف، كان غالبا لا يشمل كيس الخصيتين.[39] فيما مضى كانت الثقافات التي تنتشر بها عادة الختان أو لا تنتشر بها تلك العادة تمارس هذا التقليد، ومازالت بعضها تفعل ذلك. وتؤكد حقيقة أن أقدم تغطية وحُلي للجسد تركزت حول الأعضاء التناسلية على الأهمية الكبيرة المولاة لأعضاء التكاثر.

كان الأنثروبولوجيون غالبا ما يولون اهتماما قليلا لهذه الأجزاء من الجسد. لكن هناك استثناءا من القرن التاسع عشر هو **لويس جاكوليو** Louis Jacolliot؛ طبيب في الجيش الاستعماري الفرنسي، سافر حول العالم لعقود، من آسيا إلى أوقيانوسيا، ومن أفريقيا إلى الأمريكتين. ونمَّى اهتماما شغوفا بمقارنة أعضاء الناس التناسلية في كل القارات ونشر كتابا ضخما عن هذا الموضوع في مجلدين – تحت اسم مستعار مجبرا؛ لأن العصر الفيكتوري كان يعاني من سلطة حياء ديكتاتورية. وصف زيّ ذكور الكاناكا Kanakas

---

39- لم يوضع رسم الجسد والوشم والماكياج في حسبان هذا الكتاب. أما عن المعلومات الواردة أدناه فقد استخدمت ممتنة مقالة بيتر أوكر الأسطورية «أغلفة القضيب. دراسة مقارنة».

http://www.scribd.com/doc/27641647/Penis-Sheaths-A-Comparative-Study.

في جزيرة بولينيزيا:

"يرتدي الرجل على رأسه منديلا مربوطا بواسطة حمالته إلى عمامة، وغالبا ما يكون مزينا بالريش أو النباتات. ويزين جسده بعقود من جلد سمك القرش، وأساور من الأصداف على ذراعيه وساقيه. شحمة أذنه غالبا ما تكون مثقوبة، ويدخل في ثقبها قطعة خشب مستديرة، في حجم سدادة الفلين العادية. يحيط بالبطن نطاق من الجلد والحبال، لكن الزيّ الحقيقي للكاناكا هو المانو manou؛ وهو قطعة ثياب بلون زاه، غالبا ما يكون الأحمر. لكي يصنع ثوبه المانو يأخذ ذكر الكاناكا منديلا قطنيا ذا لون زاه، ويطويه، ويثنيه حول عصاه، بحيث يصنع طرطورا مضحك الشكل يتدلى طرفه إلى الركبة، وبعد ذلك يمرر الطرفين تحت خصيتيه ويثبتها على العانة، عند منبت قضيبه. يمكن بسهولة تخيل التأثير الفريد الذي يمنحه هذا الزيّ الغريب عند رؤيته للمرة الأولى. ومع ذلك يعتاد المرء عليه بعد قليل، حتى السيدات الأوروبيات. أثناء القفزات والوثبات التي يقوم بها الكاناكا وهو يرقص البيلو بيلو pilou-pilou– رقصته الوطنية – يهتز المانو مثل لسان الجرس، ولهذا تأثير مضحك لا يمكن مقاومته. عندما يتقابل زعيمان، يُعتبر من علامات المجاملة وحسن الذوق أن يتبادلا المانو مع بعضهما البعض. وستكون إهانة فادحة للكاناكا لو أمسكت بطرف المانو الخاص به وحللته؛ فأمامك فرصة طيبة لأن تنال لطمة على رأسك من عصاه. وقد وجدت صعوبة كبيرة في إقناع أحد أفراد الكاناكا بخلع المانو الخاص به، وأن يريني أعضاءه التناسلية. لم يكن ليفعل ذلك أبدا أمام الناس، ولم يفعل ذلك إلا داخل كوخ، عندما أصبح حرا من ملاحظة الآخرين."[40] (الصورة رقم 9).

بلغ احتشام الكاناكا حد أن احتج السكان الذكور بقوة عندما رأوا أوروبيا يسبح عاريا، كما حدث لمؤلف الكتاب نفسه. ذات صباح جميل أراد أن يأخذ حمّاما في النهر المحلي، لكنه عندما خرج من النهر، أخذ الكاناكا – الذين كانوا مصدومين بعمق على ما

40- Jacolliot 179ff تعني كلمة (كاناكا) الكائن البشري، ويستعملها مختلف الشعوب البولينيزية للإشارة إلى أنفسهم

يبدو – يشيرون إلى أعضائه التناسلية العارية ويسخرون منه.

حُكي لجاكوليو أن بعض البحارة مروا بخبرة مشابهة عندما استحموا عراة قرب إحدى قرى الكاناكا. شعر أهل القرية بالإهانة إلى درجة أنهم اتخذوا إجراءات راديكالية على الفور. فجأة أخذ البحارة يصرخون بعد أن شعروا جميعا بأعضائهم التناسلية وقد قبض عليها الغواصون الكاناكا واضعين أغطية من أوراق الشجر على عري البحارة غير المحتشم. من أين جاءت ردود الأفعال القوية تلك؟ هل كان الأمر يتعلق بخرق العادات المحلية أم أنهم لم يرغبوا في أن يواجهوا أحجاما غريبة؟ لا يتعمق الكتاب في الموضوع أكثر من هذا.[41]

أغلفة القضيب عبر العالم

نشأت عادة حبس القضيب في أفريقيا وانتقلت بتنويعات محلية إلى أجزاء أخرى من العالم مع الهجرة. وُجدت أغطية القضيب في مصر القديمة، وبين الإغريق والإتروسكانيين والرومان. ومازالت توجد في أماكن عديدة بالمحيط الهادي، وأفريقيا، والأمريكتين، وبين الماوري Maori؛ السكان الأصليين في نيوزلندا. ووفقا لشهادات الرحالة الغربيين في القرن الخامس عشر، كان الرجال في فنزويلا يرتدون بالفعل هذا الملبس المميز عندما انتشرت في أوروبا – سواء من قبيل الصدفة أم لا – موضة جراب الخصيتين codpiece، وهي طريقة متأنقة للغاية لجذب الانتباه إلى القضيب المغطى، وهي موضة تسببت في إثارة كبيرة لدرجة أننا سنحتاج إلى العودة إليها لاحقا في هذا الفصل بشكل أكثر تفصيلا.

تتكون أبسط أغلفة القضيب من ألياف نباتية مضفورة أو منسوجة في شكل أقماع أو سلال. وتفضل بعض التقاليد موادا أخرى مثل البامبو أو جوز الهند أو الحلزون أو الأصداف.[42] أحد الأشكال الشهيرة بأبعاده اللافتة للنظر هو الكوتيكا koteka البابواني. عادة كان الذكور البابوانيون لديهم مجموعة كاملة من أغلفة الكوتيكا الطويلة

41- Ibid. 181f.

42- Ucko 36-37.

مصنوعة من نبات قرع الكالاباش المزروع بالشكل المرغوب عن طريق تعليق الحجارة عليه. وبشكل خاص تكون أغلفة الكوتيكا التي يرتديها الأكبر سنا في المناسبات الاحتفالية ذات أطوال لافتة للنظر وتُزيَّن بوضع ريش طائر عصفور الجنة على رؤوسها. أما الأصغر سنا فقد اعتادوا على ارتداء أغلفة أقصر، لأن الأغلفة الطويلة تعيقهم أثناء ساعات العمل.

في (وادي باليم) -- وهو جزء من الجبال الداخلية لبابوا الإندونيسية – كان أبناء شعب داني Dani يستخدمون خيطا مربوطا إلى حزام صغير حول الوركين لرفع القضيب في غلافه الكوتيكا الضيق المستطيل، ويُربط الخيط من أسفل في كيس الخصيتين. في هذا الشكل الأوّلي من التغطية كان الرجل يُعد ذا لباس مناسب.

لم يكن العري عارا، هكذا يؤكد أحد الباحثين في المنطقة الحدودية مع (بابوا) في غينيا الجديدة. فبالنسبة للعُزَّاب، كان ارتداء قرعة القضيب رمزا واضحا للتحفظ الجنسي ولا يبدو أنه كان مدفوعا بأي ميل لتغطية العري الذكوري. في تلك المنطقة يملك الرجال المتزوجون الأكبر سنا وضعا أكثر استقلالية ولا يرتدون قرعة القضيب كثيرا. مثلهم مثل شعوب الباكيري والتروماي والشعوب الأمازونية الأخرى، كان الشباب أنفسهم يُعدون مسؤولين عن انضباطهم الذاتي الجنسي.[43]

خلال القرن الماضي، أولا كنتيجة للحكم الاستعماري والمبشرين المسيحيين، ثم بسلطة الحكومة الإندونيسية؛ أجبر البابوانيون في المناطق الداخلية على أن يرتدوا ثيابا «أكثر احتشاما». وفي عام 1971 أطلقت الحكومة الإندونيسية (عملية قرع القضيب Operasi Koteka) : وتدفقت الشورتات والفساتين إلى (وادي باليم) وتم توزيعها على السكان.

يتذكر مبشر أمريكي في المنطقة أنه في اليوم التالي ارتدى الرجال الشورتات على رؤوسهم واستخدمت النساء الفساتين كحقائب كتف. لقد رأى السكان المحليون بوضوح أن هذا الإجراء الحكومي بمثابة اعتداء على الهوية البابوانية. ولفترة لا بأس بها أصبح ارتداء الكوتيكا علامة فخر للذكور البابوانيين لتأكيد هويتهم – وهو فعل لا يختلف عن النساء المسلمات اللاتي يرتدين غطاء رأس كعلامة على الهوية في المجتمع الغربي المعاصر.

43- A.F. Gell, in: Man, vol. 6, 1971:165-181.

إلى حد معين كان المقصود من أغلفة الكوتيكا الطويلة إخفاء القضيب، لكن كانت لها وظيفة أخرى هي جذب الانتباه لهذا الجزء من الجسد. وكانت النماذج الاحتفالية منها والمزينة بالفرو أو الريش أو الشراشيب – والتي كان يتم ارتداؤها في مناسبات معينة – تزيد من هيبة مرتديها. خلال الخمسين سنة الماضية تناقصت شعبية تلك القطعة من اللباس بشكل كبير في مناطق (بابوا) الداخلية. بل إنها حتى لم يعد مسموحا بها في المباني الحكومية والمدارس، لكنها أصبحت مصدرا للدخل في المناطق السياحية: إذ يتم التقاط صور فوتوغرافية للرجال المرتدين هذا اللباس التقليدي من أجل السياح أو معهم.[44]

في مناطق عديدة كانت الأصداف تُستخدم كأغلفة للقضيب، مثلا في جزر أدميرالتي (في ألاسكا) أو بين قبائل (أسمات) في جنوبي غربي (بابوا). ولاستخدامها لهذا الغرض، كان يتم إزالة التلافيف داخل الحلزون وتكبير الفتحة عند الضرورة. وخلال الرقصات الاحتفالية كان لابد من تثبيتها بقوة، لأن القضيب كان يتأرجح دائما في حركات دائرية. كانت الصَدَفة تغطي فقط حشفة النموذج الكبير وتخفي الصغير بالكامل، لكن لم يبدُ أن ظهور كيس الخصيتين مشكلة على الإطلاق.[45]

لم تكن القواقع كغلاف للقضيب غير معروفة في الغرب كما تُظهر لوحة الفنان الهولندي **يان خوسارت**Jan Gossaert : نبتون وأمفيتريت (1516)، وهي لوحة تظهر فيها قوقعة إله البحر الروماني **نبتون** الأنيقة محفوظة في مكانها بواسطة ساق لبلاب. ومع ذلك فإن مثل هذه اللوحات نادرة إلى حد كبير؛ لأن أغلبية الفنانين كانوا يفضلون إما ورقة التين أو قطعة غامضة من القماش.

في مجتمعات عديدة أدى هذا الشكل من الملبس إلى ترتيب مزعج حقيقة: فقد احتفظ الرجال الأقوياء بأكثر النماذج الملفتة – المزينة بالأصداف البحرية أو الذهب أو اللآلئ – لاستخدامهم الشخصي. والتزم البابوانيون بقاعدة أنه كلما كان الطول ملفتا للانتباه بشكل أكبر، كلما زادت قدرته على الجذب. في (نيو كاليدونيا) كان لابد من إبطال أغلفة القضيب في الأيام العادية، ووضعه بطريقة طقسية في أيام الاحتفالات.

44- The Economist 29 July 1995; cf. http://frederikdegraaff.tripod.com/id23.html.

45- Ucko 44.

أما الميل البشري لإخفاء المزيد من أجزاء الجسم فهو نتيجة للتأثير القوي للمسيحيين والمسلمين الذين فرضوا إحساسهم بالحياء وعادات لبسهم على الآخرين.[46] خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين تراجعت ممارسة ارتداء أغلفة القضيب في جميع أنحاء العالم.

قواعد للتغطية الأساسية

كما هو الحال مع كل أشكال الملبس، عمل غلاف القضيب بشكل لا يمكن إنكاره كمزيج لوظيفيتين: الحماية من النظر وجذب الانتباه للجزء المغطى، وهكذا يمضي الإخفاء والإغراء يدا بيد، وقد يكون هناك «توازٍ مقبول بين استخدام الأغلفة في السياق الإثنولوجي وبين استخدام طلاء الشفاه أو حمالة الصدر في العالم الحديث.»[47]

نعرف القليل عن إحساس مرتدي الأغلفة التقليدي بالراحة الشخصية، في بعض الحالات يبدو أنه كان مطلوبا من الأغلفة أن تمنع الانتصابات بجعلها مؤلمة. وبالنسبة للسؤال الخاص بلماذا بدأ الرجال في ارتداء أغلفة أو أغطية للقضيب لا توجد إجابة تامة، لكن بالتأكيد لعب الضغط الاجتماعي دورا. بعض مرتديه من (بابوا) ذكروا العفة أو الاحتشام كأسباب.

بالنسبة لشعب (بافيا) في شرق الكاميرون: «يقال أن الغلاف الصغير الموضوع على طرف القضيب له نفس أهمية طيات البنطلون في أوروبا الحديثة» كما صاغها أحد الباحثين في ثلاثينيات القرن العشرين. وقيل بعبارات واضحة لأنثروبولوجي عاش وسط قبائل (تسونجا) في جنوب أفريقيا أن الغلاف كان وسيلة مساعدة على الزهد وأن هؤلاء الذين لم يكونوا يرتدون واحدا هم زناة سيئو السمعة.

أينما شاع استخدام أغلفة القضيب تلك، وجد مرتدوها حرجا في أن يُرَوا دونها. وسط شعب (جايكا) الجنوب الأفريقي كان الرجل الذي يمشي دون غلاف يخاطر بغرامة

46- Robert Ross 88ff.

47- Tessmann and Junod resp. quoted in Ucko 49, 53f

كبيرة، بالضبط مثلما يتم إلقاء القبض على شخص في الغرب يُنزل بنطلونه متعمدا أمام الناس. كان غياب غلاف القضيب خطيئة مميتة في العديد من الثقافات. كانت قبائل (كاناكا) البولينيزية و(توباري) البرازيلية تظل مرتدية هذه القطعة من الثياب، حتى عندما يذهبون للسباحة. وكانوا يقارنون الشعوب المجاورة والأوروبيين الذين لا يرتدونها بالقردة. وتعود تواريخ معظم الأوصاف الموجودة إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. تختلف في فروق بسيطة. على سبيل المثال بين قبائل (داني) في بابوا، كان قطع رأس غلاف القضيب يعتبر إهانة فظيعة، وهو الأمر المفهوم في ثقافة كان فيها الكوتيكا الممدود رمزًا للرجولة الفائقة.[48]

من خيط بسيط حول القلفة إلى زخارف مدهشة، تحددت ممارسة ارتداء الأغلفة بعد سن البلوغ. وكان الهدف الأساسي هو إخفاء الحشفة. أدت عدم القدرة على التنبؤ بسلوك هذا العضو إلى قواعد من جميع الأنواع، يبدو أنه لم يكن هناك ثمة مجتمع يستطيع أن يعمل دونها.

تنويعة أوروبية بارزة

هل تعني أجزاء الجسد المغطاة أو المزينة أن مرتديها – بوعي أو بلا وعي – يرغب في الحقيقة أن يُظهر هذه الأجزاء نفسها للآخرين، كما يفترض عالم النفس **جون كارل فلوجيل**؟ سواء كان هذا صحيحا أم لا، فإن ردود الفعل على كل من تزيين الجسد وتغطيته يمكن أن تجذب انتباها إضافيا إلى الأجزاء المغطاة، سواء كان نتيجة إعجاب أو استياء. وكان الأخير – أي الاستياء – هو الوضع بالتأكيد مع صعود ظاهرة أوروبية في القرن الخامس عشر يربطها الأنثروبولوجيون مباشرة بأغلفة أو أغطية القضيب.

في العصور الوسطى في أوروبا اعتاد الرجال أن يرتدوا جوارب، مثبتة بأربطة أو حمّالات، وحرملة طويلة، وهي رداء يغطي الجسد. قصّرت الموضة الجديدة هذه العباءة الطويلة إلى سترة: وغدت الأربطة – التي كانت متوارية فيما سبق تحت ذلك الثوب الطويل – معرضة

48- Ucko 52f and 57-59.

لخطر الانكشاف للعين الآن. وُجد الحل في جوارب طويلة أنيقة ملتصقة بالجلد أظهرت السيقان الذكورية الجذَّابة. وتعلقت الجوارب بقطعة صغيرة من القماش بنفس اللون بحيث بدت النتيجة أقرب لزي راقصي الباليه. كان اسم الموضة الجديدة هو **braguette** بالفرنسية، و **codpiece** بالإنجليزية؛ وهي كلمة قديمة كانت تعني «كيس الخصية» وأصبحت تعني شيئا مثل **fake** بمعنى وهمي أو زائف.

هذا الإكسسوار الرجالي ذو العلامة التجارية الجديدة تم تصميم وتشكيل مقدمته بأبعاد لافتة للنظر. وقد استُلهمت الموضة الجديدة من النتوء المنتفخ في دروع الجنود، ذلك الواقي الإضافي الذي يوحي بالفحولة.[49] أثار الشكل الجديد قدرا كبيرا من الغبار العاطفي. في ألمانيا كانت الاحتجاجات ضد الموضة الجديدة باسم **Teufelshosen**؛ أي سروال الشيطان.

أعلن بعض رجال الدين أن الشيطان نفسه هو الذي قد أدخل تلك القطعة من الملابس وأن الشبان الألمان الذين سيرتدونها ستكون نهايتهم في نيران الجحيم. لم يكن رجال الدين المسيحيون فقط هم من يستخدمون التهديد بالاحتراق في الجحيم، بل استخدمه كذلك الكثير من القادة الروحيين الآخرين، خاصة في الأمور المتعلقة بالملابس التي يتم اعتبارها مثيرة أو غير محتشمة. وفقا للبعض، فإن نيران الجحيم ذاتها التي واجهها الشباب الأوروبي عند نهاية القرن الخامس عشر ستنصب على نساء القرن الحادي والعشرين اللاتي لا يرتدين العباءات أو فقط يُظهرن شعرهن أمام الناس.

كان الرجال الأوروبيون من الطبقة العليا يجذبون المزيد من الانتباه إلى فحولتهم المفترضة بفضل بعض الحليات الماكرة. مثلا كان يمكن للمرء أن يزيد من حجم (جراب الخصيتين) عن طريق منديل، وبعض الرجال كانوا يخبئون ملعقة أو برتقالة صغيرة بالداخل. (الصورتان رقم 10). في هذه الناحية كان رمز الزي الغربي الجديد يتبع تقاليد أغلفة القضيب: ففي بعض مناطق (غينيا الجديدة) مثلا، كان البابوانيون يستخدمونها لإبقاء أشياء مثل مواد الإشعال أو التبغ «متاحة وجافة» داخلها، وأحيانا كانت القواقع

49- Http://fr.wikipedia.org/wiki/Braguette

على العانة تحتوي مخزونا من الجمبري الذي كانوا يمضغونه طوال طريقهم.[50]

في خماسيته الروائية الشهيرة (جارجانتوا وبانتاجرويل) سخر **رابليه** من هذا الزي الحديث وقتها بالمبالغة في الأبعاد والطرائف:

> "أخذ جراب خصيتيه 24 ¼ ياردة من نفس القماش، واتخذ شكل قوس منحن، مثبت جيدا وبأناقة عن طريق إبزيمين قديمين جميلين لهما مشبكان مطليّان، وُضعت في كل منهما زمردة ضخمة، في حجم برتقالة. لأن تلك الفاكهة لها تأثير على الانتصاب، ومشجعة للعضو الطبيعي... لم يكن فقط طويلا ورحبا، لكنه كان جيد التجهيز في الداخل وحسن التغذية، لديه تشابه مع جرابات الخصية المخادعة لدى الكثير من السادة الشباب، تلك الجرابات التي لا تحوي شيئا غير الريح، الأمر الذي يحمل خيبة أمل كبيرة لجنس الإناث.»[51]

كان هذا التصميم أقل ظهورا بين الناس العاديين، لكن الموضة الجديدة كانت رائجة بين جميع الطبقات الاجتماعية، كما تبين بورتريهات الطبقة العليا الشهيرة؛ مثل بورتريه **هنري الثامن**، ولوحات شائعة مثل لوحة (رقصة حفل الزفاف) للفنان **بيتر بروجل الأكبر** (1566) Pieter Bruegel the Elder.

قبل نهاية القرن السادس عشر أفسحت موضة جراب الخصيتين الطريق للسراويل الأرستقراطية culottes، وهي سراويل قصيرة حتى الركبتين، تُغلَق بأزرار من الناحيتين (وهو زيّ كابد موتا شائنا في الثورة الفرنسية مثله مثل النظام القديم على أيدي المناضلين بلا سراويل sans-culottes). بالنسبة للطبقات الاجتماعية الأدنى استُخدمت فتحة مستترة مغلقة بالأزرار في مقدمة البنطلون طوال قرون. وجعل تنامي الاحتشام بين الطبقات الوسطى مسألة إغلاق البنطلونات بالإبزيمات أمرا أكثر ظهورا، جاذبا انتباها أقل فأقل لعضو الجسد الذي يغطيه. وقبل نهاية القرن التاسع عشر اختُرعت السوستة، لكن وفقا للخبراء فإنها لم تحل محل أزرار الغلق في البنطلونات بشكل كامل إلا بحلول

50- Ucko 32.

51- Ibid. 50.

ستينيات القرن العشرين (وهكذا منذ ذاك الوقت وإلى الآن أمكن لأزرار الغلق أن تصبح موضة من جديد). مازالت كلمة braguette مستخدمة اليوم لتشير إلى السوستة المحتشمة في البنطلونات المعاصرة.

'التنازل الذكوري العظيم'

حاول البعض في القرن العشرين أن يعيدوا تقديم الـ braguette الأصلية. كان الكاتب والناشط الأمريكي **ألدريدج كليفر** Eldridge Cleaver واحدا منهم. أثناء عيشه في فرنسا لفترة، صمم بنطلونا بجراب خصيتين على شكل جورب، بقصد تأطير الأعضاء التناسلية لمرتديه مرَّة أخرى. وقال **كليفر** أن تصميمه سيحل مشكلة ذهنية الاحتشام الغربية: «الملابس هي امتداد لورقة التين – فهي تضع جنسنا داخل أجسادنا. أما بنطلوناتي فتعيد الجنس إلى حيث ينبغي أن يكون.» كان مقتنعا أن بنطلونه الذي نال براءة اختراعه سيكون له «مستقبل هائل، سواء فنيا أو تجاريا»، لكن جهوده فشلت، ورفضت جرائد كثيرة أن تعرض صور جراب الخصيتين الجديد، الذي كان بوضوح مازال يُعتبر مثيرا للجدل في سبعينيات القرن العشرين.[52]

وقد انطلقت محاولات أخرى لرد الاعتبار: مثلا كان هناك جراب القضيب الياباني، الذي تم تسويقه على أنه (الياباني سهل اللبس). هناك أمثلة أخرى قادمة من عالم ثقافة الجلد الفرعية (التي تشير للممارسات وطرز الثياب المتمركزة حول الأنشطة الجنسية التي تشمل ملابس جلدية) وموضة الهيفي الميتال، حيث المغنون يرتدون جرابات الخصية. وقد بذلت المصممة الطليعية **إيزابيل موستاش** Isabel Mustache أقصى جهدها لإعادة إحياء هذا المفهوم في مجموعتها لخريف وشتاء 2010، حيث عرضت بنطلونات لها قضيب وكيس خصيتين من القماش المخيط في الحِجر، لكن الفشل الإعلامي الذي أعقب ذلك أكد مرَّة أخرى أنه بعد الرواج لفترة قصيرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، لم يشعر معظم الرجال في الغرب مرة أخرى أبدا بالرغبة الحثيثة في تقديم لمحة عن

52- http://www.nytimes.com/2001/09/23/magazine/radical-chic.html.

أعضائهم التناسلية أمام الناس.[53]

في القرون الماضية أرادت الأرستقراطية أن تضع فروقا واضحة في المكانة والثروة في مواجهة الطبقات الأدنى، كما يتأكد في فخامة أزياء كل من الرجال والنساء في بلاط **لويس الرابع عشر**. غيرت الثورة الفرنسية كل هذا بشعارها "الحرية، المساواة، الإخاء".

> "في ذلك الوقت تقريبا حدثت واحدة من أبرز الأحداث في تاريخ الأزياء بأكمله، حدثٌ مازلنا نعيش تحت تأثيره، حدثٌ – من ناحية أخرى – جذب انتباها أقل بكثير مما يستحق: فقد تنازل الرجال عن حقهم في كل أشكال الزينة الأزهى والأكثر بهجة وتفصيلا وتنوعا، تاركين ذلك كله لاستخدام النساء، وبذلك جعلوا من تفصيل أزيائهم أكثر الفنون صرامة وتقشفا.»[54]

في كتابه عن سيكولوجية الملابس يأسف **فلوجيل** على ذلك «الاختزال المفاجئ للزخرف الأزيائي الرجالي» والذي وصفه بـ «التنازل الذكوري العظيم». لم يعد الرجال الأرستقراطيون – الذين كانوا فيما سبق يتنافسون مع النساء في أناقة وفخامة الزي – يجدون متعة في ذلك التنافس. بعد أن تخلوا عن «أن يكونوا في لباس أنيق ومتقن التفصيل»، لم يعد الرجال يريدون الآن إلا أن يكونوا مرتدين لثياب «مناسبة»، بينما يسعون جاهدين أمام الجميع من أجل تحقيق صورة الملاءمة والمنفعة الاجتماعيتين.

لم تعد هناك شراشيب، ولا إضافات فارغة وشعر مستعار، ليس إلا التماثل والبساطة في أزياء رصينة تُظهر القليل للغاية من الجلد البشري. بالرغم من ذلك – ومع مرور الوقت – تطورت تنويعة كبيرة من الملابس الرياضية الخفيفة التي يُظهر فيها الرجال أجزاء من أجسادهم، بينما يميل التيار الرئيسي إلى التماثل المغطى.

هذه التطورات المدهشة «ترمز لإخلاص الرجل لمبادئ الواجب والزهد والتحكم في النفس». لقد قلل الالتزام بذلك القانون الاجتماعي كثيرا من اهتمام الرجال بالأزياء

53- http://fr.wikipedia.org/wiki/Pantalon_%C3%A0_pont

54- Flügel 111.

المبهرجة. لدى البدلة ذات القطعتين أو الثلاث قطع بعض التنويعات الطفيفة في شكل بدلة التوكسيدو ومعطف الفراك ذي الذيل الطويل، لكن من الصعب وجود غنى ألوان في ملابس الرجال الرسمية.

لكن معظم النساء ملتزمات بتفضيلهن الذي يستهلك الوقت للتنوع والأزياء الغنية بالألوان، والماكياج والمجوهرات، مع وجود القليل من الجلد العاري هنا أو هناك. في لعبة الناظر والمنظور إليه يبدو أن نساء كثيرات لديهن ضعف ما تجاه هذا الخيار. لِمَ هذا؟

في عالم الحيوان يكون الذكر غالبا هو الطرف المغناج الذي يسعى لجذب انتباه الأنثى. بين الطيور، تتودد ذكور الطواويس للإناث بريشهم الملون، بنفس الطريقة التي تتبعها بعض ذكور الثدييات: فالأسود تستفيد من لبدتها والغزلان تستفيد من قرونها.[55]

في عالم الإنسان أصبح الجمال مرتبطا بشكل أساسي بجنس الإناث. على أساس تلك الفكرة فرضت الأديان أحيانا أن تكون أجساد وشعر وحتى أيدي ووجوه النساء مخفاة تحت ملابس سابغة وحجابات لكي «تمنع الفوضى». لماذا تكون وجوه وشعر ولحى الرجال – المكشوفة هناك للجميع – أقل إثارة؟

أن ترى وأن تُرى

هذا التطور طويل المدى هو نتيجة لعملية النشوء والارتقاء، وفقا لهؤلاء الذين يحاججون بأن النساء يحاولن أن يبدون مغريات قدر الإمكان لكي يجدن شريك تناسل أفضل من منافساتهن. تستمر المحاججة قائلة أنه في تاريخ الإنسانية، استبطن الرجال بطريقة غريزية صورة نموذجية للجاذبية الجسدية الأنثوية وفي النهاية تم الترويج (أم الاختزال؟) للنساء باعتبارهن «الجنس اللطيف».

في سياق التاريخ قامت النساء بتكييف صورتهن النموذجية للذكر عن طريق تقدير خصال معينة في الرجال مثل الذكاء والإبداع – على الأقل، وفقا لذلك المنطق التطوري.

55- Knussmann 101.

كنتيجة لهذا فقد فقدت القوة البدنية الذكورية والمظهر الخارجي تدريجيا قدرا كبيرا من قيمتهما الانتقائية بالنسبة للنساء، مع وجود تأثير حاسم لسلوك الذكر. وقد شعر الكثير من الرجال بالتشجيع على السعي نحو الخصال الجديدة المطلوبة، بينما ظلوا هم أنفسهم عالقين في اهتمامهم الشغوف بالجمال الأنثوي الجسدي.[56]

قد يتساءل المرء إلى أي حد يتطابق هذا المنطق المنطلق من وجهة نظر ذكورية مع الواقع، لأن النساء بالتأكيد لسن لامباليات بالجمال الذكوري ويجرؤن على إظهار ذلك اليوم أكثر مما كن يفعلن في الماضي. في عالمنا المتغير بسرعة تتحرك المتطلبات المتبادلة الخاصة بالذكاء والإبداع والجمال في اتجاهات جديدة.

56- Ibid. 92-99.

3

الإثارة

"أليست أكثر أجزاء الجسد إغراءً هي حيث تنفرج الثياب؟»

رولان بارت[57]

كيف تتعامل مع المشاعر غير القابلة للتحكم عند رؤية الآخرين؟ اغلق عينيك أو اعبر الشارع إلى الناحية الأخرى، هكذا تنصح المقولات القديمة. يبدو الحل الشائع هو أن تفرض على الآخرين قواعد لإخفاء كل أعضاء الجسد التي قد تسبب إثارة في دماغك. وهكذا، في أزمنة وثقافات مختلفة تم إعلان أجزاء مختلفة من الجسد كمناطق إثارة – وأحيانا كان الجسد بأكمله، على الأقل بالنسبة لجنس الإناث. للأسف – ووفقا لعلماء النفس – فإن منطق أن المزيد من التغطية تتسبب في إثارة أقل؛ لا يطابق الواقع. بل إن العكس يثبت صحته: حيث تزيد الملابس من الفضول تجاه كل ما يقع مخبئا تحتها أكثر من العري الظاهر.[58]

57- Roland Barthes, The Pleasure of the Text, trans. Richard Miller. London: Cape, 1975: 9.

58- كما يحاجج فلوجيل، على سبيل المثال، بطريقة مقنعة.

تحرك النظرة الإنسانية العالم. يصنع النظر كل الفارق. الشخص الذي ينظر هو الفاعل والشخص الذي يُنظر إليه هو المفعول به. في الأساطير وفي الأدب يمكن للنظرة القوية أن تفتن وتسحر أو أن تشل من الخوف.[59] لا يحدث هذا في الحياة الواقعية فقط، بل أيضا على الطريق العام الإليكتروني حيث يمر باستمرار كل أنواع الناس. تتنوع المشاعر التي يستحضرها الآخرون في أذهاننا من اللامبالاة إلى العواطف القوية.

لا يمكن الاستغناء عن التواصل بالعين في تفاعلنا اليومي، لكن تفسير النظرة الإنسانية قد يختلف من ثقافة لأخرى. كان هناك اعتقاد بأن العيون مُحمَّلة بطاقة حيوية وأن العيون الخطرة قادرة على اختراق الشخص المنظور إليه. وينسب الناس قوى خاصة ليس فقط للنظرة المغوية، لكن أيضا للنظرة الحاقدة التي تثيرها الغيرة.

كان الإيمان بالتأثير السحري للنظرة السلبية منتشرا في العصور القديمة. فكان بإمكان المرء في روما أن يستأجر ساحرا موهوبا بالعين الشريرة ليسحر عدوا. طبقا لهذا الإيمان، كان يمكن للنظرة السلبية أن ينتج عنها المرض أو حتى الموت. ومازال ذلك الخوف موجودا في بعض بلاد البحر المتوسط إذا استعرض المرء سريعا كل هذه التعويذات الكثيرة ضد العين الشريرة المعروضة للبيع. يوجد ذلك الخوف القديم من الشر أو النظرة المهلكة كذلك في أجزاء أخرى من العالم، مثلا بين الهندوس والبوذيين.[60]

تقدم القصص والأمثال تحذيرات لا تُعد ولا تُحصى من نظرات الآخرين الخطرة أو المميتة. وتُعتبر عيون النساء مثيرة للفتنة بشكل خاص؛ بل إنها تنجح في زعزعة استقرار الطبيعة: فعينا ساحرة تجعلان العشب يذبل (مثل روسي) والسمك يغرق في البحر والأوز البري يتصادم (مثل صيني). 'يرقد الجحيم بين أهداب عين امرأة جميلة' هكذا يحذر التراث اليهودي، وتنصح ثقافة شعب هيهي Hehe التنزاني بالاحتراس من 'عيون النساء المسحوبة التي تهرب مع الرجال'. وتكرر حكمة يونانية نفس التحذير من عيون النساء؛

59- Milner 251 يشير إلى أمثلة كعيون ميدوسا التي تحول من ينظر إليها إلى حجر، أو عيني أوديب، لكنه يناقش كذلك كُتابا مثل ستندال أو بروست.

60- Mozzani 1995, Le livre des superstitions 1246-49; Garry and El-Shamy 2005: 140ff; Westermarck 1926, volume I., Chapter VIII

تلك 'السهام الخطرة التي تهدد الرجال في مقتبل العمر'.[61] الملفت للانتباه بقوة أنه يتم إيلاء اهتمام أقل لعيون الرجال المغوية – على الأقل في الأمثال.

وفقا لدياناتهم الخاصة، يجب على اليهود والمسلمين – لأسباب تتعلق بالسلامة – أن يغضوا البصر عند مقابلة شخص من الجنس الآخر. في التراث الإسلامي غير مسموح لأحد أن ينظر في عيني شخص ينتمي للجنس الآخر، ماعدا أفراد العائلة المقربين، لأن 'النظرة سهم مسموم من سهام إبليس'. ودخول الجنة مكفول فقط إذا 'غضضتم أبصاركم وكففتم أيديكم عن الأذى وحفظتم فروجكم'. حيث يسود الاعتقاد بأن نظرة واحدة تكفي لزرع الفتنة، تُجبَر النساء أحيانا على غض البصر، لكن كان هناك حل أكثر جذرية هو أن يلزمن بيوتهن. ومتى تعذَّر هذا، كان يجب على قواعد التغطية الخاصة بالثياب أن تحل المشكلة.[62]

خطر رأس وشعر الأنثى

أصبحت النساء في ثقافات كثيرة مجبرات على إخفاء رؤوسهن تحت قبعة، أو شال، أو طرحة، أو أشكال أخرى من الحجاب بناء على العرف المحلي. 'شعرة واحدة من امرأة جميلة كافية لربط فيل كبير' مقولة يابانية قديمة، ووفقا للتراث التركي يجلب شعر المرأة الخراب على عائلات بأكملها.

في لوحات العصور الوسطى الغربية تبعث السيدات ذوات الرؤوس المغطاة العاملات داخل بيوتهن رسالة للعفة التامة، بينما تكون المرأة ذات الشعر المعقود أو المنساب إما عاهرة أو امرأة يتم التحرش بها. وتُظهر بعض اللوحات أعداء متوحشين يقبضون على نهدي ضحية مغطيين أو يجذبون تنورتها لأعلى بينما شعرها مفكوك بالفعل[63]. (الصورة رقم 11).

61- Cf Never Marry a Woman with Big Feet 2004: 28ff

62- Sayid Saeed Akhtar Rizvi 1992: 12ff who quotes this and other passages from Islamic traditions or ahadith; see also Mufti Zaferruddin Miftahi 1993: 198.

63- L'Engle 94; Wolfthal 43-44.

إن الاختلاف بين شعر الرجل الظاهر علانية وشعر المرأة المغطى حوّل منطقة البحر المتوسط إلى أرض تقسم الرجال والنساء بطريقة هرمية وبصرية.[64] من أين جاءت هذه الوسوسة تجاه شعر المرأة؟

في التراث اليهودي كانت تغطية رأس الأنثى تُبرَّر أحيانا ككفّارة واجبة على كل النساء بسبب الأم الأولى **حواء** التي ارتكبت الخطيئة الأولى بأكلها الفاكهة المحرمة في الجنة، وبهذا جلبت الموت إلى العالم. ومايزال غطاء الرأس الأنثوي – سواء كان في شكل باروكة أو قبعة أو طرحة أو حجاب – موضوعا هاما في الدوائر اليهودية المتشددة مثلما هو الأمر بين مجموعات كبيرة من المسلمين.

الحجاب

في بلاد الرافدين القديمة كانت النساء تاجرات مستقلات، يكتسبن أملاكا خاصة بهن، ولديهن السلطة، كما نعرف الآن بفضل الألواح الطينية التي تبلغ آلاف السنين من العمر، والتي تم العثور عليها في أعمال حفر فيما يُسمَّى الآن بالعراق. وفي النصوص القانونية القديمة يُعامَل الرجال والنساء تقريبا بالتساوي. في أزمنة تالية فقدت النساء في تلك المنطقة الكثير من مكانتهن السابقة. في حفلات زفافهن – عند نهاية الألفية الثالثة وبداية الألفية الثانية قبل الميلاد – كان يجب على النساء أن يرتدين ما يشبه العمامة، ما يمثل التزام الزوج بكسوة زوجته. في الأجزاء الجنوبية من المنطقة منذ حوالي ثلاثة آلاف إلى ألفي عام، يُذكر الحجاب كجزء من طقوس الزواج: 'في حفل الزفاف كان الأب أو الأخ يضع الحجاب على العروس، وكان العريس يخلعه رسميا في قاعة العرس.' وكان رفع حجاب العروس لحظة حاسمة كذلك في طقوس الزفاف في ثقافات أخرى.[65]

في الحياة اليومية كان هناك شكل آخر من التغطية. كان ارتداء الحجاب أمام الجميع

64- Molly Myerowitz Levine, The Gendered Grammar of Ancient Mediterranean Hair, in Eilberg-Schwartz en Wendy Doniger, Off with Her Head. The Denial of Women's Identity in Myth, Religion, and Culture, p.106. Also Miles 48f

65- Stol 21.

– بقدر ما نعرف – امتيازا جماعيا في شمال وشمالي غرب بلاد الرافدين. وكان القانون يحدد من كانت ومن لم تكن لديها هذا الامتياز: وكانت النساء الأحرار بالتحديد لديهن هذا الحق. وكان مسموحا للمحظيات بارتداء الحجاب عندما يكن في صحبة أسيادهن، لكن العاهرات والإماء كان يتوجب عليهن أن يسرن في الشوارع حاسرات الرؤوس. وكان يجب على أي شخص يرى أَمَة أو عاهرة ترتدي حجابا أن يبلغ السلطات دون تأخير وكانت العقوبات قاسية: إذ كان يُحكم على المذنبة بستين جلدة ويُصَب القار على رأسها. ويحصل المُبلِغ على ملابس المذنبة كمكافأة. في تلك الحالة كان الحجاب يشير إلى المكانة.

لا شك أن التغيرات في وضع النساء في بلاد الرافدين وغيرها من البلاد في الشرق الأوسط كانت بسبب سلطة الأسرة الأبوية المتزايدة في العشائر السامية، والتي ميزت بقوة الديانات الإبراهيمية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.[66] في كثير من قصصهم عن الخلق تبرر هذه الأديان الثلاثة خضوع المرأة للرجل بالرجوع إلى إغواء **حواء لآدم** كي يأكلا الفاكهة المحرمة.

جلبت الغزوات الإسلامية من القرن الحادي إلى القرن السادس عشر البُردة والحجاب إلى الهند. البردة.. لم تكن لعادة إغواء النساء خلف الستائر وإخفائهن عن أعين الرجال عن طريق الحجاب أي علاقة بالتقاليد الهندوسية الأصلية. وكما تفسر البروفسيرة **شوشيلا سينج Shushila Singh** :

> "في الماضي الأسطوري للثقافة الهندية كانت كل الصور النسائية كما هي ممثلة في تماثيل الإلهات المختلفة حاسرات الرؤوس ولم تكن وجوههن أبدا مغطاة بحجاب. لكن مع الغزوات الإسلامية جاء نظام البردة لتمارسه النساء الهنديات... وعبر طقس (جونجات **ghoonghat**) تُجبر النساء الهندوسيات والمسلمات على التواصل مع 'الغرباء" من وراء ستار [و] كل

66- Stol 22ev أشكر عالم الأشوريات Theo Krispijn من جامعة لايدن على تعليقه المفصل انظر كذلك Charles Letourneau ch. XV.

ماعدا الزوج والأطفال هم غرباء – بما فيهم أفراد الأسرة الآخرين."[67]

تم تفسير الحجاب على أنه 'كرامة' أنثوية وأصبحت البردة ممارسة ثقافية متواترة تحكم على النساء بالبقاء محبوسات في بيوتهن. بالنسبة للنساء اللاتي كن يتركن بيوتهن كانت البردة مطلوبة في شكل 'برقع'؛ وهو ثوب يغطي النساء المسلمات بشكل كامل من الرأس إلى أصابع القدمين. توابع هذه الممارسة جذرية إلى حد كبير:

> "تخيل أن تكون ممنوعا من السير في ساحة بيتك الخلفية إلا إذا كنت بوجه مغطى ومخفورا بأحد أفراد الأسرة من الذكور. أن يتوجب عليك الاختباء خلف جدران عالية وستائر وحُجُب قائمة داخل بيتك الخاص عندما يصل ضيوف معينون. أن تسربل بأمتار مربعة من القماش الصوفي السميك تغطي جسدك بأكمله في الوقت الذي يتوجب عليك فيه أن تتحمل الحرارة القاسية... أو تخيل أن تكون امرأة هندوسية تلتزم بالبردة في الهند، حيث يعلن الرجال دائما عن وجودهم بسعلة تحذيرية قبل دخول أي حجرة لكي تجثو المرأة على الأرض، وهي تسحب الساري فوق رأسها."

في الثقافات والأقاليم والأديان الهندية، تتنوع المتطلبات والمحظورات. وهي مازالت سارية المفعول في المناطق الريفية في شمالي الهند، وغرب البنغال، و(آسام)؛ رغم أن الالتزام بها صار أقل قسوة منذ ثلاثينيات القرن العشرين.[68]

في الصين أُدخلت الأشكال الأولى من حجاب النساء كوقاية من البرد أثناء عهد أسر **كينج** الحاكمة الجنوبية (من 470 إلى 502) والشمالية (من 550 إلى 577). خلال عهد أسرة **تانج** الحاكمة تطور الحجاب إلى قبعة ذات قطعة قماش منسوجة أشبه بالستار تتدلى من الرأس على الكتفين وكان القصد منها إخفاء الوجه. أثناء عهود حكم الأسر التالية وحتى اليوم بقيت هذه العادة القديمة في شكل نقاب الزفاف. ولأن الناس في الصين

67- The Hindi woord ghoonghat is also spelled as ghunghat. Sushila Singh, Banaras Hindu University, Varanasi, interview 2 Nov. 2001, http://www.haddonfield.k12.nj.us/hmhs/academics/english/Women'sRightsinIndia.htm. With thanks to Leiden University Indologist Dr. Herman Tieken

68- Ibid.

يؤمنون بأن اللون الأحمر يجلب الحظ الطيب، يستمر النقاب الأحمر شائعا بين العرائس، رغم أن الأبيض يكتسب المزيد من الأرض في الصين المعاصرة. ولم يكن مسموحا للعريس أن يلمس عروسه طالما كانت منقبة، وهذا هو السبب في أنه كان يجب أن يرفع النقاب بعصا. لكن من أين جاء أول نقاب عرس صيني؟

وفقا لقصة قديمة من عهد أسرة **تانج** (618 – 907)، في البدء كان هناك فقط **ناوا** Nüwa وأخوها **فوسي** Fuxi، كانا الشخصين الوحيدين الموجودين في العالم. ولكي يزداد أهل الأرض؛ كان يجب عليهما أن يتحدا كرجل وزوجته، لكنهما لم يجرؤا. فتسلقا إلى قمة جبل (كونلون) وبدأا يصليان هناك: «إذا كانت السماء تسمح لنا بأن نصبح زوجا وزوجة، فلتجعل السحب تتجمع، رجاءً. وإذا لم يكن مسموحا، فلتجعل السحب تتفرق." ولم يكدا ينتهيان من صلواتهما حتى بدأت السحب في التجمع، وبهذه الطريقة تزوجت **ناوا** وأخوها. ولأنها كانت مازالت متهيبة، فقد صنعت **ناوا** مروحة من العشب لتخبئ وجهها. في اللغة الصينية كلمة مروحة هي نفسها كلمة غطاء أو حجاب. والنقاب الحريري أخف وأجمل من المروحة، وبهذه الطريقة حل نقاب العرس محل مروحة العرس.[69]

ذكور الطوارق في الصحراء الكبرى هم الاستثناء للقاعدة. يغطي هؤلاء الرجال وجوههم ليحموا أنفسهم من الشمس ورمال الصحراء وغبارها. يلفون أوشحة طويلة من قماش خفيف حول رؤوسهم ووجوههم، بألوان زرقاء نيلية غامقة في الأصل دائما، ويتركون فقط فتحة صغيرة لا تغطي عيونهم. يبدأ ارتداء اللثام مع سن الرجولة ويُعتقد أنه يحمي من الأرواح الشريرة. وفقا للعالمين ببواطن الأمور: يرتدي ذكور الطوارق أغطية الرأس ليلا ونهارا، بينما ليس لدى إناث الطوارق أي تراث في التلثم.[70].

توجد أفكار واسعة التنوع حول الحجاب في التقاليد الإسلامية، كما توضح البيانات التاريخية:

69- http://traditions.cultural-china.com/en/15Traditions2646.html . حقيقة أن اول شخصين كانا أخا وأختا تفسر لماذا لم يجرؤا على ممارسة الجنس. فسفاح القربى من المحرمات الشديدة في معظم الثقافات. في الروايات الأولى من القصة لم يكن هناك غير ناوا في البدء. فقد كانت الإلهة هي التي صنعت الناس من الطين الأصفر بيديها. لم تكن هناك حاجة لفوسي في الرواية الأقدم.

Cf. China's Creation and Origin Myths, 2011

70- Francis Rennell Rodd, People of the Veil. London: MacMillan,1926

- في عام 1516 أجبر السلطان العثماني **سليم الأول** نساء سوريا على ارتداء الحجاب: الأسود والأبيض للمسلمات، والأصفر لليهود، والأحمر للمسيحيات.

- في عام 1923 قامت **هدى شعراوي** – التي أسست ورأست الاتحاد النسائي المصري – بخلع نقاب وجهها أمام الناس.

- في 27 أغسطس 1925 قال **مصطفى كمال أتاتورك** رئيس جمهورية تركيا: «لقد رأيت في بعض الأماكن نساء يضعن قطعة قماش حول رؤوسهن، وقماشة أو شيئا ما ليغطين وجوههن، وعندما يمر رجل يُدرن ظهورهن له أو يجلسن القرفصاء على الأرض. ماذا يعني هذا السلوك؟ أيها السادة، هل يمكن أن تقوم الأمهات والبنات في بلد متحضر بمثل هذه السلوكيات، بمثل هذا الأداء البربري؟ هذا المشهد يجعل من الأمة أضحوكة. لابد لنا أن نفعل شيئا حياله على الفور.» في عام 1934 حصلت النساء التركيات على حق التصويت، لكن ارتداء الحجاب أصبح محرما على الموظفات المدنيات وفي المدارس العامة، ولا يُشجَّع عليه في المجال العام.

- في عام 1928 سُمح للنساء الأفغانيات والفارسيات بالظهور برؤوس حاسرة وأصبح ارتداء الحجاب اختياريا.

- في 21 مارس 1935 منع الشاه **رضا** – شاه إيران – ارتداء الحجاب جهارا، ومن 7 يناير 1936 تم منع الحجاب في كل مكان، في الشوارع كما في الجامعة. وطلب الشاه من زوجته وبناته أن يضربن المثل.

- بمناسبة عيد استقلال البلاد عام 1956 طلب الملك **محمد الخامس** من ابنته أن تضع عنها حجابها أمام الجميع لتكون علامة على حرية النساء.

- في 10 يناير 1957 حظر الرئيس التونسي **الحبيب بورقيبة** الحجاب في المباني الحكومية ولم يشجع على ارتدائه أمام الناس.

- في مايو 2000 أجبر الطالبان في أفغانستان النساء (سواء كن مسلمات أم لا) على ارتداء الحجاب.

- في مارس 2004 حظرت فرنسا ارتداء جميع العلامات أو الملابس التي تمثل إظهارا واضحا لمعتقد الشخص الديني في المدارس العامة الابتدائية والثانوية.

- في 5 يونيو 2008 سمحت المحكمة الدستورية التركية بارتداء الحجاب في مباني الجامعة.

- في عام 2009 منع رجل الدين الإسلامي البارز الشيخ **محمد سيد طنطاوي** الطالبات من ارتداء النقاب في جامعة الأزهر المصرية، مركز تعليم الإسلام السني. كما صدم الباحثين الإسلاميين الآخرين بقوله أن المسلمين في فرنسا يجب أن يطيعوا القانون إذا تم منع الحجاب.

- في 18 يوليو 2010، نشر وزير التعليم العالي السوري مرسوما يمنع طالبات الجامعة من تغطية وجوههن بالنقاب.[71]

- في فرنسا (2010) وبلجيكا (2011) تم منع الثياب التي تغطي الوجه. وفي عام 2014 أقرت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان أخيرا ذلك الحظر، محاججة بأن الحجاب المخفي للوجه يقيم حاجزا أمام الآخرين وتراه الدولة تعديا على 'حقوق وحرية الآخرين' ومبدأ 'العيش المشترك'.[72]

في أماكن عديدة بأوروبا أقامت شابات مسلمات دعوات قضائية ضد الأزياء المدرسية الموحدة والمقررة سلفا على أساس حقهن في حرية التعبير. لا تلوح في الأفق نهاية لصراعات القوة الدينية حول رؤوس النساء المغطاة والمكشوفة.

71- Cf. Petite Histoire du voile: http://compilhistoire.pagesperso-orange.fr/voile.htm.

72- NRC-Handelsblad2 July 2, 2014.

من الواضح أن النهود تثير شهوة أكبر في مجتمع يتوجب أن تتم تغطيتها فيه لأسباب تتعلق بالاحتشام، من تلك التي تثيرها في المجتمعات التي تسير فيها النساء ونصفهن العلوي عار. في القرية الكونغولية التي وُلد فيها ابننا الأكبر جاء الزعيم الجديد إلى بيتنا مع أسرته ليقدم التهاني. كان يرتدي زيا طقسيا وحليات رأس وجسد جليلة، وسترة رائعة من لحاء شجر منسوج في شكل مثلثات سوداء وبيضاء غطت صدره بأكمله. وكانت زوجاته أيضا قد زيَّن أنفسهن، لكن أحدا لم يجد نهودهن العارية مثيرة للحرج (الصورة في الفصل الثاني). قد يواسي الناس مازحين شابا هجرته فتاة بقولهم «انتظر فقط حتى يتدلى نهداها.» لكن الأثداء الأكثر امتلاء ترتبط تقليديا بالخصوبة والأمومة المرضعة أكثر من الجنس. لقد تغيرت وجهات النظر حول نهود النساء مع تعبئتها وتغليفها.

في الصين لم يكن هناك اهتمام إيروتيكي خاص مُوجَّه لنهود النساء. في الشعر الإيروتيكي قبل الحديث لم تلعب هذه الأعضاء دورا بارزا، وفي الشعر الصيني الكلاسيكي لا توجد فقرة مديح واحدة مخصصة لنهود النساء – كما توجد مثلا في نشيد الإنشاد التوراتي. في اللغة الصينية تعني الكلمة الخاصة بالنهود (رو فانج) 'بيت اللبن'. في المناطق الريفية كان الأولاد الصينيون يرضعون لفترة ممتدة، غالبا حتى عامهم السادس. من المحتمل أن هذا كان مُرضيا للغاية حتى أنهم في سن لاحقة كانوا يعتبرون النهود شيئا هاما للأطفال الصغار فقط. لكن بالرغم من ذلك، كانت النهود الصينية تُغطى عادة في حرص بالملابس. ومع ذلك، فقد خضعت وجهة النظر الصينية حول الجسد للتغيير. في عهد أسرة **تانج** (617 – 906) كانت السيدات المتينات ذوات مفارق الصدر الكبيرة هن المفضلات، لكن من عهد أسرة **سونج** (960 – 1278) وهو الوقت الذي بدأت فيه عادة ربط أقدام الإناث، كان هناك تفضيل قوي للسيدات الرقيقات ذوات الياقات العالية المقفولة.

في خلال القرن العشرين، تبنت الثقافة الصينية الافتتان الأمريكي بالنهود الكبيرة، وفي أيامنا هذه يمتلئ الإنترنت الصيني بإعلانات عن تكبير الثدي. إحدى روايات **مو يان**

الفائز بجائزة نوبل للأدب عام 2012 اسمها (نهود كبيرة وأفخاذ عريضة).[73]

يمكن تتبع الاهتمام الأوروبي بالنهود حتى العصور الوسطى، عندما تزايدت الاختلافات بين ثياب الذكور والإناث وبدأت الملابس تشكل الجسد. قبضت الأطواق والمشدات على خصور ونهود الإناث، واتسعت فتحات الرقبة وتم التأكيد على الصدر.[74] أشارت القصيدة القروسطية 'حكاية الوردة' 'Roman de la Rose'– الذائعة الصيت في زمنها – إلى رباط يبقي النهود في مكانها:

> "إذا كان نهداها ثقيلين للغاية ينبغي عليها أن تأخذ وشاحا أو منشفة وتربطها على صدرها وتلفها بإحكام حول ضلوعها، وتؤمنها بإبرة وخيط أو بعقدة؛ حتى تستطيع أن تلعب بنشاط.»[75]

من القرن الرابع عشر انتشرت مشدات الخصر وغيرها من الوسائل لتكييف الجسد مع قواعد العصر. حوصر نصف الجسد العلوي والنهود، وفيما بعد جاء دور النصف السفلي كذلك. ليست النساء فقط، بل بذل الرجال كذلك جهودا لتجميل هيئاتهم عن طريق حشو ثيابهم بمُصلّبات المشدات والخوص والحشيات من جميع الأنواع، والروافع وما إلى ذلك، في مسايرة لمتطلبات الجمال في الزمان والمكان.[76]

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أصبح الديكولتيه (تقويرة الفستان) موضة في أوروبا. كانت **أجنيس سوريل** Agnès Sorel– وهي امرأة فاتنة الجمال ذاع صيتها كعشيقة **لشارل السابع** ملك فرنسا – هي من أدخلت تلك الموضة النسائية الجديدة إلى البلاط الفرنسي حوالي عام 1450. وهناك لوحة مجهولة الفنان تصورها في فستان أسود

73- With thanks to sinologists Kristofer Schipper and Wilt Idema for personal information. See also http://en.wikipedia.org/wiki/Women's_clothing_in_China#mediaviewer/File:Court_Ladies_of_the_Tang.jpg

74- La mécanique des dessous (sous la rédaction de Denis Bruna) 32ev.

75- Guillaume de Lorris and Jean de Meung, The Romance of the Rose, tr. Charles Dahlberg, 1971. Princeton University Press, p230. في الصين كانت توجد نفس العادة الخاصة بضغط النهود حتى تتسطح عن طريق ربطها

76- As could be seen at the exhibition La Mécanique des Dessous in the Musée des Arts Décoratifs in Paris in 2013.

طويل نصفه العلوي مفكوك الرباط ويبرز منه نهد عارٍ؛ أما العينان الغاضتان البصر في تقوى فهما في تناقض مذهل مع تقويرة فستانها. (الصورة رقم 12).

اتبعت النساء الأرستقراطيات مثالها الجريء، كما تؤكد بورتريهات القرن السادس عشر: وقد خلَّد الفنانون الكثيرات منهن بنهد واحد عارٍ، وأحيانا بالنهدين. في أوروبا القرن السادس عشر كانت النهود المكشوفة تحظى بتقبلٍ أكبر مما هي عليه الآن: بل إنه حتى القرن التاسع عشر كانت السيقان أو الكعوب أو الأكتاف العارية تُعتبر أخطر بكثير من النهود.[77]

في القرن السابع عشر حذرت الكنيسة بإخلاص أتباعها من أن الشيطان يعشش على حافة مفرق الصدر. لقد أعذر من أنذر، لابد أن هذا ما دار بذهن الكهنة المخلصين عندما ربطوا بين مرض السرطان وبين المرأة التي تكشف الصدر والعنق: «نعم، لقد حللنا في قرن فيه القلب مفتوح والصدر عارٍ، لكن أينما كشف صدر فاضح عن نفسه، انفغرت أفواه الجحيم.» في (نقد صائب وفي أوانه للنهود والأكتاف العارية) وهي نشرة ذائعة الصيت كتبها القس **جاك بوالو** Jacques Boileau وهو «بابوي متزن وعلاَّمة»، تُرجمت من الفرنسية ونُشرت في لندن عام 1678، يرفض المؤلف بشكل خاص 'عري' النساء في الكنيسة:

> "لم يعد الأمر قاصرا على بيوت بعينها، وفي الحفلات، وفي قاعات الترفيه، وفي نزهات التمشية حيث تظهر النساء بنهود عارية؛ بل هناك هؤلاء اللاتي يجئن بنوع غريب من التهور وكأنهن يبتهجن بانتصار يسوع المسيح نفسه، على قدمي مذبحه: وكما لو كان الشيطان مُصرًا على أن يقدمن خدماتهن له، ليس فقط باعتدائهن على حرمة الكنائس، بل كذلك بانتهاكهن لحصانتها وامتيازها: يذهبن إلى هناك ليجرحن عيون الأشخاص الأكثر براءة وانضباطا، وليقدمن الموت لهؤلاء الذين مازالوا ضعافا ويتهاوون في الرذيلة. يلوذ الرجال بأنفسهم في المعابد – كما في الملاجئ – حيث قلما يجرؤ إبليس على مهاجمتهم، وحيث نادرا جدا ما يستطيع أن يحقق أي انتصار

77-Cecil Willett and Phyllis Cunnington, The History of Underclothes 1981.

> عليهم؛ لكن هذا الذي لا يستطيع أن يفعله بنفسه، ينجزه عبر النسوة اللاتي يجلبهن هناك، واللاتي بذلك العري الفاضح لأعناقهن وأذرعهن وأكتافهن يهاجمن ويجرحن ويقهرن أولئك الذين يحسبون أنفسهم في أمان، وهكذا يجعلن الشيطان ينتصر حتى في تلك الأماكن التي أعدت لنصر يسوع المسيح.»[78]

وكي يواجهن حالة السخط المتزايد وضعت نساء كثيرات منديلا صغيرا في جوف مفرق الصدر ليخفين صدورهن قليلا في الكنيسة. لكن ظلت أشكال جديدة من تقويرة الصدر تظهر باستمرار: بيضاوية أو مربعة، أكثر أو أقل عمقا، بإطار من الدانتيل أو بجوهرة على الصدر. وهناك قصة شائعة عن تقويرات صدر **مدام دو بومبادور**، العشيقة الشهيرة **للويس الرابع عشر** التي كانت عميقة للغاية حتى أن نهديها كان يسقطان من أطواقهما المحدودة بعض الشيء، عندما كانت تنحني فوق سياج مقصورتها في المسرح.[79].

كانت الطبقة المتوسطة الصاعدة تنظر باستياء لكل الموضات الوفيرة التي ينشرها البلاط والأرستقراطية. وكان المدنيون معارضين لتقسيم السلطة القديم ومدافعين عن الفقراء في المجتمع. من الثورة الفرنسية فصاعدا، وبشكل خاص في القرن التاسع عشر، أصبح المجتمع الأوروبي مفرط الاحتشام أكثر فأكثر. غدا لزاما أن تكون الفساتين بياقات مغلقة بالأزرار حتى الرقبة ومختومة بدبوس محتشم. وظلت الأذرع والسيقان مغطاة، حتى في أوقات الصيف، رغم أن كل هذه التغطية ربما كان المقصود منها كذلك منع بشرة هؤلاء النساء البيض من أن تفقد لونها الشاحب المحبب للغاية وقتها. في انجلترا الفيكتورية أصبح الجسد الأنثوي أحد المحرمات على جانب، وعلى الجانب الآخر غدا أحد أشكال الهوس.[80]

قبل نهاية القرن التاسع عشر بدأ المجتمع الغربي يتحرر، بتردد. خطوة خطوة بدأت

78- Original title: De l'Abus des nuditez de gorge (1677). Quotations come from the English version, pp.3-4. See also Bologne,1986: 60ff.

79-Bologne, ibid. 66.

80- Monique Canellas-Zimmer,Histoires de mode, Les Dossiers d'Aquitaine – 2005, also to be found at
http://fr.wikipedia.org/wiki/D%C3%A9collet%C3%A9#cite_note-bain-20.

النساء في الالتحاق بالتعليم العالي. واضطربت المعايير البديهية السابقة. أصبحت تقويرات الصدر والأكتاف العارية محفوظة لفساتين السهرة. منذ ذلك الوقت تناوب دخول وخروج مفرق الصدر من عالم الموضة. تستفيد نجمات البوب من نهودهن، وفي فيلم وثائقي حديث عن الموضوع أعلنت بعض النساء صراحة أنه «تحصل الواحدة على كل ما تريده أن يحدث بفضل مفرق صدر جذاب.»[81] إن إساءة استخدام السلطة على الضعاف ميل بشري، والنساء لسن إلا بشرا.

مصافحة خطرة

منذ زمن سحيق استخدم الناس المصافحة كإيماءة سلام بشري: يمكنك أن تثق بي، كما ترى، ليس لدي سلاح في يدي ولا نوايا شريرة. لكن إذا كانت المصافحة تؤكد على التواصل السلمي بين الناس؛ فلماذا إذن يتم رفضها؟ من وجهات نظر عديدة تحمل كل أشكال الاتصال بالجلد العاري خطرا فادحا على الأخلاق القويمة.

بالنسبة لليهود المتشددين، ليست المصافحة بالأيدي بين الرجال والنساء بالتأكيد شيئا بديهيا. يحمل البعض منهم قناعة ثابتة أنها محرمة تماما، بينما يرى أخرون تلك الإيماءة كجزء طبيعي من السلوكيات الطيبة. بينما يجادل آخرون أنه لا ينبغي السماح بها إلا في المواقف التي سيسبب فيها الرفض حالة من الحرج: فقد يكون هؤلاء غير الراغبين في مصافحة يد امرأة عرضة للاتهام بالتمييز على أساس الجنس ويعطون بذلك انطباعا سلبيا عن التوراة. يسمح تلمود أورشليم – وهو أحد الكتب المقدسة التقليدية الهامة في اليهودية – بتلك الإيماءة. ويجادل آخرون بالعكس: فلا يُسمح لأحد أبدا غير الحاخامات الألفان بمصافحة شخص من الجنس الآخر، أو يُسمح فقط لأخ وأخته أن يقوما بهذا الفعل.

81- VPRO Metropolis-documentary about breasts http://www.uitzendinggemist.nl/afleveringen/1270655.
Cf. Vhe interesting history of the bra in China:
http://traditions.cultural-china.com/en/15Traditions12412.html.

كيف يكون التصرف إذن عندما تكون هناك مقابلة شخصية للحصول على وظيفة أو اجتماع عمل مع شخص من الجنس الآخر؟ هناك نصيحة أورثوذكسية مقدمة لمثل هذه المواقف، تسمح بـ «اتصال غير متودد بين الرجال والنساء» – في مواقف معينة:

"يمكن اعتبار أي مصافحة سريعة بمثابة بروتوكول عمل. بما أن العجز عن المصافحة سيكون لديه على الأرجح تأثير سلبي قوي على النتيجة، فإن المسموح به هو بالضرورة اتصال غير متودد... ومع ذلك، فقد قيل باسم حاخامات جامعة ييشيفا Yeshiva University البارزين أن المرء لا ينبغي أن يتورط كلية في المصافحة، بل الأحرى به ألا يمسك اليد الأخرى بإحكام. ينبغي أن تكون يده 'مغلوبة على أمرها' كما لو كان الشخص الآخر هو الذي يبدأ ويُكمل الفعل بأكمله، بينما يد الأول تقف موقف المتفرج البريء. اتباع هذه الطريقة يمنع الحرج أو خسارة صفقة في العمل، وفي نفس الوقت يسمح للمرء بالبقاء في إطار الهالاخاه (الشريعة اليهودية)."[82]

إن رفض الرجال لمصافحة النساء والعكس هو من بنات أفكار خوف الناس من الإثارة الإيروتيكية. في الإسلام يؤدي نفس الخوف ذاته إلى نفس القناعة بأن 'اللمس أسوأ من النظر':

"لا يحل لرجل يؤمن بالله وبرسوله أن يضع يده في يد امرأة لا تحل له أو ليست من محارمه. ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه. عن معقل بن يسار يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"لئن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له."... ما مس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده امرأة قط... فهذا المعصوم خير البشرية جمعاء سيد ولد آدم يوم القيامة لا يمس النساء. هذا مع أن الأصل في البيعة أن تكون باليد، فكيف غيره من الرجال؟... لا تجوز المصافحة ولو بحائل من

82- Cf. http://en.wikipedia.org/wiki/Negiah#cite_note-30#cite_note-30.

تحت ثوب وما أشبهه والذي ورد بذلك من الحديث ضعيف."[83]

بعد زيارة إلى لندن حيث رفض رجل دين إسلامي رفيع من إيران أن يصافحني شرح لي صديق هولندي مسلم (ليس لديه أي مشكلة على الإطلاق في المصافحة) الأسباب وراء ذلك السلوك: «عندما يحيي رجل امرأة عن طريق المصافحة باليد؛ يعتقد المسلم المتزمت أن لمستهما المباشرة تذهب مباشرة إلى القلب عبر الدم، وتثير على الفور رغبة فاسقة يوسوس بها إبليس.» لم يجرؤ رافض المصافحة الذي قابلته في لندن على قبول المخاطرة، ليس حتى مع امرأة هي جَدَّة بالفعل.

أينما عشت أو سافرت في أفريقيا جنوب الصحراء طوال الأربعين عاما الماضية، كان الناس دائما يولون أهمية كبيرة للمصافحة باليد. وكان رفض مصافحة يد شخص ما يعني رفض لمسه، وهو ما يُفسَّر على أنه علامة على عدم الثقة. في أيامنا هذه، تتحول تلك العلامة على الثقة أحيانا إلى العكس بفضل شائعة كابوسية منتشرة في عدة بلاد أفريقية منذ سبعينيات القرن العشرين وتثير خوفا قاتلا من العجز الجنسي. من الممكن إسكات مثل تلك الشائعات عن خطف القضيب التي نشأت أولا في مكان ما على يد أحد محطات (راديو الرصيف radio trottoir) – محطات راديو محلية غير رسمية – لكنها تشتعل مرة أخرى على غير توقع، وتثير هياجا لا يُصدَّق في السياقات الحضرية، أو في زحام الأسواق أو عربة أجرة عادية مكتظة بالركاب (نيجيريا 1975)، أو خلال لقاء سياسي ضخم (الكاميرون 2004) أو أثناء صلاة الجمعة في مسجد (السنغال 2008).

هكذا – بالنسبة لهؤلاء الذين يؤمنون بالسحر – قد تكون لمصافحة بسيطة القوة ليس فقط على محو فحولة الرجل، بل حتى على جعل القضيب بأكمله يختفي بطريقة غامضة، وفقا للبعض. تُنسَب هذه السرقة غير المعتادة إلى اللمسة السحرية الناتجة عن مصافحة شخص مجهول – عادة ما يكون رجلا – تحركه نوايا شريرة. طوال العقود الماضية كانت هناك حالة رعب خارجة عن التحكم ناتجة عن تهديد مباشر للذكورة الأفريقية، وقد اتخذت هذه الحالة أبعادا وبائية أكثر من مرة، واتهامات لم يكن هناك

83- http://islamqa.info/en/21183

أي دفاع ممكن ضدها، وفي بعض الحالات نتج عنها حتى أعمال قتل غوغائية مريعة.[84] في مثل هذه المواقف يخلخل الخوف من فقد رجولة المرء تلك العادة الإنسانية القديمة في مصافحة الأيدي على نحو خطير.

في العالم الغربي، وحتى وقت متأخر من القرن العشرين، لم يكن الإيتيكيت في مسألة المصافحة أقل خطورة، بل كان شيئا معقدا بعض الشيء. وقد قدَّم إيتيكيت إيميلي بروست نظرة عامة علي قواعده للمصافحة الغربية:

> "عندما يُقدَّم السادة إلى بعضهم البعض فإنهم دائما ما يتصافحون. وعندما يُقدَّم سيد إلى سيدة، فإنها أحيانا تمد يدها – خاصة إذا كان شخصا قد سمعت عنه كثيرا من أصدقاء مشتركين، لكن بالنسبة لشخص غريب كلية فإنها عامة تحني رأسها انحناءة خفيفة وتقول: «كيف حالك!» وكي نكون محددين في كلامنا، يعود الأمر إليها في المقام الأول كي تقدم يدها أو لا كما تشاء، لكن إذا مد الرجل يده؛ فستكون وقاحة من جانبها أن تتجاهلها. لا يوجد شيء أكثر جلافة من التعامل بفظاظة مع أي عرض يُقدَّم في مودة تلقائية. لا توجد سيدة أصيلة سترفض أبدا أن تصافح يدا شريفة، ولا حتى يد حمَّال فحم يعرض للخطر قفازها الأبيض الجديد.»

توجد إشارات مختلفة للرجال كي ينزعوا قفازهم الأيمن قبل مصافحة سيدة، لكن الناس الذين يعرفون بعضهم البعض يتصافحون عندما يتقابلون. تبرز هنا وهناك بعض التأملات الشيقة في قواعد المصافحة:

> "تخلق المصافحة غالبا إحساسا بالميل أو بالضيق بين غريبين. من ذاك الذي لا ينفر من يد 'رخوة' ممدودة كما لو كانت باقة من الطحالب البحرية، أو القليل من البودنج المغلي؟ وسيكون مزعجا بنفس القدر أن يجد المرء يده مقبوضا عليها ومرفوعة عالية في تكلف غريب وتهتز بعنف على جانبه، كما لو كانت تُستخدم لتنظيف بقعة في الهواء. أي امرأة لا تحفل

84- For more details, see Julien Bonhomme, Les voleurs de sexe. Anthropologie d'une rumeur africaine. Paris: Seuil, 2009.

> من تلك القبضة الكلاّبية التي تحفر خواتمها في لحمها وتسبب شللا مؤقتا لجميع أصابعها؟ تتم المصافحة اللائقة بإيجاز، لكن ينبغي أن يكون هناك إحساس بالقوة والدفء في تشابك الأيدي، وكما في الانحناءة، ينبغي على المرء أن ينظر في نفس الوقت إلى وجه الشخص الذي يتناول يده.»

هناك اختلافات واضحة هنا مقارنة بالمقاربتين الأورثوذكسيتين اليهودية والإسلامية: حيث لا توجد قوة في المصافحة لدى الأولى، ولا نظرة مباشرة إلى الوجه في الثانية. بالرغم من ذلك كان هناك اختلاف بين المعارف والغرباء، فوفقا للقواعد كان مسموحا للغريب أن يُقبّل يد امرأة، وهو شكل من التلامس لا مجال للتفكير فيه في القواعد الأرثوذكسية لليهود والإسلام. لكن تراث القواعد الغربية يصر بوضوح على شرط أن يكون سلوك المرأة أكثر سلبية من سلوك الرجل:

> "عندما تمد امرأة متزوجة يدها إلى غريب، فإنها ترخي ذراعها وأصابعها دائما، كما هو معتاد له أن يرفع يدها إلى شفتيه. لكن ليس المقصود باليد المسترخية أن تكون خرقة مبلولة؛ إذ ينبغي أن تكون في اليد حياة حتى لو كانت سلبية. ينبغي على المرأة أن تسمح دائما للرجل الذي يكون من المعارف فقط أن يهز يدها، ولا ينبغي عليها أبدا أن تهز يده. أما مع صديق قديم جدا فتقبض على يده بشكل أكثر صلابة، لكنه يهز يدها أكثر مما تهز يده.»[85]

أيا كان ما بقي في الثقافة الغربية المعاصرة من تلك القواعد وغيرها من قواعد الإتيكيت في عشرينيات القرن العشرين الهادرة، يظل رفض يد ممدودة بمثابة إهانة.

التعرّي والتخيُّل

ربما نميل لأن نَسِمَ ملابس الآخرين غير المعتادة بأنها 'غير محتشمة'، لكن الثياب لا

85- Emily Post, Etiquette in society, in business, in politics and at home (1922). London: Funk and Wagnalls Company, 1922, on. https://www.gutenberg.org/files/14314/14314-h/14314-h.htm.

تزيد الفضيلة بالضرورة. بل لعلها تملك تأثيرا عكسيا، كما يرى الأنثروبولوجيون الذين عاشوا وسط شعوب اعتادت العيش عارية. إذ كانوا يشعرون بعدم الارتياح مع تغطية الجسد في الحياة اليومية، وكانوا يرتدون ثيابا ذات حلي وزخارف في طقوس احتفالية معينة وفي رقصات الخصوبة، ليزيدوا من الإثارة الجنسية.

في السياقات التالية حيث أصبحت الثياب أكثر شيوعا، 'وسُمح للنساء أولا بارتداء الملابس، ثم أجبرن على ذلك، بدأت الازدواجية الجوهرية لردود الأفعال البشرية على الملابس تصبح محسوسة'، إذ أن تغطية جسد المرأة لم يقلل رغبات الرجل الجنسية، بل 'زادها في الحقيقة. وأصبح الجنس البشري – الساعي للتسامي على نداء الجسد – واحدا من أكثر الكائنات إيروتيكية بين جميع المخلوقات الحية بسبب ملبسه.'[86]

يُسقط الخيال البشري الرغبات والأحلام والنزوات اللا واعية على جسد المرء وأجساد الآخرين. ففي الثقافات التي تُجبَر فيها النساء على تغطية أنفسهن بطريقة صارمة، يميل الرجال لتطوير نظام من العلامات والرموز الخاصة بهم لرسم خريطة الأجزاء غير المرئية.

مثلا كيف يمكن اكتشاف إذا ما كان الجسد المغطى مشعرا أم لا، إذا ما كانت أرداف المرأة صلبة أم لدنة؟ وإذا ما كانت المرأة تملك تحت ثيابها 'فخذين كعمودين» مثلما في أحلامك؟ حيثما يكون الجسد مستورا على نطاق كبير، تتجه النظرة المشتهية أولا إلى الوجه، قبل أن تتحرك هابطة – بوعي أو بلا وعي – إلى الأجزاء المغطاة.

"وجه مشعر يعني فرجا مشعرا" هكذا يقول المثل لدى شعب مابوتشي Mapuche التشيلي. «فم المرأة عُري» تلك حكمة يهودية تلمودية، تعني أن فما مغلقا يعادل 'فرجا مغلقا'. ويعني العكس أن فما مفتوحا يعادل دعوة صفيقة إلى 'فرج مفتوح». وبما أن المرأة تخاطر بإثارة شهوة الذكر بمجرد أن تفتح فمها، فإن النساء المحتشمات – وفقا لهذا الخط من التفكير – يُبقين شفاههن مغلقة لا تنطق حرفا.[87]

86-James Laver 10; Lawrence Langner, [The Importance of Wearing Clothes. London: Constable 1959, quoted in James Laver 12.

87- Delaney 68 in Eilberg-Schwartz and Wendy Doniger, Off with Her Head. The Denial of Women's Identity in Myth, Religion, and Culture. 1995: 54.

"كعبا البنت يكشفان جمالها" طبقا لمقولة شعب أورومو Oromo الإثيوبي. في أفريقيا حيث لا ترتدي النساء عادة جوارب، يتفحص الرجال القدمين العاريتين للمرأة المحجبة ليكتشفوا إذا كانت عجوزا أم شابة. صديقتي المسلمة زيرا التي نشأت في مومباسا على الساحل الكيني عرفت ذلك من واقع خبرتها، كما أخبرتني بينما كنت أقيم معها في نيروبي. جعلتها أمها ترتدي عباءة ونقابا أسود عندما كانت في سن المراهقة، لكن النقاب لم يشكل أي حماية لها من قرصات الرجال لأردافها، لأن 'الرجال يقدرون عمرك عن طريق النظر إلى قدميك وعلى أساس استنتاجهم يقررون إذا ما كان موضوع القرص يستحق أم لا.' في بلاد مثل المغرب والجزائر وتونس يقر الناس هذه الفكرة نفسها بقولهم مازحين: «بالنسبة لامرأة ذات قدمين جميلتين، لا يشكل ارتداء الحجاب أي معنى.»

من أيدي وأقدام النساء المكشوفة، يقفز الرجال بسرعة إلى استنتاجات سابقة لأوانها عن الأجزاء المغطاة. إذا كان يمكن رؤية وجه امرأة على الملأ؛ فإن فمها وشفتيها ولسانها وأنفها وذقنها ورقبتها وخطوط جسدها كلها تتم دراستها بحرص. في التراث العربي يمكن استقاء الكثير من المعلومات عن الفروج المستورة من الوجوه السافرة:

> "يشير الفم الأحمر الصغير والنهود الممتلئة المشدودة إلى فرج ضيق وساخن، إلى مصادر حنان لا تنضب، وذكاء عالٍ. ويكشف الفم الكبير عن فرج هائل، والعكس صحيح. اللسانُ الأحمر أو القصير هو علامة أكيدة على فرج رطب وبارد. فتحتا الأنف الكبيرتان تشيران إلى فرج نهم لا يشبع. وتوحي الذقن الصغيرة بأن الفرج ضيق كما يشتهي الرجال. أما المرأة السمينة ذات العنق الغليظ فيجب تجنبها؛ لأنها تخفي بين ساقيها فرجا هائلا من الصعب ملؤه.»[88]

إلى أي حد تتطابق العلامات المرئية مع الواقع المخفي؟ هذا ما لا تقوله **فاطنة صبَّاح** مؤلفة هذا الكتاب الكاشف. وبالطبع فإن الإشارات إلى الأفواه أو الألسنة أو الرقاب أو الأنوف أو اللحى كمؤشرات على الفحولة أو كأبعاد للذكورة المستورة غير موجودة تماما.

88- Fatna A. Sabbah 25-26.

وهذا منطقي فقط لأنه في الثقافات التي يُفترض فيها من النساء أن يخرسن حتى لا يعطين علامة على 'فرج مفتوح'؛ تكون مثل هذه المعلومات مفقودة.

في تقاليد تراثية كثيرة قوبلت الإثارة الأنثوية برفض أو بتحذيرات ضد تأثيراتها المدمرة كما يُفترض، وانتهى الأمر بكثير من النساء إلى الاعتقاد أن رغبتهن هي شعور غير مقبول. ومن أجل تقييد الإثارة الذكورية، تم التأكيد باستمرار على أخطار الجسد الأنثوي أو أجزاء معينة (متغيرة) منه. أيا كان العصر أو الثقافة أو الدين، فكل جزء من الجسد مغطى أو مكشوف يمكن أن يكون محملا بالمعاني.

شعب بوتوكودو Botocudo البرازيلي كانوا عراة، لكن الرجال والنساء لم يكن يظهرن أبدا على الملأ دون أقراص الشفاه الخاصة بهم (الصورة رقم 13). في تاهيتي وتونجا كان الناس يمشون بلا ملابس، وكان هذا سليما طالما أن الجسد مغطى بالوشم. بين بعض الشعوب لم يكن من الممكن رؤية الركبة وبين شعوب أخرى كانت السرة هي المحجوبة. في ألاسكا كانت النساء يشعرن بالخجل إذا شوهدن دون حلي ثقوب شفاههن، وفي أفريقيا كان يتم إسقاط الخجل أحيانا على الأرداف. (الصورة رقم 14).

في القرن التاسع عشر كان لدى الأوروبيين حساسة خاصة تجاه السيقان، بينما اعتبر المسلمون وجه المرأة هو الجزء الواجب تغطيته من الجسد خارج البيت – كما لاحظ العديد من الرحالة الأوروبيين في الشرق الأوسط:

> "إذا صادفت امرأة عربية عابرة في حقل دون حجابها فستلقي بتنورتها فوق رأسها، كاشفة بذلك ما يبدو للعقل الغربي جزءا أكثر إحراجا من جسدها."[89]

في التراثين الأورثوذكسيين اليهودي والإسلامي كان لدى الرجال دائما مشاكل أقل مع أقدام المرأة مما كانت لديهم مع شعرها، بينما في زمن أوروبا الفيكتورية لم يكن بإمكان النساء أن يُظهرن لمحة من قدم أو كعب دون إثارة الارتباك. في الصين القديمة كانت امرأة دون جوارب تثير الخزي والحرج بنفس القدر الذي كان يسببه قفا امرأة عارٍ في

89- Laver 9.

اليابان.[90]

في كل مكان كان الرجال يحذرون بعضهم البعض، ويحذرون أمهاتهم وأبناءهم من إغواءات الجسد الأنثوي التي تُعرّض عفة كلا الجنسين للخطر. لا تجذب أذرعة أو نهود النساء العارية أي انتباه خاص بالنسبة لهؤلاء المعتادين عليها، لكن رؤية هذه الأجزاء من الجسد تزعج شخصا تربى على فكرة أنها لابد أن تكون مغطاة. على العموم يبدو كما لو أن تمثيل النساء – على العكس من الرجال – قد تم اختزاله، والحكم عليه بشكل أساسي، في تكوينهن البدني.

بشر أم وحوش؟

عندما نُشر كتابي (إياك والزواج من كبيرة القدمين) بالعربية، دُعيت إلى مصر والمغرب. بعد إحدى ندواتي في القاهرة قالت لي واحدة من الطالبات «أنا أعيش في مواجهة أبي الهول»، ودعتني لزيارة أهرامات الجيزة مع اثنتين من صديقاتها. وعندما كنا نتناول الغداء سويا سألتهن لماذا يرتدين الحجاب. قالت واحدة أن ذلك بسبب دينها وأيضا لأنه يحميها من التعرض للتحرش على أيدي الرجال الذين يعاكسونها. وقالت الثانية أن ارتداء الحجاب لم يصنع فرقا كبيرا في هذا الصدد، لكنها بدأت في ارتداء الحجاب لأن كل صديقاتها تقريبا كن يفعلن ذلك، رغم أن عائلتها نفسها كانت تراه أمرا غير ضروري. وقالت الثالثة: «المسألة هي أن الرجال وحوش كما نعرف جميعا. لا يمكنهم التحكم في أنفسهم، وهذا هو السبب في حاجتنا لتغطية رؤوسنا.»

شعرت بالحيرة بعض الشيء: «مهلا لحظة، لديّ خمسة إخوة وزوج والكثيرين من الأصدقاء الذكور الطيبين، كلهم بشر رائعون، وبعد قليل سنتناول الشاي مع والدك. وأظنك لا تقصدين أنه وحش، أليس كذلك؟» هزت رأسها بقوة، بالطبع لا، لكن الخبرة اليومية في المدينة جعلتها تشك بقوة في وجود التحكم الذكوري في النفس. الصديقتان الأخريتان ضحكتا وقالت واحدة: «يدهشني أن الرجال الذين يعاكسونني ويحاولون

90- Flügel 67.; James Laver 9; Encyclopaedia Britannica quoted in Bertling 25ff.

لسي هم دائما مصريون وليسوا أجانب أبدا. ربما ينبغي علينا أن نخلع حجابنا ونحاول إعادة تعليم هؤلاء الرجال.» وبعد لحظة: «أتعرفين، نتحدث هذه الأيام كثيرا عن هويتنا الثقافية، لكنها تبدو جزءا من هذه المشكلة المزعجة أكثر من كونها إسهاما في الحل.»

استمرت المناقشة وطالت، واتفقت الفتيات الثلاث على عدة أشياء: دون تحكم الذكور البالغين في أنفسهم لا تستطيع النساء الشعور بالأمان (لكن ألا يصدق العكس كذلك؟) توحي التغطية الكاملة بأن النساء لديهن القليل من الثقة في تحكم الجنس الآخر في نفسه، بعيدا عما يقوله القرآن والتراث الإسلامي عن ذلك، وهو موضوع تختلف حوله المدلولات – كما سنرى في الفصل السادس. في النهاية خلصوا إلى أن الحجاب سيكون بلا فائدة في بيئة تشعر النساء فيها بالأمان، لكن في المجتمعات والمواقف التي مازال من الصعب إيجاد ذلك الأمان فيها، قد يكون ارتداء الحجاب له بعض النفع. كان هذا عام 2008.

في عام 2014، تم تمرير قانون جديد ضد التحرش الجنسي في مصر، قانون يفرض عقوبات ثقيلة على مرتكبي تلك الجريمة: كل من تعرض للغير بالملاحقة أو القول أو الإشارة بإيحاءات جنسية سيتعرض للعقوبة من الآن فصاعدا، وسيعاقَب من يكرر الفعل بالسجن من عام إلى عشرة أعوام وبغرامة مالية كبيرة. وفُرضت أول عقوبة بعد صدور القانون الجديد على شاب في العشرينات من عمره أخبر امرأة في محطة مترو أن ثوبها لم يكن محتشما. وجهت المرأة إليه الاتهام وحُكم على الرجل بسنة سجنا وغرامة قدرها حوالي ألف جنيه مصري بتهمة التحرش الجنسي. قد يظن المرء أن هذا كثير بعض الشيء، لكن وفقا لبحث أجرته الأمم المتحدة عام 2013، فإن 99.3 % من النساء المصريات قد عانين من التحرش الجنسي، بما في ذلك التحرش الجسدي في 96 % من الحالات: أي اللمس غير المطلوب، وبشكل أساسي في الشوارع.

ومن المثير للاهتمام أنه في أزمنة سابقة كانت هناك وجهات نظر مختلفة تماما عن التحكم في النفس بين الرجال في منطقة البحر المتوسط. في اليونان القديمة على سبيل المثال، كان الرجال – كما تخبرنا مصادرهم هم أنفسهم – هم الجنس الوحيد القادر على السلوك العفيف. بفضل تحكمهم العقلاني في النفس – طبقا لسلسلة طويلة من الأفكار التي تشاركها الكثيرون ومن ضمنهم أرسطو – كان الرجال يقاومون بكفاءة الاستسلام

للإشباع الفوري لشهواتهم. كانوا يؤمنون أن النساء غير قادرات على التحكم في أنفسهن ولذلك يجب أن يخضعن لسلطة وتحكم من الخارج. بسبب طبيعتهن الحيوانية – المخفية في جوهر كينونتهن – فلابد من ترويض الفتيات وإبقائهن داخل البيوت منذ الطفولة المبكرة. وفي تعليمهن يجب أن تُقدَّم لهن أمثلة للاحتشام من التراث اليوناني الشفاهي والمكتوب.[91] تمتدح الأوديسا (18: 206 – 210) عفة **بنيلوبي** النموذجية. فهي تنتظر بإخلاص عودة زوجها وترفض عروض الخاطبين الكثيرين المتجمعين حولها. يشير النص عرضا إلى تغطيتها نفسها باحتشام بمجرد أن تدرك وجود صحبة من الذكور:

ثم هبطت تاركة حجرتها المضاءة جيدا
لم تهبط وحدها: بل سارت في أعقابها اثنتان من نسائها
تلك المرأة الساطعة، ما إن وصلت إلى خُطَّابها
حتى سحبت نقابها المتلألئ فوق خديها
وتوقفت الآن حيث حمل عمودُ السقفَ المتين
وعلى كل جانب من جانبيها تمركزت واحدة من جواريها المخلصات.

كانت النساء الأرستقراطيات اليونانيات يعشن حياتهن كلها داخل البيت، حرفيا في الظلال (كما لاحظ **أرسطو**)، وجوههن محجوبة عن الرؤية المباشرة، ونظراتهن متحولة عن الرجال، لا ينظرن أبدا بشكل مباشر إلى أي رجل حتى يوم زفافهن، عندما ينظرن مباشرة في عيون أزواجهن ليعبرن عن خضوعهن.[92]

ظلت أفكار ذلك الفيلسوف اليوناني الشهير متحكمة لوقت طويل للغاية واستمرت آراؤه ذات النفوذ تردد أصداءها في أعمال اللاهوتيين والفلاسفة والشعراء في أوروبا حيث أصبحت مُثُل العفة – من العصور الوسطى فصاعدا – موضوعا شائعا وواسع النقاش.

91- Blaffer Hrdy 261f.

92- Blaffer Hrdy 262; http://classics.mit.edu/Aristotle/politics.mb.txt; Susan L'Engle 89-91;; Aristoteles, Politics, 1260a 20-4; 1277b 20-4.

4

تسوية مستحيلة

لقد أصبحت الملابس بالتدريج مؤشرا أساسيا على الحاجة الإنسانية للتباهي، وهي الحاجة التي لم تكن مجهولة لأسلافنا الأوائل، حتى دونما ملابس. أصبح الناس مدركين لأن تغطية الجسد تبرز نقاط قوتهم وفي نفس الوقت تخفي عيوبهم. شيئا فشيئا بدأت الملابس تخفي بعض أجزاء الجسد لأسباب تتعلق بالعفة، ولذلك كان يجب على تغطية الجسد أن تتعامل مع 'العداء بين الميل للاستعراض والميل للاحتشام'، بالرغم من أن مظاهر الاحتشام متغيرة إلى أبعد الحدود.[93] وتُذكرنا الاحتجاجات التي تشتعل ضد التغطية الهزيلة وكذلك ضد التغطية المفرطة بأن الكثير من الناس هم أبعد ما يكونون عن الرضا بتسويات وتوافقات الآخرين.

العفة والشهوة

تحكس القصص والصور كيف يفكر الناس في العفة والشهوة. الشهوة هي الحاجة لإشباع أحد الرغبات، وترتبط بشكل أساسي بالرغبة في الجنس، بينما ترتبط العفة بإنكار هذه الرغبة، على الأقل خارج القواعد المحددة. في الكنيسة أصبحت العفة هي أولى الفضائل السبعة، والشهوة عكسها في قائمة الخطايا الكبرى.

93- Flügel 62-64.

في القصص المسيحية كانت العفة تتجسد في شكل شخصية متحكمة في نفسها معارضة بصرامة لمنافستها اللعوب. في قصيدة Psychomachia (معركة الأرواح)، وهي واحدة من أكثر القصائد اللاتينية انتشارا في بدايات العصور الوسطى، يصف الشاعر **بروديتيوس** (حوالي 348 – 405) معركة مميتة بين الاثنتين. في مشاجرة مثيرة تهجم الشهوة على العفة بشعلة حارقة، لكن العفة تنجح في إسقاط الشعلة من يد الشهوة، وإخضاعها بسيف، وبالطبع تعلن انتصارها.

في إحدى القصص الرومانية كانت هناك فتاة عذراء اسمها **توتسيا** Tuccia تخدم الإلهة **فيستا** Vesta في المجمع بروما. اتُهمت **توتسيا** بالفسوق، وكان يُحكم على أي عذراء من عذارى **فيستا** بالموت لو ارتكبت مثل هذا الفعل الشائن. لحسن الحظ تمكنت الإلهة من أن تثبت بأعجوبة عفة خادمتها. في المعرض الوطني بلندن، هناك لوحة إيطالية من عصر النهضة رسمها الفنان **جيوفاني باتيستا موروني** Giovanni Battista Moroni (حوالي عام 1555) يصور فيها هذا الإثبات. حيث تُظهر **توتسيا** الطاهرة مقدارا كبيرا من جسدها: ذراعاها وكتفاها ونهداها وأسفل ساقيها كلها عارية، لكن قدمها اليمنى ترتدي صندلا وتستقر على حجر يكشف عن حكمة لاتينية محفورة عليه: 'تبزغ العفة من سحابة العار السوداء.' وكدليل إثبات هناك غربال مليء بالماء على حجر **توتسيا**، لكن فضيلة هذه العذراء النموذجية (ماتخرَّش الميَّة) حتى أن السائل لا يتسرب منه شيء عبر ثقوب الغربال. وقد حرصت نساء أخريات على أن يرتبطن بنفس الرسالة، إلى درجة أن نساء كثيرات أردن أن تُرسم لهن بورتريهات وهن يحملن غربالا كرمز لعفتهن. بل إن هناك سلسلة كاملة من لوحات الغربال في أواخر القرن السادس عشر تُظهر 'الملكة **إليزابيث الأولى** العذراء' مغطاة الجسد بعفة واحتشام. (الصورتان رقم15).

لم تكن عفة النساء والفتيات أقل قيمة خارج أوروبا. في الصين تقول حكمة تقليدية: 'الموت جوعا مصيبة صغيرة، فقد عفتك مصيبة كبيرة'. كانت القاعدة أنه خلال حياتها لا يمكن للفتاة أن تُرى عارية إلا بواسطة رجل واحد: زوجها. تنطبق هذه القاعدة كذلك على أي لمحة عارضة من غريب لفتاة بريئة، مثلا أثناء تعريها في حديقة بيت أبيها لتبحث في البركة عن مروحتها التي سقطت منها. أصبح موضوع الفتاة التي يراها غريب عارية على غير إرادتها شائعا بطريقة مذهلة في بلد حيث:

"سيبدو من المطمئن أن نقول أنه طوال الفترة التي تزيد على ثلاثة آلاف عام من التاريخ الصيني قبل الحديث المُدوَّن؛ كان متوقعا من الرجال والنساء الصينيين من الطبقة العليا أن يكونوا في كامل ثيابهم طوال اليوم، سواء داخل البيت أو خارجه. يجد هذا نظيره في التأكيد الكبير على أهمية الأنسجة للجسد السياسي في الفلسفة الصينية المبكرة: فإذا كان البرابرة يملأون جلودهم بالوشم، فإن الصينيين كانوا في كامل ثيابهم وملابسهم المنقوشة."[94]

كان النقيض – أي أن تُرى بلا ملابس – سببا للخزي والحرج. وكان المجرمون يُجرَّدون من ثيابهم قبل إعدامهم لسلبهم آخر جزء من الكرامة الإنسانية.

وفقا لقصة قديمة، فإن **جوانين** Guanyin – التي أصبحت فيما بعد الإلهة البوذية للراحة والرحمة – أثناء حياتها كأميرة أغضبت أباها الإمبراطور (والذي كان بلا أبناء ذكور) برفضها الزواج: فقد أرادت أن تصبح راهبة بوذية وتنقذ روحها. وقد قادت أباها إلى حالة من اليأس حتى أنه أجبرها على الظهور على الملأ أمام أفراد البلاط الذين كانوا يحتسون النبيذ ويتناولن الطعام وهي عارية ومقيدة بالأغلال؛ كأنها كانت مجرمة مدانة. لكن حتى هذا الشكل من الإذلال لم يجعلها تغير رأيها: فقد كانت عفيفة وبقيت عذراء، وهكذا في النهاية تم إعدامها وفيما بعد تم تأليهها.[95] **جوانين** كإلهة رحيمة وكريمة، فهي تحمي من الأخطار ومازال الكثيرون يستنجدون بها في شرق آسيا.

نساء عفيفات ينبذن المتع الدنيوية، ويعشن حيوات زاهدة نموذجية وينتهي بهن الأمر كقديسات – لم تكن مثل هذه القصص أقل شيوعا في السرديات الأوروبية. مثال على ذلك قصة القديسة **أجنيس** Saint Agnes التي ماتت حوالي عام 305 ميلادية. في سن الثالثة عشر تم تكريسها للآلهة الرومانية، لكنها صلبت نفسها عند معبد **مينيرفا**، إلهة الحكمة والذكاء، ورفضت أن تقبل عروض الزواج قائلة أنها مخطوبة بالفعل ليسوع المسيح. حاول أحد الحكام الرومان – والذي كان ابنه عاشقا **لأجنيس** – أن يجبرها بالقوة على

94- Wilt Idema, The Accidental (And not so Accidendal) Observation of Bathing Women, p.3. وأشكر المؤلف على مشاركته الكريمة لي بقراءة هذه الورقة الفائتة غير المنشورة

95- Ibid. p.4.

الزواج من ابنه. وعندما رفضت بإصرار، أرسل قوادين قاموا بتعريتها وسحلها إلى أحد المواخير، حيث صفعوها وخمشوها وحلوا شعرها المرفوع في عفة، كما لو كانت عاهرة. وعلى الفور جعل الرب شعر **أجنيس** ينمو بسرعة حتى أن جسدها العاري توارى عن الأنظار. ظلت **أجنيس** – بالثياب وبدونها – نموذجا عظيما للعفة، وحولت مكان العار إلى بيت للصلاة وامتلأ الماخور بالنور. ورغم أنها عُذبت ولاقت حتفها في النهاية بالسيف، إلا أنها شوهدت مرة أخرى في ثوب ذهبي اللون، وفي إصبعها خاتم خطبة وإلى جانبها حمَل أبيض (رمز ليسوع الضحية). لقد أصبحت **أجنيس** (التي يعني اسمها في اللاتينية 'الحَمَل' وفي اليونانية 'العفيفة') القديسة المسيحية الحامية للعفة، فهي تحمي البنات الصغار والأزواج المخطوبين وضحايا الاغتصاب.[96]

بالنسبة للفضائل المسيحية مثل التواضع، والطاعة، والاحتشام، والتقوى، والاعتدال، فقد اجتمعت كلها في مفهوم العفة. وقد صور فنانو العصور الوسطى العفة في شكل فتيات يرتدين ملابس محتشمة، والشهوة في شكل فتيات عاريات بلا خجل وهن يرقصن مع الرجال. تدافع النساء المحتشمات عن عفتهن بالأسنان والأظافر، ويلقين أنفسهن إلى الموت غرقا بدلا من أن يفقدن شرفهن بالاغتصاب. هذه الصور قدمت معرفة تهذيبية كان القصد منها ملء المشاهدين بالاشمئزاز من الفحش.[97] (الصورة رقم 16).

لم يحظ التحرش الجنسي بالرجال على يد الرجال بأي اهتمام. وتشكل الخطر بالنسبة للرجال من نساء يرتدين ملابس شهوانية ويغوينهم ليقعن في فخاخهن. نشأت العفة الذكورية في المقام الأول (بفضل **أرسطو**) من قوة إرادة المرء – والتي كانت أحيانا تلقى دعما مفيدا عن طريق الصوم ومعاقبة الذات.

96- Cf. Legenda Aurea (ca 1265) or Golden Legend, a text by Jacobus de V.oragine, quoted in Robert Mills.: Can the Virgin Martyr Speak: in: Bernau, Anke, Evans, Ruth and Salih, Sarah eds, Medieval Virginities Toronto and Buffalo: University of Toronto Press 2003: 189-190.

97- يمكن العثور على أمثلة هائلة للرسومات القروسطية حول هذه المواضيع في متحف ميرمانو-ويستريانوم في لاهاي.
Other interesting examples in Susan L'Engle's article 'Depictions of Chastity' in Van Deusen 2008: 87-126.

جذب أو عدم جذب الانتباه

بالرغم من كل ضبط النفس الذكوري ذاك الذي مدحه الفلاسفة كثيرا، فإن الخوف من الفشل المحتمل قد ألهم المجتمعات فكرة خلق القوانين. في فترة مبكرة بعض الشيء أعلنت المجتمعات الصغيرة أن الأعضاء التناسلية مثيرة ومهيجة، وطُبقت التغطيات الأولى البسيطة على هذه الأجزاء من الجسد.

في المجتمعات الذكورية نشأ منطق أنه من الصعب مقاومة النساء حتى أنه لا ينبغي لهن أبدا أن يكن بلا مالك، وهي وجهة نظر مازالت سائدة جدا حول العالم، حتى بالرغم من أننا ينبغي أن نكون الآن قد تعلمنا من الخبرة أن الملكية الحصرية لم تنجح أبدا في اقتلاع ذلك الخوف القديم.[98]

كل فرد فينا تعذبه مخاوف معينة مدى الحياة. هل أنا جزء من الجماعة أم يرفضني الآخرون؟ هل يؤنبونني أم يسخرون مني أم يؤذونني، وإلى أي حد يكون جسدي الضعيف في خطر عندما أظهر نفسي على الملأ؟ كل البشر في حاجة للقبول والتقدير، لنظرات الإعجاب والمجاملات من الآخرين لتعزيز إحساسهم بقيمة الذات. ربما كان هذا هو السبب في التزامنا بقواعد لم نبتكرها، قواعد ليست دائما في مصلحتنا.

يتجلى الخجل بأشكال متغيرة: حتى داخل نفس الثقافة أو الدين ترتبط مشاعر مختلفة بأجزاء الجسد التي نسمح لأنفسنا بإظهارها للآخرين أو تلك التي لا تظهر على الإطلاق. هؤلاء الذين يخافون من نظرات الاستياء أو الغيرة أو العهر يختارون الانحياز للملابس المتواضعة أو يفضلون البقاء في البيت. ويستطيع هؤلاء الذين في مركز السلطة أن يجبروا الآخرين على الظهور عراة أو مغطين تماما. تجذب حمرة الخجل المحتشمة الانتباه للجسد الذي نود في لا وعينا أن نُظهره، لكننا نضطر لإخفائه لأسباب تتعلق بالعفة. أما حجة أن تغطية الجسد كان مقصودا منها على وجه الحصر أن تعزز الأخلاق العامة فهي حجة فاشلة. إذ يثبت تاريخ الأزياء أن الناس قد ارتدوا ثيابا بأكثر الطرق حماقة ليجذبوا الانتباه إلى أجسادهم.

98- Cf. Charles Letourneau, La condition de la femme dans les diverses races et civilisations, والذي وصف عدم المساواة بين الجنسين عام 1903 بطرق متقدمة على زمنه بشكل مذهل

تعامل الناس ذوو الأجساد المغطاة مع هؤلاء الذين يعيشون بلا تغطية لأجسادهم إطلاقا على أنهم جديرون بالشفقة أو على أنهم أدنى منهم منزلة. في العالم الغربي طوّر مفهوم (التنوير) وجهتي نظر عن الشعوب العارية التي أشار إليهم الرحالة بـ «السكان الأصليين» أو «البدائيين»:فإما كانوا يُبَجلون بطريقة رومانسية على اعتبار أنهم وحشيون نبلاء، أو يتم الحط منهم كأناس متوحشين غير متحضرين. وفي الفكر التطوري الارتقائي، ارتقى البشر من مرحلة المتوحشين العراة ليصبحوا مكسوين ومتحضرين. بالرجوع إلى بعض خطاباته المرسلة إلى (تيبرا ديل فويجو)، أرخبيل من الجزر في أقصى جنوب أمريكا، علّق داروين على 'الحالة البائسة من البربرية' في 'بلد عاصف' حيث السكان 'عراة تماما':

> "لم أرَ أي شيء أدهشني تماما أكثر من المرأى الأول لشخص متوحش. كان فوجيا عاريا، شعره الطويل يتطاير حوله، ووجهه ملوث بالألوان. هناك في سحناتهم تعبير أعتقد – بالنسبة لهؤلاء الذين لم يروه – لابد أن يكون متوحشا بشكل لا يُصدَّق. كان هؤلاء التعساء المساكين متوقفي النمو، ووجوههم البشعة ملطخة باللون الأبيض، وجلودهم قذرة ودهنية، وشعورهم معقودة، وأصواتهم ناشزة، وإيماءاتهم عنيفة. لدى رؤية مثل هؤلاء الرجال، يكاد المرء لا يستطيع أن يصدق أنهم بشر مثله، وأنهم من سكان نفس هذا العالم.»[99]

أحضر لي المسافرون في تلك المنطقة صورا فوتوغرافية من (تيبرا ديل فويجو) يعود تاريخها إلى حوالي تسعين عاما بعد ذلك، صور تعطي انطباعا مختلفا تماما عن سكانها؛ هنود سلكنام (الصورة رقم 17). يبدون معتدين بمظهرهم، هؤلاء الأشخاص الذين لا

99- A Naturalist's Voyage Round the World, Journal of Researches into the Natural History and Geology of the countries visited during the voyage round the world of H.M.S. Beagle under the command of Captain Fitz Roy, R.N. By Charles Darwin, M.A., F.R.S. Text and illustrations derived from the John Murray edition of 1913 titled A Naturalist's Voyage Round the World). Pgs 220- 221: .http://www.corpussomnium.org/darwins-descriptions-of-thefuegians-and-patagonians/

يرتدون إلا قبعات وأحذية من جلود الحيوانات، ولونوا أجسادهم العارية بخطوط بيضاء وأخرى منقطة من أجل احتفال شعائري. كان **مارتن جوزيند** Martin Gusinde المبشر والأنثروبولوجي الألماني الذي التقط هذه الصور، قد قضى وقتا كبيرا في ذلك الجزء من العالم حيث طور وجهة نظر مختلفة حول الناس الذين كانوا يعيشون هناك، بل وشارك في احتفالاتهم الطقسية لكي يفهم ثقافتهم على نحو أفضل. لكن في كلتي الحالتين كان 'الأوروبيون هم الذين حددوا إذا ما كان تلوين الجسد والريش والحلي والجلود وما إلى ذلك يشكل عريا أم لباسا، قبل أن يذهبوا أبعد من ذلك إلى تحديد إذا ما كان العري نبيلا أم حقيرا' كما لاحظت عن حق **روث باركان** Ruth Barcan [100] (الصورة رقم 18).

إن التناقض بين العاري والمستور مازال يبدو في مركز معاييرنا الواعية لما نعتبره إنسانيا بشكل جوهري. سواء كان الناس يرتدون ملابس أقل من اللازم – كما في حالة هنود سالكنام من وجهة نظر **داروين** – أو يتغطون بشكل أكثر من اللازم – مثلما تفعل النساء المسلمات المتشددات من وجهة نظر الكثير من الغربيين المعاصرين – فإن الحكم يكمن في عين الناظر. من ناحية أخرى، يميل المشاهد المغطى تماما لأن يشعر بالضيق من شخص عابر لديه المزيد من الجلد العاري، ويُصدر حكما على الفور. بكلمات **مونتين**: "كل واحد ينعت ما هو ليس معتادا عليه بالبربرية، يبدو حقا أننا لا نملك أي رؤية أخرى للحقيقة والمنطق غير المثال والفكرة من آراء وتقاليد البلد الذي نعيش فيه." في هذه الناحية، لا جديد تحت الشمس. إن قبول التنوع الثقافي ليس أمرا بديهيا تماما.

التراتبية والاحترام

يبدو أن هناك معيارين يحددان رسالة الملابس: العفة والتراتبية. وقد كانت العفة – كما نوقشت سابقا – تُعتبر عادة أكثر أهمية بالنسبة للنساء عن الرجال؛ الذين كانوا المجموعة الأقوى والتي كانت تملي القواعد. أما التراتبية فقد اتضحت للعيان كذلك في مظهر الناس: وهناك مثال بليغ هو الصورة أعلاه لرجل أوروبي محاط باثنين من أقزام البيجمي. كانت إحدى القواعد التي ينبغي احترامها في عدد من الثقافات هي أنه يتوجب

100- Barcan 138.

على الشخص الأقل أهمية أن يرتدي ملابس أقل بشكل ملفت. وكانت هناك عادة قديمة هي أن الشخص الأدنى في السلم الاجتماعي يجب عليه أن يخلع (جزءا من) ثيابه في حضرة الأعلى منه كعلامة على الاحترام والتصديق على التراتبية الموجودة. هذا الشخص الأعلى كان يمكن أن يكون زعيما أو ملكا أو رجلا تقيا. كان الوضع هكذا بالفعل في بلاد الرافدين: إذ تُظهر لوحات من المنطقة عمرها آلاف السنين رجالا دون ثياب ومعهم سلال مليئة بالقرابين ليعبروا عن خضوعهم للآلهة.[101]

بنفس نظام التفكير يستلزم التقليد الإسلامي من الناس أن يخلعوا أحذيتهم عند مدخل أي مسجد. في العالم الغربي هناك أثر باق مشابه هو العادة القديمة أن يكشف الرجال رؤوسهم عند دخول الكنيسة – بينما كان من المفترض من النساء على العكس أن يبقين رؤوسهن مغطاة، وهو إجراء شكلي لم يعد ضروريا في معظم الكنائس المسيحية. (الصورة رقم 19).

أثر آخر للتراتبية في الحياة اليومية الغربية كان هو أن يرفع الرجل قبعته 'قليلا عن جبهته ويضعها مرة أخرى' كإيماءة تقليدية للآداب العامة في مواقف معينة. وهناك قائمة لانهائية من المحظورات غطت جميع المواقف التي كانت مرغوبة فيها تلك الإيماءة. تعطي الفقرة التالية فكرة ما عن التعقيد الإتيكيتي المحيط برفع الرجل لقبعته:

> "يخلع الرجل المهذب قبعته ويبقيها في يده عندما تدخل سيدة المصعد وهو راكب فيه، لكنه يضعها مرة أخرى في الممر. الممر العام مثل الشارع، لكن المصعد يوحي بالحجرة، والرجل المهذب لا يظل مرتديا قبعته في حضور سيدات في بيت. تلك هي القاعدة في المصاعد داخل الفنادق والنوادي والعمائر. في المباني المكتبية والمتاجر يُعتبر المصعد مكانا عاما مثله مثل الممر. بالإضافة إلى ذلك، تكون المصاعد عادة في هذه الأبنية الخاصة بالعمل مزدحمة للغاية حتى أن الحيز الوحيد المتاح لقبعة الرجل يكون فوق رأسه. لكن حتى في هذه الظروف يستطيع الرجل أن يكشف عن احترامه الفطري للنساء بألا يسمح لنفسه بأن يدفعه الزحام إلى أن يقترب منهن

101- أنا مدينة بهذه المعلومة لأستاذ الأشوريات في جامعة لايدن Theo Krispijn

أكثر من اللازم... يقف كل مواطن أمريكي وقد خلع قبعته عند مرور الرايات وعندما يُعزف النشيد الوطني. وإذا لم يفعل، فإن مواطنا آخر أكثر ولاءً سيخلعها له. يقف كذلك كل رجل خالعا قبعته في حضرة أي جنازة تمر بالقرب منه أو تعترض طريقه.»[102]

تتنافس هذه القواعد الأمريكية التفصيلية الخاصة بالرجال وقبعاتهم مع قواعد لا تقل عنها صرامة تخص النساء اللاتي – بدلا من كشف رؤوسهن في المجال العام – كان يجب عليهن أن يبقين قبعاتهن على رؤوسهن في معظم المواقف. لم يُسمَع عن امرأة تخلع قبعتها أو حتى ترفعها قليلا لكي تحيي أو تقابل شخصا ما:

"السيدات اللاتي يتناولن الغداء أو العشاء في مطعم، سواء وحدهن أو في صحبة، يبقين قبعاتهن على رؤوسهن ويأخذن قفازاتهن معهن (يفعلن ذلك أيضا في الإفطار، إلا إذا كن مقيمات في الفندق لوقت أطول ولا يخرجن بعد الإفطار). مع طقم ملابس للمشي أو زي رياضي يبقين قبعاتهن على رؤوسهن، لكن عند ارتدائهن فستان أمسية أنيق، لا يحتفظن بقبعاتهن إلا عندما يكون غطاء الرأس متماشيا مع المناسبة.»[103]

ظهرت القبعة – كما نعرف الآن – في وقت متأخر نسبيا من التاريخ البشري، ولم يكن الأسلاف الأوروبيون يرتدونها، ولم يولوا اهتماما لنفس المحظورات التي تعلم المواطنون الذكور في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن يحرصوا عليها:

"كان لدى الرعاة الإغريق قبعة كبيرة مفلطحة لتحميهم من الشمس، لكنها كانت مظلة في الحقيقة، وعندما لم يكونوا بحاجة إليها كانوا يرتدونها على أكتافهم. لم يكن لدى الرومان القدماء أي قبعات على الإطلاق؛ وكانوا يغطون رؤوسهم أحيانا ببساطة بثنية الرداء. فكرة أنه ينبغي على الرجال أن يرتدوا قبعات كلما خرجوا من بيوتهم هي فكرة حديثة إلى حد كبير؛

102- Emily Post, ibid.: https://www.gutenberg.org/files/1431414314-/h/14314-h.htm.

103- Amy Groskamp ten Have 146 -147. Hoe hoort het eigenlijk?. H.J.W. Becht, Amsterdam 1940 (4th edition).

في العصور الوسطى كانوا يرتدون قلنسوات؛ وفكرة أن ترتدي النساء
قبعات في مجملها هي فكرة أكثر حداثة.»[104]

هل كانت القبعة رمزا للذكورة الفحلة؟ وفقا **لفرويد** كان ارتداء القبعة (أي قبعة) إشارة قضيبية. في أوروبا – كما يلاحظ **جيمس ليفر** James Laver – كانت القبعات العالية للرجال رمزا للسيطرة الذكورية الشديدة. كانت القبعة العالية – التي سُميت كذلك بالقبعة الحريرية أو القبعة الاسطوانية – قبعة طويلة عريضة الحواف ارتداها الرجال بدءا من أواخر القرن الثامن عشر حتى حوالي منتصف القرن العشرين. كيف أمكن لغطاء الرأس المهيب ذاك أن يسقط خارج الموضة؟

"في القرن التاسع عشر من الممكن رسم صعود وهبوط منحنى التحرر الأنثوي من خلال تتبع ارتفاع قبعات الرجال. كانت الهيمنة الذكورية المطلقة – لنقل – سنة 1850 مصحوبة طبعا بقبعات مفرطة الطول. مع مجيء فكرة (المرأة الجديدة) في ثمانينات القرن التاسع عشر، تبنى رجال كثيرون قبعة الطاقية boater التي قد يُعتقد أنها قبعة عالية تم بترها بشدة. ونحو نهاية القرن بدأ الرجال يرتدون الرمز نفسه – إذا جاز التعبير – لسلطتهم المتهاوية: قبعة التريلبي trilby (قبعة رخوة ذات حواف ضيقة وقبة مائلة – المترجم). كانت هذه القبعة تعني أن الرجال قد بدأوا في التوقف عن النضال من أجل الهيمنة وفي الاعتراف بحق النساء في أن يكن أحرارا. وليست مصادفة بالتأكيد أن يكون شكل قبعة التريلبي هو الرمز عينه للأنوثة. إذا تمكن خبير يوجا هندي ذو قدرة على الارتفاع في الهواء من أن يطفو فوق تجمع من الرجال يرتدون قبعات التريلبي، فقد يستنتج أنهم يمثلون يوني Yoni في وضع الاعتلاء (يوني معناها حرفيا الرحم أو المهبل، وهو رمز للإلهة شاكتي أو ديفي في الهندوسية)؛ وعندما وصلنا في عصرنا إلى عهد الرفقة التامة، يكف كلا الجنسين عن ارتداء القبعات تماما، أو على الأقل يميلون إلى فعل ذلك.»[105]

104- James Laver, p. 121.

105- انظر كتابه الممتع لكن المهمل بعض الشيء: الاحتشام في الملبس Modesty in Dress 1969: 121- 22..

من وجهة نظر عالمية، فإن التحدث عن الرفقة والصداقة الحميمة بين الجنسين – للأسف – أمر سابق لأوانه بعض الشيء. "يمضي الاحتشام المتكلف وسيبقى الحب" هكذا قال **فولتير** بتفاؤل، لكن هذا كان قبل القرن التاسع عشر الفيكتوري. وفي ضوء جميع قواعد رفع القبعات التي سبق ذكرها بالنسبة للرجال عند التقائهم بالنساء، يمكن أن نستنتج باطمئنان أن العلاقات المعقدة بين الاحترام والتراتبية كانت مازالت بعيدة عن التفكيك.

منذ ستينيات القرن العشرين، والمناقشة الغربية حول العفة والعذرية قد توارت بشكل أو بآخر في الخلفية، وذلك بفضل اختراع تنظيم النسل الموثوق فيه. لكن فكرة العذرية بدأت حياة جديدة، مثلا في (حركة الطهارة) في أمريكا: تذهب الفتيات مرتديات ثياب سهرة جميلة إلى حفلات العفة ويُقسمن بطريقة رسمية على أن يبقين عذراوات حتى يوم زفافهن. يضع الأب أو الأم خاتما في إصبع الابنة محفورة عليه جملة 'الحب الحقيقي ينتظر'. وأحيانا تعلن البنات عن قَسَم عفتهن على تيشيرت يحمل تلك الرسالة: 'ممنوع التعدي على هذه المنطقة.. أبي يراقب.'

وتُولي وسائل الإعلام الجديدة كذلك اهتماما بالملبس السابغ العفيف: شخصيات شهيرة من عالم الموضة يتم تصويرها هي نفسها في أكمام طويلة، وتنورات حتى الكاحلين، وبلوزات مغلقة الأزرار إلى الرقبة. كرد فعل لشعارات مثل dress less to impress الذي ناقشناه من قبل، هناك الآن مواقع للموضات المحتشمة على الإنترنت، تستلهم جزئيا المبادئ الأرثوذكسية لليهودية أو المسيحية أو الإسلام. لكن الكثير من النساء اللادينيات لسن أقل ضجرا من دور مقصد الشهوة الذي يحاول المعلنون أن يفرضوه عليهن.

"حمرة خجل دائمة"

لابد أن يجد كل جيل تسوية خاصة به ما بين الفضائحية والعفة. وكما يجادل علماء النفس: احمرار الوجه عَرَض من أعراض الخجل، لكنه بالقطع يلفت الانتباه لصاحبه. بهذا المعنى تشبه الملابس حمرة الخجل: لقد أصبحت الملابس 'حمرة خجل دائمة على

وجه الإنسانية"[106]

حُمّلت تغطية الجسد عبء ضمان العفة المستحيل، أو على الأقل قُصد بها أن تقاوم الميول الفاسقة. في تاريخ الأزياء الأوروبي كان حراس النظام الأخلاقي دائما ما يدينون الملابس التي تُعتبر مثيرة للشهوات. وكانت السلطات الكنسية ضد الملابس الباذخة. ليس فقط بالنسبة للنساء، بل كانت الموضة الرجالية مشيطنة كذلك: جراب خصية منتفخ أو أحذية بأطراف منتصبة كالقضيب.[107]

أجزاء الجسد غير المغطاة تثير الخجل والارتباك والاحتجاج بمجرد أن يغدو الناس غير معتادين عليها. في أوروبا بلغ الخجل ذروته في القرن التاسع عشر عندما حاولت البورجوازية حرفيا أن تربط الشهوة في مشد خصر خانق. في ذلك الوقت لم يكن أمرا غير معتاد بالنسبة للنساء أن يضغطن أجسادهن المسكينة نهارا وليلا من الأثداء إلى الأرداف في مشد خصر مُقيِّد، بحيث بقيت معظم الأجزاء غير ظاهرة بينما ظلت السيقان كذلك خارج مجال الرؤية بفضل طبقات متعددة من التنورات. وكانت هناك سيدات يتفاخرن بحقيقة أن أزواجهن لم يرونهن أبدا عاريات.

يصف **تشارلز كارينجتون** Charles Carrington كيف كان الرجال والنساء من جميع الأعمار في انجلترا على زمنه يتم إبقاؤهم جاهلين قدر الإمكان فيما يتعلق بكل شيء له علاقة بالجنس. كان الجسد يتحرك ويسعى مخفيا تماما ولم تكن أسماء معظم أجزاء الجسد تُذكر على الملأ:

> "دعونا نرى ما آلت إليه المرأة الإنجليزية الحديثة وأختها الأنجلو-أمريكية تحت مظلة عمل شكل من الاحتشام الزائف... وكيف يُبطل الاحترام الزائد ما صنعته الطبيعة. تلك المرأة لديها أقدام لكن ليس لديها 'أصابع أقدام'، لديها كاحلان لكن ليس لديها 'سمانتان'، لديها ركبتان لكن ليس لديها 'فخذان'، لديها معدة لكن ليس لديها 'بطن' ولا 'أمعاء'، لديها قلب لكن ليس لديها 'مثانة' ولا 'حقو'، لديها كبد وليس لديها 'كليتان'،

106- Flügel 20ff and Laver 8ff.

107- لمزيد من التفاصيل انظر كتاب فلوجيل الرائع (سيكولوجية الملابس) The Psychology of Clothes (1930)

لديها وركان وليس لديها "ردفان"، لديها جذع وليس لديها 'ظهر' ولا 'مؤخرة': في الواقع هي مسخ، شكل صالح فقط لإخافة الغربان."[١٠٨]

كان هذا هو الزمن الذي راجت فيه الكلمة الفرنسية القديمة pudeur (الاحتشام) في أوروبا. لدى الفرنسيين كلمتان تعنيان الحياء: pudeur التي تشير إلى 'الحشمة' و'التواضع'، بينما تحمل كلمة honte ثقل 'العار'. يمنع الاحتشام الخزي، إنه ذلك الارتباك الذي يشعر به المرء عندما تواجهه مسائل جنسية. في سياق أوسع يعني الارتباك في مواجهة 'كل ما يبدو أن كرامة المرء تُحرِّمه'. يبذل الناس قصارى جهدهم ليخفوا نقاط ضعفهم، ونحن نحاول أن نخبئ انجذابنا العميق نحو شخص ما: فيتم 'تحييد' الانتصاب عن طريق البنطلونات، واحمرار الوجه عن طريق المروحة. لا يريد أحد أن يبدو مثيرا للسخرية.

لذلك لدينا من ناحية إظهار الذات باعتزاز تام – عارية أو مرتدية أكثر الملابس روعة وأفخر المجوهرات – وعلى الناحية الأخرى إخفاء الذات تماما لمنع خطر الخزي أو الرفض أو مشاعر الذنب؛ أو مدفوعة بالخوف من إثارة رغبات الآخرين أو ارتباكهم أو سخريتهم.[109]

تحث أصوات داخلية الناس على الاحتشام وتحظر الأناقة الفاخرة المفرطة، ماعدا في مناسبات خاصة مثل الكرنفالات أو الأحداث الرياضية العالمية. تغدو هذه الأصوات الداخلية قاهرة للغاية حتى أن الكثير من الناس يشعرون بالرغبة في تغطية أجسادهم كلها بملابس غير جذابة أو غير ملفتة.

كما رأينا سابقا، فإن الناس الذين عاشوا في مجتمعات كان يسير فيها الجميع عراة رأوا الملابس في البداية ثقيلة تماما. لكن الاعتياد على ارتداء الملابس كما هو حالنا الآن، جعلنا نولي اهتماما حاسما للمظهر العام لبعضنا البعض، ونفضل أن يلتزم الآخرون بقواعد'نا' ويحترموا محظوراتنا.

108- Foreword to Jacolliot o.c. p. xxix.

109- (Laver 11; Bologne 10ff: his Histoire de la pudeur (1986، يحوي معلومات تفصيلية عن تاريخ الاحتشام

عندما افتُتح (متحف ألبرت وفيكتوريا) بلندن في حفل بهيج منتصف القرن التاسع عشر، رأت الملكة **فيكتوريا** نسخة طبق الأصل من تمثال (داوود) **لمايكل أنجلو** للمرة الأولى وأحست بصدمة عميقة من تلك المواجهة غير المتوقعة مع العري الذكوري. أمر مديرو المتحف على الفور بوضع ورقة تين على الأجزاء المكشوفة من الشاب الجميل لمنع مثل ذلك الموقف المحرج من أن يحدث مرة أخرى أبدا عندما يقوم أحد أعضاء الأسرة الملكية بزيارة المتحف – وهو البروتوكول الذي تمت المحافظة عليه حتى خمسينات القرن العشرين. في أجزاء أخرى من أوروبا أدى الإحساس المتزايد بالاحتشام pudeur إلى أن تُزوَّد تماثيل أكثر من العصور الكلاسيكية بأوراق تين خضراء مطلية بالمعدن. منذ ذلك الوقت، تضاءلت بشكل مذهل القيود على مسائل كانت تُعتبر فيما سبق صادمة في العالم الغربي. يرى الناس الآن عريا أكثر مما كان يمكن أن يتخيله العصر الفيكتوري على الإطلاق. وتعمل صناعتا الإعلانات والبورنو باستمرار على بلوغ الأمر أقصى حدوده.

في كل مكان في العالم تربض الرقابة قاب قوسين أو أدنى. في 9 يوليو 2012، تم الاحتفال بعيد الميلاد المائة لمتحف الصين الوطني في بكين بمعرض لأعمال فنية إيطالية شهيرة من عصر النهضة. في ذلك اليوم وضعت نشرة أخبار التليفزيون الصيني علامات (بكسلة) ضبابية على الأعضاء التناسلية لتمثال (داوود) ذاته الذي كان قد أزعج الملكة **فيكتوريا** قبلها بأكثر من قرن ونصف. على الفور أطلق مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي الصينيون المنتبهون عاصفة من الاحتجاجات الساخطة. ودافع منتج البرنامج التليفزيوني عن نفسه هكذا: «كان المحتوى سيؤثر على المعروضات الأخرى، أو سيؤذي الآداب العامة، أو سيكون له تأثير سلبي فادح على الجماهير.» لكن المواجهة مع التعليقات المدمرة من جماهير المشاهدين جعلت المنتجين يغيرون رأيهم وبعد أربع ساعات – في الإذاعة التالية لنفس النشرة الإخبارية – لم تعد أعضاء (داوود) التناسلية مُبكسلة.[110]

يمكن العثور على أمثلة أخرى كذلك في المتاحف الغربية المعاصرة. في عام 2014 كنت

110- Cf. http://www.chinasmack.com/2012/videos/cctv-news-censors-michelangelo-david-then-uncensors.html.

أشاهد مرة أخرى لوحة **جوستاف كوربيه** Gustave Courbet الشهيرة أصل العالم (1866 L'Origine du monde) في متحف أورسيه بباريس، وهي عمل فني يواجه الجمهور مباشرة بفرج بين ساقين مفتوحتين. كانت لوحة **كوربيه** الواقعية في القرن التاسع عشر صادمة للغاية في أعين البورجوازية الغربية. ورغم أنه في تلك الأيام كانت هناك لوحات كثيرة تصور العراة، إلا أن الأجساد العارية كانت مقبولة فقط عندما **تُؤطَّر** بطريقة آمنة داخل تمثيلات ميثولوجية أو دينية، ودون أن يسبب ذلك العري الإطاري المألوف خدشا للحياء. كانت هناك مجموعة كبيرة من الفتيان الصينيين واقفين يكتمون ضحكاتهم أمام (أصل العالم). سألت صبيين منهما عمَّا إذا كانت اللوحة قد أعجبتهما. قال أحدهما: «شيء مميز أن تري عن قرب من أين تبدأ الحياة.» واعترف الآخر بأنها كانت المرة الأولى التي يرى فيها 'فرجا حقيقيا' وأن هذا كان 'صادما بعض الشيء'. لا، لم توجد مثل هذه اللوحة في الصين – هكذا يعتقدا – لكن من الواضح أن الناس هنا في أوروبا كانوا معتادين بالفعل على كل شيء قد يبلغ الشطط بالفن أن يصله.

في جزء مختلف من نفس المتحف كان هناك معرض خاص عن العري الذكوري بعنوان (ذكر / ذكر Masculin/Masculin). جزء من العرض كان معادلا ذكوريا للوحة كوربيه، تم إبداعها بعد حوالي 125 عاما على يد الفنانة **أورلان** Orlan بنفس الأبعاد وُوضعت في إطار يشبه تماما إطار (أصل العالم). يتكون الشكل المرسوم كذلك من أعضاء تناسلية وبطن وفخذين، لكن في تلك الحالة يبرز ما بين الساقين جراب فيه خصيتان فوق العِجان، وقضيب متمدد فوق بطن رجل وحشفته المكشوفة تشير إلى السرة. وفقا للفنانة في مقابلة شخصية كان ذلك 'قضيبا عاديا'، وبالقطع لم تكن المسألة متعلقة بالبورنو، كما أشار البعض باستياء. كان القصد من اسم اللوحة – أصل الحرب **L'Origine de la guerre** – وموضوعها ان تكون بمثابة رد على لوحة **كوربيه**: في الحقيقة اللوحتان تشرعان في بدء نوع من الحوار. بعيدا عن هذا العمل كانت وجهة النظر الأنثوية في العري الذكوري واضحة بغيابها في المعرض. وفقا للكتالوج المصاحب للمعرض كان لابد من رفع

العري الذكوري – آخر التابوهات – هنا والآن.[111]

في عام 2012، نظم متحف ليوبولد في فيينا معرضا مشابها. وفقا **لتوبياس ناتر** Tobias Natter مدير المتحف مازال أمرا غير معتاد للغاية بالنسبة لمعرض أن يلقي الضوء على العري الذكوري، لأنه يظل يُعتبر واحدا من التابوهات. بعد تلقيه عددا كبيرا من الشكاوى من مواطني فيينا المصدومين، شعر المتحف أنه مجبر على أن يغطي بشريط أحمر الأعضاء التناسلية لثلاثة لاعبي كرة عراة على ملصق المعرض، تمثل عملا للفنانين الفرنسيين **بيير** Pierre **وجيل** Gilles بعنوان: 'تحيا فرنسا Vive la France. وكان المعرض الذي أقيم في باريس حول نفس الموضوع قد تجنب على نطاق واسع استخدام نفس الصورة على ملصقاته.

لم يمحُ المعرضان هذا التابو الأقدم، لكنهما أظهرا بشكل أساسي شيئا واحدا: في العالم الغربي يبدو أن الصور العامة للعري الأنثوي لم تعد تصدم أغلبية الناس. أن الرجال العراة يتم استغلالهم بقدر أقل بكثير كموضوعات مرغوبة في الإعلانات والتليفزيون، وأن المجال العام نادرا ما يُواجَه برجل قليل الثياب (ناهيك عن أن يكون عاريا تماما) على لوحة إعلانات. أما السؤال الخاص بإذا كان أو يكون العري الذكوري هو آخر التابوهات، فإنه لابد من تحديده بوضوح أكبر. كما أن التابو العتيق الخاص بوجهة النظر الأنثوية النقدية حول العري الذكوري مازال قائما.

تحمل النظرة غير المرغوبة خطر إفساد اعتبار وهيبة الشخص العاري، لأنها تختزل الجسد العاري في شيء لا حول له ولا قوة، خاصة عندما يشعر أنه خارج السيطرة. تؤكد المقولات التقليدية ذلك الخوف من الإطاحة بالتراتبية: «الرجل الذي يرى فرجا في الصباح، لابد أن يذهب بسرعة إلى السوق.» (مثل عربي من الجزائر). كان يُعتقد أن مثل هذه الفرصة الاستثنائية تجلب الحظ الطيب للرجل. في نفس هذا النسق من التفكير كان يُعتقد أن العكس – أي النظرة الأنثوية غير المرغوبة لقضيب الرجل – تجلب سوء الحظ، على طريقة عين

111- أرسل لي إرنست فان الفن Ernst van Alphen بعض الملاحظات الشخصية الشيقة عن معرض Masculin/Masculin: "من النصوص الموجودة في الكتالوج من الواضح أن القيمين / المؤلفين رجال مثليون ينظرون إلى العري الذكوري حصريا من وجهة النظر تلك. كانت أعمال فنانتين في المعرض ساخرة إلى حد ما وكافأ الكتالوج هذا المنظور بإشارات مردرية." بالنسبة للفنانات الإناث مثل الجنوب أفريقيتين مارلين دوماس Marlene Dumas وإينا فان زيل Ina van Zyl انظر مقال إرنست فان الفن الرائع «كيف ترسم الحياء» How to paint shame (2010).

الحسود. بل إن هذه النظرة غير المرغوبة كان يمكن أن ينتج عنها العجز الجنسي. تشير مثل هذه الرسائل إلى أن المرأة تجلب للرجل الحظ الطيب طالما هو يقرر أي أجزاء الجسد الذكوري أو الأنثوي يجب أن يظهر وأيها يبقى مخفيا. هذا كله إنساني جدا. بثياب أو بدونها، على البر أو في الماء، لا أحد يحب أن يؤخذ على حين غرة.

5

الاستحمام والسباحة

هناك الكثير من الحيوانات التي نادرا ما تستحم، والاستحمام في الحقيقة ليس أمرا لا غنى عنه بالنسبة لصحتنا، لكن الناس قد أحبوا دائما الاستحمام والسباحة لمجرد المتعة. في القرن التاسع عشر كتب الرحالة **جاكوليو** عن متعة الاستحمام لدى أبناء شعب ماوري التاهيتي الذين كانوا 'فائقي النظافة، ولعلهم يعطون درسا في هذا الجانب للكثير من الأوروبيين المتحضرين'، ووصف كيف كان الأزواج في الغسق يستحمون بمرح في البرك والغُدران العديدة في الوديان. ويقتبس وصف **بيير لوتي** Pierre Loti للحسان وهن يستمتعن بشلالات 'الماء الجاري ذي البرودة المبهجة':

> "هنا، يوجد تجمع كبير طوال اليوم؛ على العشب ترقد بعض من أجمل فتيات (بابيتي)، اللاتي يقضين الأيام الاستوائية الحارة في الحديث أو الغناء أو النوم أو السباحة والغطس مثل سمكات ذهبية. يدخلن الماء لابسات أرديتهن القطنية القصيرة، والتي سيظللن مرتديات لها بينها هن نائهات بعد الاستحمام، مبتلة كما هي."[112]

لقد أصبح الاستحمام عادة إنسانية. نحن نسبح ونستحم، وحدنا أو في صحبة الآخرين، متغطين أو عراة وفقا للقواعد المحلية، المتقلبة كالطقس والمتغيرة على مر القرون، المتحولة

112- George Ryley Scott 1939. Jacolliot 322-323. The quotation comes from Pierre Loti's autobiographical work Le mariage de Loti (1880).

حينا في اتجاه المزيد من التغطية، وحينا آخر في الاتجاه المعاكس.

التطهر الطقوسي

بدأ الناس في الاستحمام من أجل أسباب دينية منذ زمن طويل، مقتنعين أن الماء سيغسل عنهم ذنوبهم. بالنسبة لهؤلاء المؤمنين بقدسية أنهار مثل النيل أو نهر الأردن أو الفرات أو الجانج، يمنح الاستحمام فيها تجددا بدنيا أو روحيا. كان الغمر الطقوسي في الماء موجودا قبل زمن طويل من تبني المسيحية له في طقس التعميد:

> "جاء طقس غسل الجسد والأيدي من الشرق... لأنه كان مستخدما بشكل خاص على يد الأمم الشرقية: فكان المصريون يمارسونه في خدمة الربة إيزيس، والفرس في عبادة ميثرا، أو الشمس."[113]

تقع مدينة فاراناسي (بيناريس) الهندية في ولاية أوتار براديش – وهي واحدة من المدن السبع المقدسة للهندوسية – على انحناءة متجهة للشمال على نهر الجانج، وهو ما يُعتبر موقعا ميمونا للبشر كي يتطهروا من خطاياهم. يؤمن الهندوس أنه عند ذلك المكان المِعبر – حيث يهبط الآلهة والإلهات إلى الأرض – سيكون البشر قادرين على الوصول إلى المدارات الإلهية. لأكثر من 2500 عام كانت المدينة مركزا للحج والشعائر بالنسبة للبوذيين والهندوس والجاينيين Jains.[114]

بالنسبة لليهود والمسلمين كان الماء دائما ذا أهمية كبيرة كذلك. كان اليهود يغسلون أيديهم قبل كل وجبة، وكانوا يعتبرون نسيان ذلك خطيئة، خطيئة فادحة – كما يذهب البعض – تشبه القيام بزيارة عاهرة. ارتبطت القذارة – بطريقة أو بأخرى – بالموت والخطيئة، وكان يجب على المرء أن يتخلص من الاثنين عن طريق تنظيف الجسد. في

113- Bell 1790, quoted in George Ryley Scott 1939: 6.
لقد تم العثور على أطلال أقدم حمّام سابقا في القرن العشرين في وادي السند فيما يُعرف الآن بباكستان. وتقع هذه الأطلال في موهينجو دارو، وبُنيت من حوالي 2500 عام قبل عصرنا، ولها أبعاد حمّام سباحة في قرية معاصرة. وبجوار الحمّام كان يوجد بيت الكاهن.

114- http://www.bl.uk/onlinegallery/onlineex/apac/photocoll/b/019pho000752s15u00047000.html.

القصص الإسلامي يعود طقس الاغتسال قبل الصلاة إلى أكل الفاكهة المحرمة في الفردوس. من وقتها فصاعدا توجب على **آدم وحواء** وكل الناس بعدهما أن:

"يغسلا وجهيهما لأنهما رأيا بأعينهما الفاكهة المحرمة، وأكلا بفميهما منها، وبأنفيهما شماها. كان مطلوبا منهما أن يغسلا جبهتيهما لأنهما لمسا بهما فروع وأوراق شجرة الفاكهة. وكان مطلوبا منهما أن يغسلا أيديهما لأنهما قطفا بها الفاكهة. وكان مطلوبا منهما أن يغسلا أقدامهما لأنهما مشيا بها إلى الشجرة."[115]

المعمودية العارية

الشكل الأكثر اعتيادية للاغتسال الطقسي العام في الغرب هو طقس التعميد المسيحي. أخذت المسيحية من التقليد اليهودي كلا من النفور المفرط التعفف من العري، والالتزام بالتعميد العاري. عن **يوحنا المعمدان** – وهو نبي يعترف به اليهود والمسيحيون والمسلمون – يخبرنا الكتاب المقدس أنه عمَّد سكان أورشليم وضواحيها في نهر الأردن بعد أن اعترفوا بخطاياهم. كان أشهر من قام بتعميدهم **يسوع** المسيح الذي صوَّره فنانون كثيرون على مر القرون واقفا في مياه نهر الأردن. في بعض اللوحات يقف عاريا في الماء بينما يعتني ملاك بملابسه أثناء طقس التعميد، على سبيل المثال كما في لوحة من كتاب مقدس تاريخي بمدينة أوتريخت حوالي عام 1430. (الصورة رقم 20).

منذ العصور الوسطى أصبح تعميد الأطفال أكثر شيوعا، لكن في القرون الأولى من المسيحية كان البالغون هم من يتم تعميدهم أمام الناس بغمرهم في الماء أو سكبه أو رشه عليهم. كان التعميد في الأغلب الأعم طقسا عاما يخلع فيه الأشخاص الذين سيجرى تعميدهم ملابسهم ويقفون عراة حتى خصورهم في الماء. أثناء الطقس الاحتفالي الأهم – عادة مرة في السنة (في الكريسماس أو عيد الفصح) – كان موكب من الأشخاص يتقدم إلى مكان التعميد في الهواء الطلق أو في مكان المعمودية في الكنيسة. في العصور الوسطى كان تعميد **كلوفيس الأول** – ملك قبائل الإفرنج الذي تحول إلى المسيحية – عاريا عادة

115- Shujiang Li & Karl W. Luckert. Mythology and Folklore of the Hui, a Muslim Chinese People Albany: State University of New York Press, 1994: 79.

ما يتم تصويره مع جنوده المنتظرين في حلل أعياد ميلادهم دورهم ليتعمدوا بعده.

لماذا كان الجسد العاري مهما هكذا لطقس التعميد؟ أسباب عديدة تم تقديمها:

> "هناك لحظتا عري هامتان في التعميد: عري الخجل – كما في حالة آدم وحواء بعد السقوط – والعري بلا خجل. بتعميدك تكون 'عاريا ولست خجلانا'، بالضبط مثل أول الناس في الفردوس. خلع ملابس المرء يعني التجرد من 'الإنسان القديم وأفعاله'.
>
> كانت تلك طريقة لتقليد المسيح الذي مات عاريا على الصليب.
>
> عندما خلعتَ ملابسك، مت: وماء الاغتسال المُخلّص كان القبر الذي قمتَ منه ووُلدتَ من جديد."[116]

بعد انتهاء الطقس كان الشخص المعمَّد يتلقى ثوبا من الكتان الأبيض الذي يؤكد بشكل رمزي على أن كلا من الروح والجسد قد حصلا على مالك جديد في عملية التعميد. وكان يُنظر للأشخاص الذين لم يتعمدوا على أنهم مِلك للشيطان، أنهم يحملون الشر معهم في أجسادهم، لكن هؤلاء الذين تم تعميدهم تخلوا عن اهتمامهم بالعالم وأصبحوا بوضوح مسيحيين جسدا وروحا – بكل ضعفهم وانكشافهم العاري.

كان هذا الطقس يغير كثيرا وجهة نظر المرء في الحياة اليومية، لكن الجسد العاري ظل جسد ذكر أو جسد أنثى، لذلك ونزولا على رغبة العفة كان الرجال والنساء يتعمدون على نحو منفصل. خلال طقس التعميد في بعض التقاليد كان القس يمسح المتضرع العاري من رأسه إلى أصابع قدمه بالزيت. قبل دخول الماء، كانت لابد أن تقوم الشمَّاسات بدهن النساء. كانت توجد شمَّاسات بالفعل في الكنائس السورية واليونانية، لكن ليس في مصر وفلسطين.

كان التعميد طقسا هاما وكان الأسقف هو من يقرر كيف ومن المسموح له بالتعميد. لعله كان من المنطقي أن يُسمح للنساء بتعميد النساء من أجل منع الإثارة غير المرغوبة،

116- يقدم Miles 1989 تفاصيل كثيرة

لكن النساء كن ممنوعات بصرامة من أن يكون لهن أي طموحات كهنوتية، لذلك وفي كل أنحاء الامبراطورية الرومانية كان يجب على القساوسة الذكور أن يعمدوا النساء والرجال كذلك.

توضح بعض القصص أن تلك لم تكن دائما مهمة سهلة. كتب الراهب البيزنطي **جون موسخوس** John Moschus في القرن السادس قصة الراهب **كونان** Conan الذي كان مسؤولا عن التعميد في دير بيثوكلا Pethucla الفلسطيني، وكان يشعر بالانزعاج عندما يضطر لتعميد النساء. وأكثر من مرة كان القديس **يوحنا المعمدان** يأتي لإنقاذه ودعمه أخلاقيا في ذلك المسعى المحفوف بالمخاطر. وذات يوم – طبقا للقصة – وجد **كونان** أمامه حسناء فاتنة تريد أن تتعمد: وكان عليه الآن أن يدعك جسدها بالزيت، لأنه لم تكن هناك في المنطقة أي شمَّاسات بعد.

لم يستطع الراهب أن يقوم بواجبه وهرب من الدير يائسا، لكن خلال هروبه تلقى رؤية من **يوحنا المعمدان** الذي أمره بالرجوع. ظل الرجل المسكين رافضا حتى خلع **يوحنا المعمدان** عن الراهب ملابسه وأشار بعلامة الصليب فوق أعضائه التناسلية ثلاث مرات. بعد يومين عاد الراهب إلى الدير حيث كانت الفتاة الجميلة المصممة مازالت تنتظره من أجل تعميدها. وكان قادرا الآن على تعميدها 'دون حتى أن يعي كونها امرأة'. وهكذا استمر في رسالته التعميدية لمدة اثنتي عشر عاما 'دون أن يشعر بأي حركة في البدن، ودون أن يلاحظ جنس هؤلاء الذين عمَّدهم'.[117]

في حالته تلك تم حل مشكلته، لكن ماذا عن كل القساوسة الآخرين الذكور الذين كانوا مجبرين على تعميد الإناث المتحولات إلى المسيحية عبر أنحاء الامبراطورية الرومانية؟ كيف يمكن منع الأفكار الآثمة أو انتصاب محرج؟ (يبدو أن رؤية رجل جميل قد يزرع الارتباك كذلك في عقول القساوسة لم تكن تستحق الانتباه).

بالرغم من أن المسيحية علَّقت أهمية كبيرة على العري الظاهر للعيان خلال طقس التعميد، إلا أن تعرض المتقدمين العراة لعيون القس والمحفل تم إلغاؤه بعد القرون الأولى. كان 'العري بلا خجل' مفهوما باهرا، لكن الخبرة علَّمت أن تعميد الأشخاص الجذابين

117- Miles 46; Bologne 26ff

العراة كان ممارسة غير إنسانية تقريبا بالنسبة للقساوسة العُزّاب. كانت العفة والعري يتصادمان خلال لقاء القس المكسوّ بالمهتدين العراة.

أصبح رش المياه هو التقليد الأكثر انتشارا في الكنائس الغربية. مازالت هناك بعض الطوائف المستمرة في تعميد المؤمنين بالغمس في بحر أو نهر، لكن المتقدمين للتعميد يرتدون باحتشام رداء تعميد طويلا أبيض مسبقا. يحدث هذا – مثلا – في نهر الأردن في عيد الغطاس من كل عام في طقس يبقى في الذاكرة بشكل كبير حتى أن المتعمدين يختارون – في نهاية حياتهم – أن يُدفنوا في ردائهم الأبيض.

الحمَّامات العامة

اكتشفت أغلب الشعوب منذ زمن طويل إلى أي حد يكون الماء الدافئ مفيدا للجسد، بالرغم من أنه مازال هناك ملايين من الناس الذين لم يأخذوا أبدا حماما ساخنا أو نادرا جدا ما يفعلون هذا لأن تسخين الماء مكلف. في الصين ومن عام 1100 قبل الميلاد وُجد طقس اغتسال ديني للكهنة البوذيين والطاويين له قواعد صارمة كان يحترمها حتى الأباطرة الذين بنوا حمَّامات ضخمة لاستخدامهم الشخصي. وبينما كانت توجد في عهد أسرة **سونج** (916 – 1271) حمَّامات عامة حيث كان يمكن للناس أن يحصلوا على أجساد مجلوة على أيدي طاقم العاملين بالحمَّامات، فإن اليوم – بتقدير تقريبي – ومن 800 مليون صيني يعيشون في المناطق الريفية فإن 200 مليون فقط يأخذون حمَّاما مرَّة في الشهر.[118] وكانت العلاجات الطبية الصينية القديمة التي تخلط زهور الأقحوان والفلفل والزنجبيل ونباتات أخرى في ماء الاستحمام ذات نفع صحي للأجساد العارية. وبعد الاستحمام كان يمكن للمرء أن يسترخي أو يحصل على تدليك، ودائما في أماكن منفصلة للجنسين، حيث لم يكن مقصودا من الحمَّامات الصينية أن تكون مستخدمة على المشاع من الرجال والنساء.

في اليابان كان الأمر مختلفا. لدى هذا البلد عدد وافر من ينابيع الماء الساخن الطبيعية

118- http://www.ehow.com/info_8576905_chinese-bathing-habits.html.

في جزرها الكثيرة، وربما يكون هذا هو السبب في أن اليابانيين كانوا مستحمين جماعيين شغوفين بشكل تقليدي:

> "من بين كل أجناس البشر لعل اليابانيين هم الأكثر حساسية وعناية بنظافتهم الجسدية. الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء على السواء، جميعهم يأخذون حمّاما ساخنا يوميا. حتى وقت قريب إلى حد كبير كانت الشوارع ممتلئة بصفوف – وفي القرى البعيدة مازالت مليئة بتلك الصفوف – من الأحواض المستطيلة التي يأخذ فيها كلا الجنسين حمّاماتهم على الملأ سويا، جاعلين منها مناسبة لتبادل الثرثرة المسائية.»[119]

في أوقات أسبق كانت توجد حمّامات منفصلة كذلك، كما توضح مطبوعات أقدم. (الصورة رقم 21).

كان الحمّام الياباني في العادة له أصل ديني، إذ يؤمن الشنتويون أن خالقهم الأصلي وُلد في البحر. الاستحمام ليس شأنا مركزيا في الشنتوية فقط، بل كذلك في البوذية؛ وهي الديانة التي تبنتها اليابان منذ القرن السادس. في أديرة (الزن) كان الحمّام ذا أهمية كبيرة، ليس فقط لتطهير الجسد، بل كذلك كمكان للتأمل وللوصول للتنوير والإشراق. كان لدى كل معبد بوذي حمّام للرهبان. وحتى ظهور الحمّامات العامة كانت المعابد أيضا تفتح حمّاماتها للعامة من الناس.

في بعض الحمّامات الدينية كان فاعلو الخير يمارسون الرفاه الاجتماعي: بقدر ما كان آخرون يقدمون الإحسان بتوفير الطعام أو الصدقات للفقراء والمرضى، كان الرعاة الأثرياء يعتنون بتمويل ماء الاستحمام الساخن والمآزر للمستحمين. لكي تصل إلى التنوير والإشراق هي نفسها، نذرت الإمبراطورة **كوميو** Kōmyō (701 – 760) رسميا أن تغسل بيديها ألف شحاذ، وأوفت بنذرها في حمّام (هوكيجي). ويظل اسمها مضرب الأمثال للكثيرين. بالطبع كان لدى الأثرياء حمّامات خاصة، لكن منذ القرن السابع عشر افتُتح المزيد والمزيد من الحمّامات بأجر، ومعظمها مفتوحة للجنسين. في تلك الحمّامات كان الناس يستحمون عراة و'لعله لم تخطر على بال أحد أبدا فكرة أن يضع لباسا

119- Hammerton 1931: 534.

للاستحمام.»[120]

هناك عمل موسوعي من القرن التاسع عشر عن اليابان قام به متخصص غربي في اليابانيات، يقدم انطباع الزائرين لنبع ماء ساخن طبيعي اسمه كاواناكا: «يظل المستحمون تحت الماء لمدة شهر كامل بلا توقف، وعلى حجورهم حجر ليمنعهم من الطفو في نومهم.» في نفس الوقت تقريبا خلال تسعينات القرن التاسع عشر يصف غربي آخر حمّامات قرية (يوموتا):

> "هنا يوجد ما يقرب من دستة من الرجال والنساء والبنات يستمتعون بالماء الساخن، بعضهم مغمورون حتى الرقبة، وبعضهم مستلقون على الحافة ويتبادلون الحديث، وكلهم في الزي الأصلي لآدم وحواء، وغير ملتفتين لحرج الموقف مثل الكثير من الأطفال الصغار.»[121]

طقس الطهارة هام كذلك في تراث (السومو) الياباني، المرتبط بشدة بالبلاط الامبراطوري: حيث الامبراطور نفسه هو رأس الديانة الشنتوية، ولم يشعر اليابانيون أبدا بالحرج من العري:

> "لم يكن فلاحو الإقطاعيات يلبسون شيئا أكثر من مئزر – ويبدو أن الوضع لم يتغير كثيرا عندما ننظر إلى زي مصارعي السومو الضئيل. وترتدي الفتيات تنورات أقصر كل عام. تأمر التقاليد وثقافة البوب أبناء الشعب الياباني أن يتخلصوا من أشياء أكثر بكثير من أحذيتهم. المزيد من الجلد المكشوف، بلا ملابس، وقد أصبح العري عاديا بل ومحتفى به في المجتمع بأكمله... هناك سبب آخر لاعتياد اليابانيين على أن يكونوا عراة؛ ألا وهو حب اليابان للاستحمام. من العادي بالنسبة للأطفال أن يستحموا مع والديهم في البيت. علاوة على ذلك، يتعرى الجميع عند (الأونسن) onsen أو نبع الماء الساخن. بالرغم من أن معظم كتب الإتيكيت توصي

120- انظر مقال لي بتلرز **Lee Butlers** عن الاستحمام في يابان أواخر العصور الوسطى. ويرجع الفضل في معرفة هذا المرجع لأستاذ اليابانيات بجامعة لايدن ويم بووت Wim Boot، وكذلك العبارة عن لباس الاستحمام

121- Basil Hall Chamberlain Things Japanese 1891: 55; Henry T. Finck, Lotus-Time in Japan, London, 1895. 240. See also Ryley Scott, chapter VII.

بمنشفة صغيرة لتغطية الضروريات، فإن أي شخص قد ذهب بالفعل إلى (أونسِن) يعرف أن هذا نادرا ما يحدث. يترك الرجال أعضاءهم متدلية وكأنها مسابقة، بينما تقدم النساء الأكبر سنا في نبعهن الساخن المنفصل والمتاخم للحشد الأصغر سنا رؤية واضحة لما يجب أن يتطلعوا إليه عندما يكبرون في السن. ويجري الاستحمام والمشي من حمّام إلى آخر بقليل من الخجل.»[122]

منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر انفتحت اليابان على العالم الخارجي وبدأ الكثير في التغير. بفضل التأثير البيوريتاني للأمريكان الذين وصموا الاستحمام المختلط للرجال والنساء بالعار، تم إلغاء هذا التقليد. معظم الحمّامات منفصلة، لكن لباس الاستحمام مازال غير مسموح به. والآن بما أن معظم اليابانيين لديهم حمّام في البيت، فقد تناقص عدد الحمّامات العامة، لكن بفضل العلاجات العشبية العصرية ومتع المنتجعات الأخرى، مازالت الحمّامات العامة – سواء مختلطة أو لا – لها شعبية، وليس في آسيا فقط.[123]

الاستحمام في أوروبا

تحكي الأساطير اليونانية عن ينابيع طبيعية وبرك تُنعم عليها الآلهة بقوى شافية. عند هذه الأماكن أنشأ اليونانيون مرافق للاستحمام. بعد أخذ حمّاماتهم كان المستحمون يتركون خلفهم قرابين للآلهة. ولأنه كان من عادة الرجال أن يسبحوا ويتريضوا عراة، فقد بنى اليونانيون حمّامات بجوار قاعة الألعاب الرياضية. في الألعاب الهيلينة في مدينة أوليمبيا كان الرجال يتسابقون عراة، لكن النساء والفتيات لم يكن مسموحا لهن بالدخول إلى هناك.

122- http://www.japantoday.com/category/opinions/view/why-japanese-people-are-comfortable-with-nakedness.

123- Cf. http://www.uchiyama.nl/ngbaden2nav.htm; http://www.ehow.com/info_8576905_chinese-bathinghabits. html#ixzz2ijHstRXs 'Very clean people, the Japanese', in The Economist 31 July 1997 and
http://en.wikipedia.org/wiki/Public_bathing. http://www.japantoday.com/category/opinions/view/why-japanese-peopleare- comfortable-with-nakedness.

سيرا على المثال اليوناني، بدأ الرومان في بناء حمَّامات عامة، والتي استمرت بدورها في الانتشار عبر البحر المتوسط. بنى الرومان حمَّامات حرارية في مستعمراتهم بشمال أوروبا كذلك، حيث كان المستحمون يتعرضون لدرجات حرارة أعلى قبل أن يترددوا في أحواض باردة ويسترخوا في حجرات الاستراحة. كانت الحمَّامات أماكن اجتماع حيث كان الناس يتعارفون ويستمتعون. وكان الكثير من الرومان يدعون أصدقاءهم هناك، والسياسيون يزورون الحمَّامات للتحدث مع الزوار الآخرين حول وجبة لذيذة، أو ليقنعوا مواطنيهم بأفكارهم النيرة، ويزيدوا من مجال تأثيرهم. كانت هناك صالات عرض ومكتبات وقراءات شعرية. سأل أجنبي امبراطورا رومانيا لماذا كان يذهب مرة واحدة يوميا للحمَّامات، وكانت الإجابة: «لأني لا أملك وقتا كي أذهب إلى هناك مرتين.»

كان الاستحمام المختلط مسموحا به تارة وممنوعا تارة أخرى في روما القديمة. وأول إشارة للاختلاط قدمها **بلينيوس الأكبر** في القرن الأول. وافق بعض الأباطرة الرومان على استحمام الرجال والنساء عراة في صحبة بعضهم البعض – وشاركوا هم أنفسهم بحماس. بينما حرَّمه آخرون باعتباره علامة على الانحلال مثل **ماركوس أوريليوس** Marcus Aurelius الذي حكم في الفترة من 161 إلى 180.[124]

لم يكن العري في الحياة العامة أمرا غير معتاد في الثقافة الرومانية. كان المصارعون يتقاتلون في الحلبات عراة في حضور جمهور كبير من الرومان، وكانت أعين الرومان معتادة كذلك على العري في فنون العصور الكلاسيكية القديمة. وصوَّر المسيحيون شخصيات الكتاب المقدس عراة على جدران المدافن كلما لاءم ذلك القصة: **آدم وحواء، يونس** والحوت، وهكذا. لكن المواطنين الرومان اكتسبوا معظم خبرتهم بالعري في حمَّاماتهم العامة والفخمة غالبا التي بناها الأباطرة الذين أحبوا أن يُظهروا كرمهم.

كان الرومان هم من أدخلوا ونشروا الاستحمام بين الغاليين والبريتونيين. قبل وصولهم لم يبدُ أن الإنجليز قد استحموا على الإطلاق.[125] تعود الثقافة الصحية في غرب أوروبا إلى الاستحمام في منطقة البحر المتوسط مع تأثيرات من تقاليد (الحمَّام) الشرق أوسطية. ما

124- Cf Ryley Scott Chapter II، بتفاصيل كثيرة استفدت ممتنة ببعضها هنا.

125- Scott, Introduction and http://www.gallowglass.org/jadwiga/herbs/baths.html.

رأيك – مثلا – في تدليك منعش مع حبات من البلح بينما أنت متمدد على حجر مسطح ضخم؟

في الحمَّامات التركية هناك أقسام مختلفة للرجال والنساء (أو أيام مختلفة). حتى في العالم الغربي حيث يتشارك الجنسان غالبا نفس المساحات العامة دون حرج كبير، ليس من غير الشائع أن يتم حجز يوم في الأسبوع للأشخاص الذين يفضلون ألا يتشاركوا المرافق الصحية مع الجنس الآخر.

أن يهتدي المرء إلى طريقه في ثقافة أخرى ليس بالأمر السهل، خاصة بالنسبة لشخص متدين يتساءل متحيرا إذا كان عليه أن يتبنى عادات جديدة. مازال هذا يمثل سؤالا كبيرا بالنسبة للمؤمنين في محيط علماني. في الامبراطورية الرومانية كانت زيارة الحمَّام الشعبي أحد الموضوعات الخلافية بالنسبة لليهود والمسيحيين الأوائل، ويزداد الخلاف عندما يتعلق الأمر بالاستحمام المختلط. كان رجال الدين ينصحون النساء المسيحيات بأن «يستحممن بنظام واحتشام واعتدال، متجنبات العادة البذيئة الخاصة بالاستحمام مع الرجال في نفس المكان. وكانت هناك نصيحة مسيحية مشابهة للرجال هي:

> "عندما تخرج سائرا وتريد أن تستحم، استخدم ذلك الحمَّام المخصص للرجال، خشية أن تكون بإظهارك لجسدك بطريقة غير لائقة أمام النساء، أو برؤيتك لمكان ليس لائقا للرجال، إما واقعا في شرك أو مُوقعا في شركك وجاذبا لنفسك هؤلاء النساء اللاتي يستسلمن بسهولة لمثل تلك الإغراءات.»[126]

لم تكن الكنيسة ضد الاستحمام في حد ذاته، رغم أن المجالس الكنسية كانت أحيانا ما تعترض على الاستحمام العام أو المختلط. بالنسبة للمرضى، كان الاستحمام المتكرر مسموحا به، لكن كان على الأصحاء أن يكونوا معتدلين في هذا الموضوع بقدر ما يتعلق الأمر بسلطة رجال الدين. فكان الرهبان الأصحاء يُنصحون بألا يستحموا كثيرا – 'خاصة الشباب'، وكان لابد بالتأكيد ألا يصبح الاستحمام ترفا مضيعا للوقت. كان **جريجوري الأكبر** Gregory the Great أول راهب يصبح بابا، يرى ثقافة الجسد الرومانية

126- Miles 26-28.

خاطئة وكان يشير باحتقار لينابيع الماء الساخن الفاخرة على أنها 'كاتدرائيات اللحم البشري'.[127]

عندما غدت الحمَّامات منفصلة، كان الخصيان أحيانا ما يعملون مساعدين في قسم النساء، وهو الأمر الذي كرهه الأساقفة: ففي كل الأحوال مازال هؤلاء الأشخاص رجالا بعقلية ذكورية، أليس كذلك؟ وحذر البعض من كون الحمَّامات ذات خطورة خاصة على العذراوات المسيحيات المكرَّسات. هذا ما توجب على **جيروم** Jerome – أحد آباء الكنيسة – أن يقوله:

> "أنا أرفض كلية موضوع الحمَّامات بالنسبة لعذراء في سن الرشد. مثل هذه الفتاة ينبغي أن تخجل وتشعر بالذل لفكرة رؤية نفسها عارية. بقيامها الليل وصيامها تميت شهوة جسدها وتضعه تحت السيطرة. بالعفة الباردة تسعى لإطفاء لهب الشهوة وإخماد رغبات الشباب الحارة. وبالقذارة المتعمدة تُعجّل بإفساد محاسنها غير الطبيعية. لماذا إذن ينبغي عليها أن تضع باستحمامها الوقود على النار النائمة ؟»[128]

هذا الناسك الشهير – الذي تم تقديسه بعد موته – لم يكن يُقدّر في الحقيقة الصحة البدنية. لقد اعتبرت المسيحية المبكرة ازدراء الجسد بالصوم والتخلي عن الاستحمام علامة على القداسة: احتقار الجسد والحياة المتقشفة ساعدا الرهبان والعذراوات على التحكم البطولي في الرغبات والعواطف.

منذ العصور الوسطى كانت الحمَّامات شائعة في كل أنحاء أوروبا الغربية. مقابل القليل من المال كان يمكن للمرء أن يأخذ حمَّاما دافئا، وهي رفاهية لمعظم الناس الذين كان لديهم فقط حوض لغسل الأيادي ولم يكن لديهم أي توصيلات ماء وسباكة في بيوتهم. بمجرد أن يدفأ ماء الحمَّام، كان منادي المدينة يجوب الشوارع ليجذب الزبائن. وكانت أحواض الاستحمام ذات بطانة من الكتان لتحمي المستحمين من الشظايا، حيث

127- Bologne 25; Shaw 16; .http://www.gallowglass.org/jadwiga/herbs/baths.html; http://www.vandercruys.be/badhistorie.

128- Quoted in Miles 29.

لم يكونوا يرتدون شيئا سوى غطاء رأس بسيط. كانت الحمَّامات غالبا مكانا للقاءات حيث تُصادف الباعة المتجولين أو البحارة الذين يحكون قصصا عن مغامراتهم في أجزاء أخرى من العالم.

وكانت السلطات الكنسية غالبا ما تميل إلى إدانة الحمَّامات كأماكن ذات أخلاق رخوة – رغم أن بعضها كانت له سمعة أفضل من الأخريات. وكان الرجال والنساء الذين يستحمون عراة في صحبة بعضهم البعض ينتهكون كل الأعراف الأخلاقية المحلية، ومن وجهة نظر رجال الدين المتزمتين؛ كان هؤلاء الذين يذهبونَ هناك سينتهي بهم الأمر حتما في الجحيم.

أصبحت مشاهد الحمَّامات موضوعا رائجا للرسامين الذين ربما كانوا أقل اهتماما بالاستحمام من اهتمامهم بالمستحمين العراة. تُظهر اللوحات صفوفا من الرجال والنساء يجلسون مستريحين في أحواض الاستحمام. يُقدَّم إليهم الطعام والشراب وتُوفَّر لهم التسلية الموسيقية، بينما في الخلفية فراش مُعدّ بشكل موح ومزود بملاءات نظيفة وبطانيات. (الصورتان رقم 22).

أينما أثار الاستحمام المختلط استياء السلطات، كان يتم الفصل بين الجنسين، بإجبار الرجال والنساء على الاستحمام في أيام مختلفة. وكانت تتم مصادرة ملابس المخالفين، بحيث يضطروا إلى العودة إلى بيوتهم عراة، وهو عقاب أسوأ من الغرامة.[129]

في القرن السادس عشر تم إغلاق معظم الحمَّامات الغربية. وكانت هناك أسباب عديدة لذلك: فقد أصبح الحطب غاليا أكثر من اللازم، وأصبحت الملابس الداخلية أكثر انتشارا وكان غسلها أسهل من غسل الجسد نفسه. علاوة على ذلك نشرت حملات النميمة الخبيثة إشاعة تقول أن الفتيات قد أصبحن حوامل على يد الرجال الذين كانوا يدلقون منيّهم في حوض الاستحمام. ومع ذلك، جاءت الضربة القاضية للحمَّامات من اندلاع الأوبئة البشعة: طاعون العصور الوسطى – المعروف بالموت الأسود – والزهري المرعب الذي انتشر في كل أنحاء أوروبا منذ القرن الخامس عشر. في عام 1526 سجل **إراسموس** Erasmusملاحظة تقول أنه منذ 25 عاما لم يكن هناك شيء أكثر عصرية من الحمَّامات

129- For more details cf. George Ryley Scott, The Story of Bath and Bathing.

العامة، لكن «اليوم لم يبق منها شيء، حيث علّمنا الطاعون الجديد أن نتجنبها.»(130)

بلباس السباحة أو بدونه

حتى العصور الوسطى كانت ملابس الاستحمام غير موجودة مثلها مثل البيجامات. في عصر النهضة الأوروبي بدأت المزيد والمزيد من القواعد في تقييد المساحة المتاحة للسباحة العارية. كانت سباحة الرجال كما ولدتهم أمهاتهم مازالت مقبولة في القرن السادس عشر، لكن النظر للنساء وهن يسبحن في نهر السين من فوق الجسور الباريسية أصبح قذى في أعين رجال الكنيسة. خلال القرن السابع عشر لم تعد السباحة في النهر مسموحا بها وأُدينت باعتبارها عريا همجيا nudisme sauvage. في فرنسا وبلاد أوروبية أخرى كان الإلزام بارتداء ثوب للسباحة قد تقرر أولا على النساء – وكان عبارة عن قميص طويل يصل إلى الكاحلين، من نفس نوع القميص الذي لابد أن **رامبرانت** قد فاجأ **هندريكه ستوفيلس** Hendrickje Stoffels وهي تستحم في النهر مرتدية إياه.(131)

عندما أصبح الناس أكثر وعيا بكون الاستحمام صحيا، غدت السباحة في الهواء الطلق شائعة، لكن نتج عنها المزيد من القيود. هناك مثال يعود تاريخه إلى عام 1687:

> "السيدات يدخلن المسبح بثياب مصنوعة من قماش الكتفاه الأصفر الفاخر، وهي خامة صلبة ويُجعل الثوب واسعا بأكمام كبيرة مثل ثوب النوم؛ يملأه الماء فينتفخ حتى لا يُرى شكلك، فهي خامة لا تلتصق مثل الأقمشة الأخرى، التي تبدو بائسة بأنواعها الأفقر التي تلتصق ببطانتها."

تكوَّن أول لباس سباحة للرجال من 'سراويل تحتية وصدريات من نفس نوع الكانفاه.' بعد قرن من الزمان كانت النساء مازلن يرتدين أثواب سباحة طويلة في الماء، مصنوعة من خامات لا تشفّ عندما تبتل. وكانت تُخاط أثقال في حاشية الثوب حتى لا

130- Bologne 37ev en http://www.sueddeutsche.de/gesundheit/geschichte-der-hygiene-von-der-deutungshoheit-ueber-diehautpore-1.14623742-.

131- Bologne 36.

'يرتفع في الماء'. فيما بعد كان الرجال يسبحون في ثياب صوفية، ملتصقة بالجسد إلى حد كبير، بأكمام طويلة وطماق فيما يشبه الملابس الداخلية. في عام 1737 طورت (شركة باث الإنجليزية English Bath Corporation) الحظر الرسمي التالي:

"ممنوع على أي أنثى في أي وقت من الآن فصاعدا أن تدخل مسبحا أو حمّامات داخل هذه المدينة نهارا أو ليلا دون قميص داخلي محتشم على جسدها... وقد تقرر وترسخ وأعلن كمرسوم صادر من هذه الشركة أنه ممنوع على أي ذكر يتجاوز سن العشر سنوات في أي وقت من الآن فصاعدا أن يدخل مسبحا أو حمّامات داخل هذه المدينة نهارا أوليلا دون زوج من السراويل التحتية وصديري على جسده."[132]

تلك هي الطريقة التي أُبطلت بها تدريجيا الممارسة الشائعة للسباحة بجسد عارٍ في المياه المفتوحة، ودخل لباس السباحة ليترسخ في المجتمع. تكوَّن في البداية من عدة أجزاء، تغطي مع بعضها الجسد تماما من الرقبة إلى الكاحلين. تطورت ثياب السباحة للسيدات من قمصان طويلة إلى أثواب كن يرتدين تحتها كلسونات طويلة وواسعة حتى الركبة مع جوارب سوداء وغطاء للرأس. (الصورة رقم 23).

حوالي عام 1750 ظهرت 'ماكينة الاستحمام': وهي عربة ذات أربع عجلات مسقوفة ولها حوائط كانت تسمح للناس باستبدال ملابسهم بلباس السباحة. كانت تُجر إلى البحر، حيث كان يمكن للناس أن يهبطوا بعض الدرجات ويخوضوا في الماء دون أن يراهم الآخرون. أصبحت تلك 'الماكينة' جزءا محل تقدير من إتيكيت الاستحمام في البحر يراعيه كلا الجنسين كجزء من السلوك السليم. حتى بالرغم من أن ثياب السباحة كانت مفرطة الاحتشام – على الأقل من وجهة نظر غربية معاصرة – إلا أنها لم تكن تُعتبر ملبسا لائقا يرغب المرء أن يراه به الآخرون، خاصة أفراد الجنس الآخر. بنهاية القرن التاسع عشر، حلت محل هذه العربات كبائن صغيرة على الشاطئ – كما لم تزل موجودة في أجزاء عديدة من العالم – بالرغم من أنه قد أصبح الآن من الطبيعي للغاية أن يتم

132- Quoted in 'That Frightful Unbecoming Dress', pp 48-9 of http://www.jasa.net.au/seaside/Bathing.htm. See also http://en.wikipedia.org/wiki/Bathing en http://en.wikipedia.org/wiki/Skinny_dipping.

استبدال الملابس بثياب السباحة على الشاطئ في وجود الآخرين.[133]

توضح مجموعة كبيرة من النصوص أن العائلات الملكية الأوروبية كانت تُرفّه عن ضيوفها غالبا بالسباحة معهم، في محاولة للمزايدة على بعضهم البعض عن طريق وسائل الترف المثيرة للإعجاب. يعود هذا التقليد إلى **شارلمان**؛ المشهور عنه استمتاعه بالاستحمام المبهج مع النبلاء والأصدقاء أو حتى مع حشد من الرعايا والحرس، حتى أنه كان مرات ينزل الماء مع أكثر من مائة شخص. وكان الملك **لويس الرابع عشر** يحب السباحة مع بلاطه في النهر ليستجم ويسترخي، وكان يفعل ذلك عاريا وبلا حرج، بينما كان رعاياه يشعرون بشرف عظيم للسماح لهم برؤية ملكهم عاريا تماما.[134]

كانت **إيزابيل دو شارير** (Isabelle de Charrière (1740 – 1805 المعروفة بـ **بيل فان زويلان** Belle van Zuylen كاتبة هولندية تنويرية اعتادت التعليق على المجتمع في عصرها. هناك إشارة في مراسلاتها لحفلة سباحة لسيدات نبيلات المنشأ:

> "على مبعدة حوالي عشر دقائق من القرية [النهر] في أجمل حالاته بمياهه البلورية الشفافة وأحجاره البيضاء في القاع. تحدُّه صفوف من الأشجار شديدة القرب من الماء حتى أنه توجد بالكاد مساحة كافية لخلع الملابس. على الفور تتطاير القمصان في كل الاتجاهات بلا حرج من أي أحد."

بعد الحفل تلتقي السيدات بمجموعة من أولاد الفلاحين الذين كانوا جالسين وراء شجرة ليخطفوا نظرة للسيدات العاريات. يرافق هؤلاء الفتية السيدات اللاتي ارتدين ملابسهن من جديد، وهم يغنون بروح معنوية عالية ويتقلبون مرة بعد أخرى على العشب في طريق عودتهم إلى القرية. وبصفو نية يبدون ندمهم على عدم اختطافهم لملابس السيدات كما كانوا ينتوون. وتعترف الكونتيسة – التي كانت كاتبة الخطاب مقيمة في بلاطها – قائلة «لم أمر أبدا بشيء ممتع كهذا ولا أستطيع أن أتذكر أنني تسليت بهذا القدر.»[135]

133- http://en.wikipedia.org/wiki/Bathing_machine.

134- Bologne, ch. 1.

135- Letter 1054 (Henriette L'Hardy to Isabelle de Charrière) in: Belle de Zuylen .Oeuvres complètes. G.A.van Oorschot Amsterdam 1979-1981: 96-97.

تغير هذا الموقف المتراخي عندما اعتنقت البورجوازية الصاعدة – برد فعل متشدد على سلوكيات البلاط المتحررة وعلى الثقافة الشائعة – فكرة أن كرامتهم كانت تعتمد بجمود على الحياء المغطى، وبذلك استحوذ المزيد والمزيد من الاحتشام المتكلف على المجتمع الأوروبي.[136] هكذا تطورت السباحة والاستحمام في أوروبا من السباحة بأجساد عارية دون أي مشكلة إلى التغطية الكاملة للجسد والأطراف، وهي التغطية التي بطلت مرة أخرى لمعظم النصف الثاني من القرن الماضي.

هناك مثال لعادات الاستحمام المتغيرة بطريقة أسرع يأتي من الصين حيث كان يجب على النساء حتى بداية القرن العشرين أن يكن ملفوفات بالثياب كلية، بأقدام ونهود مربوطة:

"[حتى العشرينيات من القرن العشرين] كانت هؤلاء اللاتي يرتدين ملابس ذات فتحة عنق تكشف حتى أقل جزء من الجلد يخاطرن بالقبض عليهن من قِبل السلطات الغاضبة. لكن بعد سبع سنوات فقط، حظرت الحكومة الصينية ربط النهود وبدأت حركة النهدين الطبيعية تشق طريقها جيدا. وشهدت الصين عام 1927 نساء ينطلقن في رحلة من ربط النهود إلى البيكيني. بقيادة دوائر الطبقة العليا ونجمات السينما الشهيرات وقتها، اجتاحت الصين مشدات الصدر غربية الطراز وبعدها المايوهات هوليوودية الطراز، لتدخل بالنساء الصينيات عصرا جديدا من الحداثة والحرية."[137]

كان لباس السباحة تام التغطية المفروض على النساء في أوروبا منذ قرون مضت يتم تكييفه تدريجيا لحساب الراحة وسهولة الحركة خلال القرن العشرين، عندما أصبحت السباحة مقبولة كرياضة حقيقية، بدءا بتقويرة صدر أكبر في عشرينيات القرن العشرين. في القرن الواحد والعشرين كان لابد من إعادة ابتكار لباس السباحة تام التغطية من جديد، هذه المرة من أجل النساء اللاتي يحاولن أن يمتثلن لقواعد العفة الإسلامية المتشددة.

136- Bologne hoofdstuk I en http://en.wikipedia.org/wiki/Bathing.

137- Http://traditions.cultural-china.com/en/15Traditions12412.html.

تسبب البيكيني – الذي تم إطلاقه في أوروبا عام 1946 – في فضيحة هائلة. سُمي 'أصغر لباس سباحة على الإطلاق' ذلك على اسم جزيرة (بيكيني) المرجانية التي تم فيها قبل وقت قصير اختبار قنبلة ذرية. ربما كان الثوب الجديد متفجرا، لكنه كان بعيدا عن النجاح في البداية. رفضت كل عارضات الأزياء المحترفات أن يرتدينه واضطر المصمم إلى التوسل لراقصة تعري كي تعرض ثوب السباحة ذا القطعتين على منصة العرض. على الفور تم منع البيكيني في عدد من الدول ورفضه الفاتيكان باعتباره غير أخلاقي.

في ذلك الوقت تغافل الناس عن حقيقة أن البيكيني لم يكن شيئا جديدا تحت الشمس: في فيلا رومانية قديمة على جزيرة صقلية، تصور لوحة موزايك أرضية محفوظة من حوالي عام 300 قبل الميلاد 'فتيات بيكيني' بسُرة واضحة يمارسن الرياضة بلباس ذي قطعتين بالغتي الصغر. (الصورة رقم 24).

في ستينيات القرن العشرين أثار (المونوكيني) عاري الصدر مشاعر جديدة. من سبعينيات القرن العشرين تم اختزال البيكيني لفترة إلى (الميكروكيني) بقطع صغيرة من النسيج تغطي الحلمات والأعضاء التناسلية، لكن الكثير من النساء لم يعجبهن ذلك الشكل ذو الحد الأدنى من الثياب. وعوضا عن التجارب المستفزة، طورت ثقافة الاستجمام المزدهرة موضات شائعة للسباحة والشواطئ. استمرت هذه الثياب الترفيهية في إبراز الأجزاء العارية من الجسد، لكن في العالم الغربي لم تعد الموضات الجديدة تسبب صدمة إلا فيما ندر. أن ترى النساء والرجال بعضهم البعض في ثياب السباحة على الشاطئ – وهو الموقف المحرج إلى حد كبير في القرن التاسع عشر – أصبح الآن أمرا عاديا تماما لمعظم الناس، على الأقل في هذا الجزء من العالم.

تختلف القواعد الموضوعة لأجزاء الجسد المسموح بأن تكون ظاهرة من بلد لآخر. لابد من تغطية الأعضاء التناسلية والمؤخرات وصدور الإناث في كل مكان تقريبا. في حمَّامات السباحة – حيث تكون المحظورات أكثر صرامة مما هي عليه في الشواطئ العامة – تكون السباحة بالملابس ممنوعة دائما تقريبا لأسباب تتعلق بالنظافة العامة و/أو الأمن؛ وهي مشكلة لمسلمات هذا الزمان اللاتي يعتقدن أنه بسبب دينهن غير مسموح لهن بالسباحة

إلا متغطيات كلية.

عادات السباحة المتناقضة بين النساء المعاصرات في المجتمعات الغربية والشرق الأوسط تظل مدهشة، لكن داخل العالم الإسلامي نفسه توجد اختلافات مذهلة كذلك. هناك نساء يسبحن بلباس السباحة الغربي، ونساء يقررن بكامل حريتهن ألا يُظهرن معالم أجسادهن على الملأ، ونساء تجبرهن مجتمعاتهن على التغطية الكاملة. بالنسبة للرجال فالقواعد هي نفسها كما في الغرب. هناك حديث عن النبي **محمد** يحض فيه المسلمين على ممارسة الرماية والسباحة وركوب الخيل، وهناك رجال دين حديثون يفسرون هذا الحديث على أنه توصية إسلامية متحمسة للمؤمنين من كلا الجنسين بأن يمارسوا الرياضة.[138] ومع ذلك، ففي بعض البلدان يعارض رجال الدين بشكل قاطع الرياضات المختلطة والجمهور المختلط في الأحداث الرياضية، لأنه غير مسموح للرجال بأن يروا من جلد النساء أكثر من وجوههن وأياديهن، وحرام على النساء أن يرين الرجال في الألعاب الرياضية.

النساء المسلمات اللاتي يحببن الرياضة والسباحة يتساءلن في يأس كيف السبيل للتغلب على المعوقات العديدة المفروضة عليهن. لقد بدأن السباحة متغطيات تماما مثل أخواتهن الأوروبيات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يصر الأئمة الأصوليون المعاصرون على أن السباحة هي بالتأكيد (حلال)، لكن حتى مع التغطية الحريصة؛ يخاطر جسد الأنثى السابح بأن يُؤوَّل على أنه (حرام).

توضح صورة فوتوغرافية التُقطت في بورسعيد تفسيرا لحفل سباحة حلال مكون من أربع سيدات في كامل ثيابهن ورجل واحد يمتعون أنفسهم في مياه البحر المتوسط. (الصورة رقم 25). يقف الرجل في البحر برأس عار وذراعين عاريتين، يجذب حبلا متصلا بزورق بلاستيكي صغير يحمل امرأتين في نقاب أسود. وبجوار الزورق تقف امرأتان أخريتان متغطيتان كلية في الماء حتى خصريهما، تحت إشراف الرجل الوحيد الذي في صحبتهن. المرأتان اللتان في الزورق ستبقيان جافتين وآمنتين في (الحلال)، لكن الاثنتين اللتين لا تقلان عنهما احتشاما في التغطية لكنهما في الماء ستكون لديهما بالتأكيد

138- Mohamed Ajouaou, http://www.nieuwemoskee.nl/201106//islam-en-sport/.

مشكلة عندما تعودان إلى الشاطئ بثيابهما المبتلة. فسرت لي شابة تونسية مهمومة بهذه المشكلة أين تبدأ الأمور في أن تسوء: «حتى رغم أنك تغطين نفسك تماما، سيراكِ الناس بأكملك بمجرد أن تطلعي من الماء بملابسك المبتلة. كيف إذن يمكننا – كنساء مسلمات معاصرات – أن نحظى بسباحة حلال أمام الناس؟»

آهيدا زانيتي – امرأة أسترالية من أصل لبناني – جاءت بحل لهذه 'الحُرماتيَّة'. ابتكرت البوركيني، وهو ثوب سريع التجفيف يغطي السابحات المسلمات من الرأس إلى أصابع القدمين. جاءت فكرة هذا الثوب **لزانيتي** عندما رأت كيف تذهب الكثير من الفتيات والسيدات المسلمات إلى السباحة ملفوفات بإذعان في ثياب ثقيلة غير مريحة حتى لا يخالفن القواعد الدينية كما فهمنها أو كما فسرها لهن الآخرون.

يشبه البوركيني على نحو مدهش ثوب السباحة الذي كانت النساء الغربيات يذهبن باحتشام للسباحة به طبقا لمعايير اللياقة في القرن التاسع عشر. مثل شبيهه في الاسم، يتكون البوركيني من قطعتين، لكنه في الحالة الثانية لباس كامل التغطية بأكمام طويلة وأرجل طويلة وغطاء رأس. أعلنت **زانيتي** أن ابتكارها الجديد حلال. وهناك طلب كبير بين المؤمنات في أستراليا وغيرها على مجموعة تصميماتها، التي بدأت في الأصل باللون الأسود؛ لكنها متاحة الآن بألوان نابضة بالحياة. (الصورة رقم 26).

ماذا يقول رجال الدين الذكور عن ثوب السباحة الحلال هذا؟ «مبادرة جديرة بالثناء تسمح أخيرا للنساء بالاستمتاع بالشاطئ. لكن سيكون من الأفضل لهن أن يلبسنه فقط في أماكن منفصلة.» وفقا **لعبد الرزاق الجاي** أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة محمد الخامس وعضو مجلس العلماء في الرباط. "لابد من احترام الأخلاق الطيبة." بكلمات أخرى لا يمكننا السماح للنساء بأن يجدن أنفسهن في نفس المكان حيث الرجال الذين يرتدون المايوهات والسيدات اللاتي يرتدين البيكيني متمددين في الشمس أو سابحين في نفس الشاطئ.

يصر المعارضون على أن البوركيني يناقض الأعراف الثقافية 'الشكل المجتمع الذي كنا نحن قد اخترناه' على حد قول عالم الاجتماع المغربي **عبد الفتاح الزين** – لكن مَن 'نحن' الذين يتحدث باسمهم؟ إن الاستجمام المختلط على نفس الشاطئ والسباحة في نفس

البحر ليسا اختيارا لهذه الـ 'نحن'، لكن هناك جماعة إسلامية أخرى في المغرب لديها وجهة نظر مضادة.[139]

رغم أن أحدا لا يشير إليه، إلا أنه يبدو أن هناك خوفا كامنا من أن رؤية امرأة ترتدي البوركيني قد تثير 'حركة في الجسد' الذكوري. لكن يبدو أن الرجال الغربيين – الذين اعتادوا قبل الآن على النساء في لباس السباحة – غير منشغلين بهذه المشكلة. وكان ذلك هو الموضوع، أليس كذلك؟

النساء المحجبات اللاتي يعتقدن أنه بفضل البوركيني سيكون في استطاعتهن أخيرا أن يسبحن بشكل حلال دون الشعور بالذنب، سيجدن دائما في طريقهن أشخاصا عملهم الدائم هو أن يجرّموا السابحات من الإناث ويتهمونهن بالفسق، حتى عن طريق الفتاوى المهددة. يحتفظ الجامع الأزهر ذو الاحترام العالي في القاهرة بقائمة من الفتاوى – وهي نصائح شرعية من رجال دين موثوق بهم بطريقة ما – التي تم رفضها لأنها تهتم بسفاسف الأمور. من بين هذه الفتاوى واحدة تتعلق بالنساء المستحمات في البحر واللاتي لا ينبغي أن يفلتن من عقابهن المشروع: "البحر مذكر وعندما تذهب امرأة للسباحة تصبح زانية بمجرد أن تلمس اعضاؤها التناسلية الماء."[140]

أحيانا في الحياة يضطر المرء للتجرؤ على أن يقوم باتخاذ اختياراته الشخصية، وذلك بالضبط ما يفعله الكثير من المسلمين، وأكثر من ذلك حيث يوجد القليل جدا من الشخصيات الدينية التي لم تتعرض أبدا لفضيحة أو نميمة حول مسائل العفة والاحتشام. حتى **عائشة** – زوجة النبي **محمد** المفضلة – اضطرت لأن تتعامل مع ذلك الأمر. وفقا للسُنَّة قال النبي نفسه ذات مرة: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.» وأشار بأصابعه إلى صدره' [141] - وهي عبارة تستحق انتباها أكبر

139- Http://www.leconomiste.com/article/896065-sur-la-piste-des-plages-halal-du-bikini-au-burkini.

140- Report entitled The Misguided Fatwas of the Muslim Brotherhood and Salafis, in the Egyptian newspaper Al Masry Al Youm: http://indiatoday.intoday.in/story/fatwa-al-azhar-university-cairo-women-swimming-in-scaadultresses/1326883/.html.

141- In Muslim's 'Hadith Book 32, 'The Book of Virtue, Good Manners and Joining of the Ties of Relationship. http://www.searchtruth.com/book_display.php?book=032&translator=2&start=40.

مما تحصل عليه في العادة.

لأن آراء المؤمنين حول ملابس السباحة وغيرها من الأمور الجسدية تعتمد على التفسيرات المعاصرة للكتب المقدسة الدينية القديمة. هناك عدد متزايد من الرجال والنساء المؤمنين الذين يتخذون قراراتهم الخاصة الموزونة بحرص، بمنطق أن الله قد منح البشر نعمة العقول السليمة. باستخدام هذه النعمة الثمينة يتفكرون في التفسيرات المتناقضة للنصوص المقدسة قبل أن يتخذوا قراراتهم.

6

الدين كتاريخ للحجب

هل يكون شخص ما عاريا إذا لم يرتدِ شيئا على جسده، أم هل يكون 'عاريا' إذا طاف سائرا بلا غطاء للرأس، أو جرؤ على إظهار يد عارية؟ تختلف الإجابات، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يصلون لنفس الرب. تؤثر الأديان على الطرق التي ينظر بها الناس لأجسادهم ولأجساد غيرهم، وفي بعض الحالات تثير الكثير من الخوف والخزي حتى أن كل جزء من الجلد يتوجب عليه أن يكون مخفيا لمنع الحرج أو الإثارة المحرمة.

لقد ابتكر الناس في كل مكان في العالم قواعد للتستر (وأحيانا للتعري)، تمارس نفوذها على عادات الملبس لدى الذكر والأنثى. لأسباب عملية يناقش هذا الفصل فقط القواعد المقررة من قَبل الأديان الثلاثة التي تشعبت سبلها منذ زمن طويل في الشرق الأوسط ومازالت تلعب دورا هاما في العالم المعاصر: اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

لإخضاع الناس، رفع التراث اليهودي قواعد التستر لتصبح تشريعا دينيا. وتتضمن قوانين الشريعة الإسلامية محظورات في الملبس لا تقل صرامة. في كلا الدينين تختلف الممارسات وفقا لآراء المؤمنين الليبرالية أو الأورثوذكسية. من وقت لآخر كانت العولمة تمحو بعضا من القواعد القديمة، بينما استمر البعض الآخر يحظى بالاحترام أو يعاد فرضه على يد رجال الدين المتشددين، أو يكون بمثابة رد فعل على أفكار انتقادية أو مهينة تأتي من الخارج ويتم التعامل معها على أنها تهديد.

عري آدم وحواء

في قصة **آدم وحواء**، وهي قصة تتشاركها اليهودية والمسيحية والإسلام، لم يكن لدى أول شخصين في الفردوس أي مشكلة مع افتقارهما للثياب. فقط بعد أكلهما الفاكهة المحرمة أصبحا واعيين بعريهما.

في حكاياتهم الشفاهية عن بداية الخلق أولت الأديان الثلاثة دائما الكثير من الاهتمام لملبس أول إنسانين، أو لعدم وجوده. تجادل بعض التفسيرات اليهودية بأن **آدم وحواء** لم يكن من الممكن أن يكونا عاريين تماما، فلابد أنهما قد ارتديا نطاقا يغطي أعضاءهما التناسلية أو وشاحا على أكتافهما كُتب عليه اسم الرب المقدس. ولعلهما وفقا لآخرين كانا عاريين لأنه في البدء لم تكن الوصايا العشر قد وُجدت بعد. ويقدم حكّاء مسيحي بلغاري في القرن العشرين تفسيرا يقول أن آدم وحواء تجولا مشعرين مثل الحيوانات. واختفي الشعر الغزير في نفس اللحظة التي ابتلعا فيها الفاكهة المحرمة، لأن الرب أخبرهما: «إذا قطفتما هذه التفاحات، ستفقدا كل شيء يغطي جسديكما وستضطرا للعمل والكدح وارتداء الثياب.» وهذا ما حدث لدهشتهما الفاجعة، ومن منطلق إحساسهما بالحرج «وضعا أيديهما على أجزاءهما السرية وعلى رأسيهما، وهذا هو السبب في أن هذه الأجزاء مازالت مشعرة.»[142]

في قصص يهودية وإسلامية عديدة حاول **آدم وحواء** أن يقطفا من ورق الشجر ليغطيا نفسيهما بمجرد أن أصبحا واعيين بعريهما، لكن كل أشجار الجنة رفضت أن تعطي أوراقها لأول مخالفين لوصية الرب. في القصص التي تصور التين على أنه الفاكهة المحرمة، قدمت شجرة التين في النهاية بضع أوراق. في تلك الأيام كانت ورقة تين واحدة كافية لستر «خزي» **آدم وحواء**.

في العصور الوسطى المسيحية كان **آدم وحواء** غالبا ما يتم تقديمهما على أنهما كانا بلا جنس قبل السقوط، لكن صور عريهما لم تكن مشكلة، لأنها كانت تقدم درسا يوضع في الاعتبار. مع ذلك، لأسباب تتعلق بالاحتشام، مال عدد من الفنانين المسيحيين الغربيين لتغطية الأعضاء السرية **لآدم وحواء** بورقة تين بينما كانا مازالا يمرحان ببراءة في الجنة.

142- Florentina Badalanova in Geller and Schipper 2008: 282

على واجهة كاتدرائية نوتردام في باريس تم تصوير أول الخلق – نائما بهدوء – وقد تزين فعلا بورقة تين بينما مازال الرب مشغولا بتشكيل **حواء** من جسد **آدم** الولاّد.

في العديد من قصص الأورثوذكس الشرقيين والقصص الإسلامية كان **آدم وحواء** يرتديان ملابس ملكية وتاجين على رأسيهما. بمجرد أن ارتكبا الخطيئة الأولى، فقدا مكانتهما الملكية وثيابهما، كما في هذه القصة الإسلامية على سبيل المثال:

> "ما ذاق آدم تلك [الفاكهة المحرمة] إلا طار التاج عن رأسه، وانتزعت عنه خواتيمه وسقط كل ما كان عليه وعلى حواء من لبسهما وحليهما وزينتهما. وناداهما كل ما طار عنهما: 'يا آدم ويا حواء طال حزنكما وعظمت مصيبتكما! فعليكما السلام إلى يوم القيامة، فإن الله تعالى عهد إلينا أن لا نكون إلا على عبد مطيع خشع'."[143]

في تنويعة عربية إسلامية للقصة، وفي طريق خروجه من الفردوس كان على آدم أن يمر بصفوف من الملائكة تحدّق فيه وتوبخه، بينما كان هو يطلب الرحمة مصرا أن ما فعله كان مقدورا ولذلك كان محتوما:

> "والملائكة تنظر لآدم وهو عريان، ففزعوا منه وجعلوا يقولون 'إلهنا ومولانا [أ] هذا آدم بديع فطرتك [؟ كم هو وضيع وصغير! لا تجعله خالدا] فأقل عثرته ولا تخذله وارحمه يا أرحم الراحمين.' وآدم مع ذلك قد وضع يده اليمنى على رأسه ويده اليسرى على سرته ودموعه تجري كالأنهار على خديه.»

ثم نادى الله حواء ليحاسبها. فحاولت أن تختبئ خلف شعرها الطويل، لكنها فشلت. وكان عليها أن تمثل أمام الله ذليلة خزيانة. كانت ملابسها الجميلة قد اختفت وشعرت باليأس يجتاحها. وقالت «لبيك لبيك سيدي ومولاي.. قد ذهبت زينتي وحل بي شقائي

143- In Overal Adam en Eva, 127.

وبقيت عريانة لا يسترني شيء من جنتك يا رب العالمين.»"[144]

تؤكد جميع القصص التي تتناول أكل الفاكهة المحرمة على كم كان الوعي بعريهما المفاجئ مُذلاً لأبوينا الأولين. وقد تم التعامل باستفاضة مع موضوع عريهما المخجل المفترض في القواعد والتشريعات الدينية للمؤمنين.

العري والخجل في اليهودية

اليهودية ديانة مفرطة الاحتشام ويظل العري فيها مثيرا لمشاعر متعصبة. وكان المقصد الأساسي من الجنس هو التناسل، لكن التلمود يقول أن تكاثر الشعب اليهودي لم يكن هو الغرض الوحيد. وعلى حد قول مؤلف معاصر لأول كتيب جنسي مخصص لليهود المتشددين، فإن التعامل مع هذا الموضوع بصراحة من التابوهات المطلقة. في إسرائيل يحضر معظم الأولاد والبنات المتشددون مدارس دينية منفصلة حيث ينالون القليل من التعليم الجنسي أو لا شيء منه على الإطلاق. هذا الأمر من المسكوت عنه، وهؤلاء الذين يبذلون جهودا لاقتحام 'حاجز الخجل' ذاك يوسمون بأنهم مخربون ومخالفون.[145]

غطاء الرأس اليهودي للرجال

يقدم سفر الخروج في الكتاب المقدس (28: 43-39) تعاليم بملابس **لهارون** وأبنائه – وصفة تلقاها أخوه **موسى** من الرب مباشرة، وفقا للتراث:

"وَتُخَرِّمُ الْقَمِيصَ مِنْ بُوصٍ، وَتَصْنَعُ الْعِمَامَةَ مِنْ بُوصٍ، وَالْمِنْطَقَةُ تَصْنَعُهَا صَنْعَةَ الطَّرَّازِ. وَلِبَنِي هَارُونَ تَصْنَعُ أَقْمِصَةً، وَتَصْنَعُ لَهُمْ مَنَاطِقَ، وَتَصْنَعُ لَهُمْ قَلاَنِسَ لِلْمَجْدِ

144- Al-Kisa'i 46-47.. (الاقتباسات من كتاب الكسائي «قصص الأنبياء» وقد رجعت إلى النص الأصلي وأوردت الأصل إلا أني لاحظت وجود زيادات في الترجمة التي أوردتها الكاتبة عن النص الأصلي بعضها غير المعنى مثلما في وصف الملائكة لآدم في الاقتباس الثاني فوضعتها بين أقواس – المترجم)

145- Jennie Rosenfeld and David S. Ribner. The Newlywed Guide to Physical Intimacy. Jerusalem: Gefen Publishing House, 2011; see also Etan Levine, Marital Relations in Ancient Judaism,. Wiesbaden: Harrassowitz, p.230.

وَالْبَهَاءِ. وَتُلْبِسُ هَارُونَ أَخَاكَ إِيَّاهَا وَبَنِيهِ مَعَهُ، وَتَمْسَحُهُمْ، وَتَمْلأُ أَيَادِيهِمْ، وَتُقَدِّسُهُمْ لِيَكْهَنُوا لِي. وَتَصْنَعُ لَهُمْ سَرَاوِيلَ مِنْ كَتَّانٍ لِسَتْرِ الْعَوْرَةِ. مِنَ الْحَقْوَيْنِ إِلَى الْفَخْذَيْنِ تَكُونُ. فَتَكُونُ عَلَى هَارُونَ وَبَنِيهِ عِنْدَ دُخُولِهِمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ، أَوْ عِنْدَ اقْتِرَابِهِمْ إِلَى الْمَذْبَحِ لِلْخِدْمَةِ فِي الْقُدْسِ، لِئَلاَّ يَحْمِلُوا إِثْمًا وَيَمُوتُوا. فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً لَهُ وَلِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ".

أحد هذه التعاليم **لهارون** تم فرضها فيما بعد على كل الرجال: التغطية من الحقوين إلى الفخذين. المزيد عن ذلك فيما بعد.

وفقا للعهد القديم العبري كان غطاء الرأس إلزاميا فقط على الكهنة: فقد كان يشير إلى مكانة رسمية، بنفس الطريقة التي معتادا أن يكون عليها بين غير اليهود. في العهد الجديد، وهو الجزء الثاني من الكتاب المقدس الذي أضافه المسيحيون، لا توجد إشارة إلى وجود غطاء رأس للرجال. ولا يُلزم التلمود اليهودي الرجال بارتداء غطاء للرأس كأمر من الرب: «أحيانا يغطي الرجال رؤوسهم، وأحيانا لا يغطون رؤوسهم، لكن النساء دائما يغطين رؤوسهن.»[146]

بدأ الرجال اليهود ارتداء الطواقي بعد وقت طويل من زمن التوراة، وبشكل أكثر تحديدا في العصور الوسطى، عندما أصدر الحاخام **إسرائيل برونا Israel Bruna** 'بيانا شرعيا يعلن أن رؤوس الرجال الحاسرة هي انتهاك للقانون الديني'. كان يجب على الرجال أن يغطوا رؤوسهم، لكن دون تفصيل لنوع غطاء الرأس، وحتى تدوين الشريعة اليهودية حوالي منتصف القرن السادس عشر لم يكن اليهود يعتبرون ارتداء القبعة إلزاما بالنسبة للرجال. حتى ذلك الوقت ظل رجال كثيرون يُصلون حاسري الرؤوس، واستمر العديد من الحاخامات في المجادلة بأنهم لم يعلموا بأي تحريم ضد الصلاة برأس حاسرة'. ربما كان القصد من هذا القانون أن يكون بمثابة رد فعل ضد العادة المسيحية للرجال أن يكشفوا رؤوسهم من أجل الصلاة، بدلا من تغطية أنفسهم بتواضع واحترام أمام الإله

146- وذكرنا هذا بالمؤرخ والفيلسوف الإغريقي بلوتارك (حوالي 45 إلى حوالي 120 قبل الميلاد) الذي رأى أنه من البديهي تماما أن تدخل النساء الأماكن العامة برؤوس مغطاة، بينما لا ينبغي ذلك على الرجال، وهو ما ناقشه Molly Myerowitz Levine في

'The Gendered Grammar of Ancient Mediterranean Hair', in Eilberg-Schwartz and Wendy Doniger, Off with Her Head. The Denial of Women's Identity in Myth, Religion, and Culture, p. 96 and p.106.

القادر. في القرن الثامن عشر برر حكيم يهودي القبعات التعبدية باعتبارها فقط مسألة 'سلوكيات حميدة'، لكن تدريجيا تم تأويل تغطية الرأس كعلامة واضحة على الالتزام الرجالي بالتراث اليهودي.[147]

يفترض معظم الناس أن أزياءهم تأتي في الأصل من ثقافتهم، والمؤمنون اليهود الورعون ليسوا استثناء. ليس من السهل قبول أن تكون إحدى ايقونات المرء الدينية قد تمت استعارتها من تراث ديني آخر، لكن ذلك هو الحال غالبا. لم تتأثر اليهودية فقط بالأديان الأخرى، فلم يكن تأثير الثقافات المحيطة والعادات الدينية المحلية أقل، وبعضها تم إدماجها في تراث اليهودية. المثال البارز هو 'الزي المركزي للرجولة اليهودية': الكيباه (الطاقية اليهودية) أو اليارمولكه (من الكلمة البولندية jarmulka). إنه ملبس حديث نسبيا ويبدو أنه تمت استعارته من التراث المسيحي:

> "جاءت [كلمة يارمولكه yarmulke] من قلنسوة كنسية كانت تُلبَس في كنائس العصور الوسطى، قطعة كانت تُسمَّى almucia باللاتينية، أو بصيغتها التصغيرية almucia أو armucella. وكانت الأخيرة غالبا ما تُنطق armukella ... مع الوقت، غدت المفردة تشير إلى القبعة بشكل عام. في القرن الثامن عشر، استعار اليهود المتحدثون باليديشية في شرق أوروبا تنويعة للكلمة، والتي أصبحت الآن معروفة بكلمة yarmulke . منذ تلك النقطة فصاعدا أصبحت الطاقية والمفردة ينقلان علاقة انتماء يهودية جلية.»[148]

يرتدي الرجال اليهود (اليارمولكه) أثناء الصلوات أو في الكنيس، لكن الرجال المتشددين يرتدون هذه الطاقية طوال الوقت – ولديها بالضبط نفس شكل الطاقية التي يرتديها البابا والأساقفة الرومان الكاثوليك – تحت قبعاتهم السوداء. ويُلزَم الرجال غير اليهود

147- كان اسم الحكيم هو الحاخام إيليا بن شلومو زلمان؛ انظر سيلفرمان 160 162-Silverman الذي يقدم ثروة من التفاصيل في كتابه الغني بالمعلومات تاريخ ثقافي للباس اليهودي (2010) A Cultural History of Jewish Dress

148- Ibid. 162ff

على ارتداء اليارمولكه عند زيارة الكنيس، أو المقابر، أو الأماكن اليهودية المقدسة، مثل الميدان الموجود أمام حائط المبكى في أورشليم. لقد حظي غطاء رأس الرجال بين المؤمنين اليهود بمكانته الأيقونية في القرن العشرين فقط.

تابو القضيب العاري

من قديم، ربطت اليهودية بين العري وبين الفقر والهشاشة، وهما سببان للشعور بالخزي. علاوة على ذلك، كان كشف القضيب في مكان مقدس إهانة للرب، وكل رجل يهودي يخلق 'مكانا' مقدسا عند ذكر اسم الرب، كما يحدث في المباركات والصلوات، أو أثناء دراسة الكتاب المقدس وتفاسيره. في مثل هذه المواقف لابد من تجنب العري وتغطية الأعضاء التناسلية الذكورية بطريقة محترمة: 'لا ينبغي أن تجرى الأنشطة المقدسة في وجود أي عري ذكوري.' إحدى الحجج كانت أنه بعد السقوط لم يمنح الرب للحيوانات بل لآدم فقط – وبالتالي لجميع البشر – 'الوسيلة التي يغطي بها عورته.'[149]

كان معنى أن يكون المرء عاريا هو انتهاك النظام الإلهي، 'عادة قذرة غير يهودية تنتهك الاختلاف بين البشر والرب، بين اليهود وغير اليهود، بين الرجل والطبيعة، وبين الجماعات الاجتماعية.'[150]

في مخطوطات البحر الميت – وهي كتب مقدسة قديمة عُثر عليها عام 1995 في كهوف قمران – صيغت قواعد صارمة للأسينيين؛ وهم طائفة يهودية زاهدة كانوا يعيشون في الصحراء:

"أي شخص يسير عاريا أمام صاحبه دون أن يكون مجبرا يُعاقَب (لمدة) ستة أشهر... أي شخص يتسبب في أن يخرج قضيبه من تحت ثوبه، أو يكون ثوبه (به) ثقوب تجعل

149- Book of Jubilees 3, 30 -31.

150- Cf. Satlow 1997: 429ff and 448

أقر هنا بامتنان باستفادتي من مقاله الواضح "Jewish Constructions of Nakedness"

See also Eric Silverman 2010.

عريه مرئيا يعاقب (لمدة) ثلاثين يوما."[151]

كان الأساس المنطقي لذلك هو أن هذه الطائفة مقدسة والمنيّ نجس؛ لذلك كان لابد من تجنب الأعضاء التناسلية الذكورية. ربما كان الخوف كذلك من المثلية الجنسية وزنا المحارم سببا لقواعد الانضباط الصارمة.

تكشف القواعد اليهودية عن خوف جلي من العري. ترجمة الكلمة العبرية **erwah** بكلمة 'عورة' هو تعبير مخفف عن الأعضاء التناسلية. ويقدم المؤلفون الحاخاميون أو غير الحاخاميين من العصور القديمة المتأخرة (حوالي 70 إلى 500 قبل الميلاد) معلومات تفصيلية عن كل الوصايا والمحظورات حول هذه المسألة، من بينها حظر الصلاة بجسد عارٍ، أو القراءة في التوراة بجسد عارٍ، وهكذا. وكانت رؤية المرء عاريا دون قصد يُنظر إليها كأمر محرج. بالنسبة للحاخامات كان العري يعني ظهور القضيب، وهو موقف غير مرغوب فيه يضع مكانة الرجل في خطر. فالرجل الذي يظهر عاريا كان يجعل من نفسه مثار سخرية على الأقل، وعلى أسوأ الفروض يجعله ذلك يفقد احترامه. كان اليهود بوضوح يعتبرون العري 'سيئا' أو حتى 'مكروها'.[152]

مثّلت أعضاء الأب التناسلية امتيازات وقوة جنسية مستترة. توضح القصة التوراتية عن **حام** ما يحدث عندما ينظر الابن إلى عورة والده. تحكي القصة التوراتية أن **نوح** "..شَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامُ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا." (سفر التكوين، الإصحاح 9، 22-21). عندما رأى **حام** والده متمددا في خيمته عاريا، ضحك. هل رأى عضوا ذابلا بدلا من القضيب الهائل الذي كان قد تخيله؟ وبناء على ذلك لم يعد بمقدوره أن يتطابق مع أبيه ومع النظام البطريركي؟ على الفور فصل الابنان الآخران نفسيهما عن حام، مؤكدين بذلك ولاءهما للنظام، بينما لُعن **كنعان** – ابن **حام** – لهذا السبب ذاته.[153]

151- http://www.ericlevy.com/Revel/DeadSeaScrolls/Vermes%20-%20CDDSE%20p97-117%20Community%20Rule.PDF. See also Satlow 449.

152- Satlow 431.

153- بعض الحاخامات يفترضون أن هذه اللعنة الدراماتيكية لا يمكن أن تكون نتيجة لرؤية حام قضيب أبيه: 'بل يفترضون أنه إما نكحه أو خصاه' انظر Satlow 438

فيما يتعلق بالرب، كانت الأعضاء التناسلية الذكورية غير مقبولة كعلامة على عدم التوقير. كانت علاقات الرجل بالأرفع مقاما موازية لعلاقات الرجل بالكائن الأسمى الذي لا يُظهر نفسه، ولا حتى للمؤمنين به. وكان المفترض أن يكون لدى الأدنى منزلة المزيد من الاحترام نحو هؤلاء الأعلى منزلة الذين لم يروهم عراة أبدا. في النظرة اليهودية كانت رؤية الأعلى مقاما في الترتيب الاجتماعي عاريا أمرا مذلا له وفاجعا للأدنى منزلة. كان القادة والكهنة الكبار والآباء والأحماء يعتقدون أنهم سيفقدون سلطتهم إذا رأى أتباعهم أو أطفالهم أعضاءهم التناسلية العارية عَرَضا.[154]

في أحد النصوص اليهودية المقدسة كوفئ البطريرك الحاخام **يهوذا** على حياته بلقب 'حاخامنا المقدس'، 'لأنه لم ينظر أبدا إلى قضيبه' (وفي مناقشة لنفس التقليد يقال أن هذا الحاخام لم يلمس قضيبه أبدا كذلك). ونُسب إلى حاخام آخر اسمه **إليعازر** تحذير بأن الرجل الذي ينظر إلى قضيبه 'سيعاقب في النهاية بالعجز الجنسي'.[155] هذه الآراء لا تُيَسر في الحقيقة حيوات المؤمنين الملتزمين.

خلافا للثقافات الأخرى التي قدَّمت أغطية القضيب أو الحشفة، أعلن التراث اليهودي أن تغطية القضيب قانون معطى من الله. وساعد هذا القانون على إبقاء النظام الموجود في مكانه. وتؤكد القواعد اليهودية المختلفة جذريا والخاصة بعورة الأنثى على هذا النظام البطريركي.[156]

شِبر من بشرة المرأة

في الثقافة التوراتية، وبشكل خاص في كتب **موسى** – الكتب الخمسة الأولى من التوراة العبرية – كانت كلمة (العورة) تشير فقط إلى الأعضاء التناسلية العارية، لكن الشروح والكتابات العبرية التي جاءت بعد ذلك مدَّت معنى العورة بالنسبة للنساء بعيدا حتى أنها أصبحت في النهاية تغطي جميع البشرة الأنثوية التي تزيد عن شِبر. وكي يكونوا في أمان،

154- Hoss 2005: 12ev; Silverman xv; Jonathan Z. Smith 1978 (1966): 219; Satlow 1997: 447, 453.

155- Satlow 1997: 433-4.

156- Satlow 431.

كان الرجال المتدينون (ومازالوا) يُنصحون بألا ينظروا إلى النساء في أي حالة من حالات خلع الملابس. بكلمات أخرى، ينبغي أن يُرى عري المرأة كإغواء للرجل، ونادرا ما تكون له أي أهمية في سياق المُقدَّس:

> "في الوقت الذي لا يقول فيه الحاخامات أي شيء عن الرجال الذين يظهرون عراة أمام النساء، فإنهم يؤسسون عظاتهم للرجال بألا ينظروا للعري الأنثوي على أساس السمعة السيئة المفترضة لامرأة تظهر عارية أمام الرجال."[157]

فكرة أن ما يزيد من الجسد الأنثوي عن مساحة الشبر الظاهر كحد أقصى يمكن أن تثير الرجال جنسيا أصبحت أكثر تسلطا بعد القرنين الأولين من عصرنا. كانت نقطة البدء الحاخامية هي أن التغطية الإجبارية لأعضاء الجسد الأنثوي ستهدئ الرغبة الذكورية، لكنهم لم يكونوا واثقين بشكل مطلق من هذا. وهذا هو السبب في أنه خلال الصلاة يُنصح الرجال بأن يتجاهلوا شعر النساء وسيقانهن وحتى الإصبع الصغير.[158] الرجال اليهود الذين يعانون من (عوراتهم) المتعذرة التحكم باعتبارها ذنبا أمام الرب، ينقلون المسؤولية الكاملة عن هذا التهديد الوشيك على كاهل الجنس الآخر.

في الإرشادات الحاخامية الشفاهية والمكتوبة في وقت لاحق[159] يُنصح الرجال بألا ينظروا للنساء المرتديات ثيابا ملونة، بينما يصر البعض على أنه ينبغي على الرجال أن يتجاهلوا الجنس الآخر بشكل كامل، بسبب كل ما يكمن مختبئا تحت ثوب الأنثى. حذر حاخام بابلي من أن نظرة الرجل لإصبع المرأة الصغير أو كعبها يُعد فعلا له عواقب بعيدة المدى:

> "كما تعلمنا: المرء الذي ينظر لكعب امرأة هو كمن ينظر إلى فرج [ـها].

157- Satlow 441-442.

158- In Jewish World, 15 November 2011: http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4145922,00.html.

159- See Satlow 431.

والمرء الذي ينظر إلى فرج [ـها] هو كمن ينكحها."[160]

تعكس القواعد الكثيرة المتعلقة بالعري الأنثوي انشغالا حاخاميا كاملا بالمخاطر الخاصة بالرجال الناظرين إلى النساء: في إحدى القصص ينصح الحاخامات رجلا بالموت بدلا من رؤية امرأة عارية أو – بالفعل – حتى من سماع صوتها: فصوت الأنثى المتحدثة أو المغنية ينتمي إلى نفس المنظومة التي ينتمي إليها العري، كما يرى المتخصصون في المسألة. كان أحد التحذيرات أن الرجل الذي ينظر إلى الأعضاء التناسلية لزوجته سيعاقَب بولادة أطفال عُمي.[161] تكشف هذه القواعد عن الخوف القديم من قدرة النساء على الولادة، هذا الخوف الذي يتم إسقاطه بطريقة لا واعية على أعضاء الجسد ذات الصلة.

بالنسبة للحاخامات، كان العري الأنثوي سؤالا أخلاقيا يتعلق بالرجال تماما: 'لا ينبغي على النساء اليهوديات المحترمات أن يخرجن عاريات على الملأ؛ والعكس صحيح، إذا شوهدت امرأة عارية على الملأ؛ فلابد أنها ليست امرأة يهودية محترمة.' أن تُرى على الملأ معناه أن تُرى أمام الرجال، في المجال العام الذي استولى عليه الرجال. في حالة النساء، كانت 'غير عارية' تساوي جسدا أنثويا مغطى بالكامل. فسر الحاخامات العري الأنثوي في المقام الأول من منظور إثارة العاطفة الجنسية في الرجال و'في سياق تأثيراته [الملموسة] على الرجال'. وفي نفس الوقت تجاهلوا كلية مسألة ظهور الرجال عراة أمام النساء.[162]

بالنسبة للرجال الساميين لم يكن تعدد الزوجات مشكلة على الإطلاق، وفي هذا الجانب يشبه الزواج اليهودي مثيله العربي وقت تدوين كتب **موسى**. كان الرجم كعقوبة للزنا موجودا لدى اليهود وكذلك بين العرب. كما أن استلزام ضبط النفس كمعيار عال للأخلاق لا يرقى إليه الشك، والذي تم التعبير عنه في العديد من القواعد الدينية التي ابتكرها الحاخامات الذكور، يكشف عن خوف غير مسبوق من فقد ذلك الضبط للنفس ذاته. في التوراة يتحدث النبي **إرميا** عن انتقام الرب في حالة الزنا وارتياد المواخير:

160- Voor verwijzingen naar de verschillende bronnen, zie het gedetailleerde artikel van Satlow 441-442; Silverman 38; Berman 1980.

161- Satlow 441.

162- Satlow 444-47.

"كَيْفَ أَصْفَحُ لَكِ عَنْ هذِهِ؟ بَنُوكِ تَرَكُونِي وَحَلَفُوا بِمَا لَيْسَتْ آلِهَةً. وَلَمَّا أَشْبَعْتُهُمْ زَنَوْا، وَفِي بَيْتِ زَانِيَةٍ تَزَاحَمُوا. صَارُوا حُصُنًا مَعْلُوفَةً سَائِبَةً. صَهَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى امْرَأَةِ صَاحِبِهِ. أَمَا أُعَاقِبُ عَلَى هذَا، يَقُولُ الرَّبُّ؟ أَوَ مَا تَنْتَقِمُ نَفْسِي مِنْ أُمَّةٍ كَهذِهِ؟"[163]

في التوراة هناك اهتمام قليل للغاية يولى للعري الأنثوي (وينطبق نفس الشيء على القرآن)، لكن في المصادر اليهودية (وكذلك الإسلامية) التالية تولي القواعد أهمية واضحة لذلك الموضوع. بعض الآراء الحاخامية في عري الأنثى تشبه الأفكار الإغريقية والرومانية في العصور القديمة. في كل مكان حول البحر المتوسط يجد المرء آراء بطريركية مشابهة يمكن فهمها فقط بردّها إلى سياقاتها الثقافية التي تربط شرف العائلة بالعفة الجنسية الأنثوية، كما تتضح في الطرق التي يُطلب بها من الجسد الأنثوي أن يظل غير مرئي.[164]

'انقذوا الرجال من أنفسهم'

تتنوع أغطية الرأس اليهودية للنساء المتدينات من منديل الرأس إلى القلنسوة أو الشيتل sheitel ، وهي كلمة ييديشية تعني باروكة مصنوعة من شعر حقيقي أو زائف، بينما لا تغطي النساء اليهوديات الليبراليات رؤوسهن على الإطلاق. بالنسبة لشخص متدين تكون القواعد واضحة كالبلور: 'كامرأة يهودية متزوجة متدينة لن تفكري في مغادرة حجرة نومك دون غطاء رأسك. المرأة التي تفعل ذلك فجأة، قد سقطت بوضوح من إيمانها وهبطت في أزمة دينية' بكلمات امرأة يهودية هولندية في مقابلة شخصية عام 2014.[165]

في إسرائيل منذ بضعة أعوام بدأت العديد من النساء اليهوديات المتشددات في إخفاء أجسادهن تماما تحت طبقات كثيفة من القماش الأسود، وتغطية أيديهن بالقفازات ولفّ ليس فقط رؤوسهن بل وجوههن كذلك في قماش أسود؛ سعيا منهن نحو الاحتشام المفرط وفقا لما تخيلنه معايير أسلافهن. بدأ الأمر منذ سنوات قليلة بدعوة من حفنة

163- Jeremiah 5:7-9, New International Version.

164- Satlow, 454.

165- Ibid.; Hoss 13v. Interview Cecile Hendriks with Blouma Jacobs. Trouw, 6 March 2014.

نساء في القدس لمحاربة الفجور في إسرائيل. حتى في البيت تُبقي هؤلاء النسوة وجوههن مغطاة، ويغطين بناتهن الصغيرة بنفس الطريقة: 'دعوة أزمنة يائسة لاجراءات يائسة' كما أسمتها إحدى السيدات. على مدى السنوات القليلة الماضية انتشر هذا النوع من الزيّ في مدن إسرائيلية أخرى، مسببا الرعب حتى بين هؤلاء الذين رأوه في البداية كطريقة غير مؤذية من اللبس غريب الأطوار أو حتى امتدحوا الحجاب.[166]

اليوم تسير مئات النساء اليهوديات متغطيات بالكامل. أخبرت إحداهن الجريدة الإسرائيلية هاآرتز: 'في البداية ارتديت فقط باروكة، الآن عندما أرى امرأة ترتدي باروكة، أدعو الله أن يسامحها على هذا الشيء الذي فوق رأسها.' وفقا لإحدى هؤلاء النساء المتشددات، فإنها ترى أن واجبهن أن 'ينقذن الرجال من أنفسهم'، وأنهن يفعلن هذا عن طريق مسؤوليتهن التي فرضنها على أنفسهن تجاه ضعف الجسد الذكوري: 'الرجل الذي يرى أعضاء جسد المرأة يُثار جنسيا، وقد يجعله هذا يرتكب الخطيئة. حتى إذا لم يرتكب الخطيئة الجسدية فعليا، فإن أفكاره المدنسة خطيئة في حد ذاتها' على حد قول واحدة أخرى في جريدة يديعوت أحرونوت.[167] في النهاية يمكن للمرأة فقط أن تحقق الاحتشام التام عن طريق أن تكون غير مرئية وغير مسموعة بالكامل.

اليوم يصرخ الكثير من المؤمنين الذكور المتشددين ذوي الذقون الطويلة، والقبعات السوداء والبذلات السوداء، والذين ترتدي زوجاتهم الباروكات على رؤوسهن الحليقة، لاعنين هذا التطور الجديد. فهم يشعرون بالظلم – كما لو أن زوجاتهم لم يكن محتشمات بشكل كاف! هكذا تتحول قواعد الاحتشام والملبس إلى مسألة منافسة بين المؤمنين المتشددين والمتعصبين.[168]

166- http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/israel/7919501/Israeli-rabbis-clamp-down-on-burka.html, 30 July 2010.

167- http://jezebel.com/5602542/the-burqa-banfor-orthodox-jewish-women; http://en.wikipedia.org/wiki/Haredi_burqa_sect; http://blogs.forward.com/sisterhood-blog/127114/why-jewish-womenare-wearing-burqas/; http://forward.com/sisterhood/127114/why-jewish-women-are-wearing-burqas/#ixzz3r0hxUtOE

168- Ibid. Zie ook. http://www.rationalistjudaism.com/2013/08/wrestling-with-burqa-babes.html; http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/israel/7919501/Israeli-rabbis-clamp-down-on-burka.html and Miriam Shaviv. 'Should Israël Israël Ban the Burka?', The Jewish Chronicle, 28 april 2010.

تورد ميشباشا Mishpacha مجلة العائلة اليهودية الأسبوعية تقريرا عن التغير الذي أحدثته هؤلاء النساء المتغطيات في شوارع حي (بيت شيمش) المتدين في القدس:

"تجعلهن طبقات الأغطية يبدون مرعبات ومنيعات بالنسبة للغريب، لكنهن تحتها نساء جميلات عاديات جدا، وسيخبرنك ثلاثة أشياء: أنهن لا ينتمين إلى أي 'طائفة'، وأنه يتم التشهير بهن واضطهادهن بطريقة ظالمة على يد جمهور ضيق الأفق ووسائل إعلام متعطشة للنميمة تشبثت بـ 'اختلافهن' كحجة لعمل تقارير تهويلية، وأنه - باستثناء بعض الانحرافات المتطرفة من أفراد مختلين - فإن معظم الاتهامات ضدهن كمجموعة لا أساس لها. سيخبرنك أيضا أنهن قد استعدن معايير الأجيال السابقة في الاحتشام والتي تلاشت مع وجود دنس المجتمع الحديث، المعايير التي ستساعد - بمشيئة الرب - في التعجيل بالخلاص النهائي، مشيرات لصور سكان أورشليم في القرن الماضي وصور أسلافهن، ومستدعيات لمقولات تلمودية وهالاخية ('طريقة التصرف') فيما يتعلق بالمعايير المثالية للـ tzniyus (الاحتشام)."[169]

الموقف المؤازر في هذا المقال لا يتشاركه الأشخاص القلقون بشأن التطرف المستمر في الجماعات المتدينة. يُسمّي اليهود الأكثر ليبرالية النساء اللاتي يرتدين هذا الغطاء للجسد بازدراء 'أمهات طالبان' أو 'سيدات البرقع'. وفقا للسلطات الحاخامية فإن الخطر الحقيقي هو أن هذه التغطية المبالغ فيها تدفع نحو زيادة اهتمام المجتمع بالجنس. لا يتفق جميع الأزواج مع زوجاتهم المتعصبات، ويجادل البعض بأنه ينبغي إعلان أن ارتداء البرقع (فيتش) جنسي، وبذلك فإنه فعل فاسق مثله مثل ارتداء ملابس أقل من اللازم. الحاخام الأكبر الإنجليزي السابق **دانييل تريمان** Daniel Treiman أشار إلى أن هذه

169- Rachel Ginsberg in: Mispacha Family Weekly, 20 augustus 2013, online. http://www.mishpacha.com/Browse/Article/3469/Running-for-Cover. Rationalist Judaisms. Exploring the legacy of the rationalist medieval Torah scholars, and various other notes, s.n. 28 augustus 2013, online: http://www.rationalistjudaism.com/2013/08/wrestling-with-burqa-babes.html.

الموضة كانت تمتد إلى لندن وبروكلين كذلك في وقت مبكر يرجع إلى عام 2008.[170]

إلى أي حد يكون هذا مدهشا؟ إنه تأثير الشعارات المتكررة، تأثير لا يقل في الدين عنه في الإعلانات: إذا سمعتها كثيرا بما يكفي، ستخرج للبحث عنها. لا يأتي هذا التطور كمفاجأة بين النساء اللاتي يقضين حياتهن كلها – باسم الرب – محاصرات بالرسائل المتطرفة عن تغطية الجسد، والتي تصر على أن عفة المجتمع بأكمله تعتمد على الاحتجاب الأنثوي. كنتيجة لهذا تبرز فكرة أنه يجب عليك أن تذهب إلى أي مدى، عملية مخيفة من المتطلبات التي لا تني تزداد تطرفا، تُفرض في البداية على النفس وبعد ذلك على أكثر ما يمكن من الآخرين:

> "هناك مشتركات كثيرة بين النساء المسلمات الأصوليات واليهوديات الأصوليات. فكلا المجموعتين تعيشان في ظل القواعد الإجبارية لنظامين تشريعيين دينيين قديمين يسيطر عليهما الذكور، نظامان يضعان تشديدا مفرطا على تغطية أجساد النساء باعتباره الرمز الأعلى للصلاح والنقاء المجتمعي."[171]

كلما غطت المرأة نفسها بإصرار – هكذا تمضي الحجة – كلما كان ذلك أفضل. فهي تحمي الرجال من أنفسهم. باتباع هذا الخط من الأصولية المستفحلة، فإن المرأة التي لا تريد أن تزعج أي رجل ليس لديها اختيار آخر غير أن تجعل نفسها محتجبة بالكامل. وتتزايد معايير التغطية إلى حد أنه لم يبق منها – أي المرأة – شيء، نموذج من الانكماش يُذكرنا إلى حد ما بفقدان الشهية.

يهودي بوضوح

الملبس والسياسة ليسا موضوعين منفصلين. فالأحذية والحجاب والأهداب أو الشراشيب

170- http://blogs.forward.com/bintel-blog/128911/the-jewish-burka-comes-to-brooklyn/.

171- Elana Sztokman, Why Jewish Women Are Wearing Burqas, The Jewish Daily Forward Online: http://blogs.forward.com/sisterhood-blog/127114/why-jewish-women-are-wearing-burqas/.

الطقسية المعقدة والتمائم السحرية كلها تشير إلى سلطة أعلى. يُعتبر خلع حذائك إشارة تواضع، خاصة لهؤلاء الذين يجدون أنفسهم على أرض مقدسة.

كلما قرأت أكثر، كلما صادفت تطورات لم تكن تعرف بوجودها. في مرحلة ما حرَّم رجال الدين الإسلاميون أتباعهم من الصلاة دون ارتداء أحذيتهم 'كما كان يفعل اليهود'. منذ تلك اللحظة فصاعدا تقلب هذا التقليد من أحدهما للآخر حتى أصبح – في العموم – اليهود يحتفظون بأحذيتهم داخل الكنيس، بينما يخلعها المسلمون عندما يدخلون المسجد. رغم أنه مازال هناك يهود يصلون حفاة في الأعياد الدينية.[172]

لقد عانى اليهود كثيرا كأقلية من إجبارهم على ارتداء أنواع معينة من الملابس المفروضة عليهم من الخارج. حدث هذا في الغرب المسيحي كما حدث في العالم الإسلامي. في القرن التاسع قام الخليفة العباسي **المتوكل** لأول مرة بتصنيف اليهود والمسيحيين كرعايا يحظون بالحماية لكنهم خاضعون، يُسمون الذميين بالعربية. منذ ذلك الحين فصاعدا كان يجب على اليهود أن يرتدوا ملابس عسلية اللون مع أزرار خاصة على أغطية رؤوسهم أو رقع ظاهرة على الأكتاف أو الأكمام. وفي بعض الأحيان كانت تُقرَّر أحزمة أو أغطية رأس أو أربطة نعال خاصة. معظم هذه القواعد كان يتم تطبيقها على الشعوب المغلوبة، لكن اليهود اضطروا أكثر من مرة لأن يتبنوا قواعد إضافية.[173]

في العصور الوسطى كانت الكنيسة المسيحية في أوروبا كثيرا ما تُبعد المؤمنين بأديان أخرى إلى هوامش المجتمع، كما حدث على سبيل المثال في مرسوم عام 1213 الصادر من البابا **إينوسنت الثالث**، الذي أجبر اليهود والمسلمين من الجنسين في جميع المقاطعات المسيحية على تمييز أنفسهم عن المؤمنين الآخرين عن طريق ملابسهم لمنع الزيجات المختلطة.

كان القصد من وراء قواعد السلطات غير اليهودية هو فصل وعزل المؤمنين اليهود. وعبر التاريخ كانت أكثر علامات تمييز اليهود إيلاما بالطبع هي النجمة الصفراء، تلك التي كانت تمييزا إجباريا لقرون والتي أعاد نظام حكم **هتلر** فرضها في ألمانيا وفي البلاد

172- للمزيد من التفاصيل الثرية انظر Silverman, chapter 3.

173- Ibid. 49.

التي احتلها النازيون.

بجانب القواعد المفروضة من الخارج، كانت هناك أيضا توترات وصراعات مستمرة داخل الجماعة اليهودية. كان هناك الكثير من التصلب، لكن كانت هناك كذلك مساحة للتغيير. في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، جادل يهود كثيرون في أوروبا لصالح قيم التنوير، من أجل المزيد من التعليم والاندماج في المجتمع بشكل أفضل. بشَّر التنوير كذلك بدراسات نقدية جديدة للكتابات الحاخامية القديمة وغيرها من الكتابات الدينية بطرق أقل تزمتا. هذه المناقشة النقدية للثقافة اليهودية والموقف العملي نحو المجتمع المحيط جلبا التقدم والتحرر للمجتمع اليهودي ككل.

ومع ذلك، فقد قاومت الجماعة اليهودية المتعصبة دائما التجديد والتغيير. ومازال المؤمنون المتعصبون يشتبكون في صراعات مع اليهود الليبراليين وغير المؤمنين، في إسرائيل وفي خارجها كذلك. بل إنه يوجد في إسرائيل فصل جنسي على الأرصفة في الأجزاء المتعصبة من القدس، وتُجبَر النساء على الجلوس في مؤخرة الحافلة، بينما يجلس الرجال في المقدمة. علقت امرأة متدينة راكبة في إحدى الحافلات قائلة أنها لا تجد ذلك مهينا. بالنسبة لها كان ذلك هو الرد السليم على التطرف العلماني: «انظر كيف تستعرض نساؤهم على طول الشاطئ بطريقة منحطة.»[174] إن السلوك المتعصب وغير المتسامح لليهود المتعصبين لابسي السواد، والمعروفين بالحريديم، يزعج المجموعات الليبرالية والعلمانية من السكان الذين لا يريدون أي تدخل في ملابسهم وأسلوب حياتهم.

هناك أمثلة لشكاوى شبيهة خارج إسرائيل، مثل تلك الصادرة عن الجماعة المتدينة في (ستامفورد هيل) شمال لندن ضد إعلان (كالفين كلاين) على جانب الحافلات المارة عبر منطقتـ 'هم' والتي تصور عارضة أزياء ترتدي ملابس داخلية والشعار (تقديم الفتنة العارية **Introducing naked glamour**). حاجج أحد اليهود المتعصبين بأن الملصق كان مكروها بالنسبة للجماعة اليهودية في شمال لندن لأن دينهم يحظر رؤية صور النساء في الملابس الداخلية. كما وجد أن تعريض الأطفال لمثل هذا الإعلان أمر 'غير مسؤول'. وجدت (هيئة معايير الإعلان **Advertising Standards Authority**)

174- http://en.wikipedia.org/wiki/Haskalah; http://www.reuters.com/article/201114/11//uk-israel-segregationidUSLNE7AD0D420111114#D5YLUDAzVjzqixoW.97.

ASA))أن الإعلان ليس 'غير مسؤول اجتماعيا'، لأنها كانت عارضة تم تصويرها بشكل طبيعي دون أي إيحاء جنسي، والأطفال يصادفون مثل هذه الدعاية في كل مكان في وسائل الإعلام. ووجدت الصور غير 'جنسية بشكل مفرط، واعتبرت أن الإعلان مقبول للاستخدام في وسائل الإعلام خارج البيوت'. ولذلك خلصت إلى أنه ليس من المحتمل أن هذا الإعلان 'سيسبب إساءة واسعة النطاق أو إهانة خطيرة لأصحاب الآراء الدينية.'[175]

يعتز المؤمنون الليبراليون واليهود العلمانيون كذلك بتقاليدهم، لكنهم يؤولون تاريخ وثقافة وطقوس وتقاليد الجماعة اليهودية بمرونة، بما في ذلك قواعد الملبس.

والآن بما أن المزيد من النساء متحررات في الحديث وظاهرات في المجال العام، فقد طورت منظمة متعصبة في إسرائيل نظارات خاصة باسم (بلا جنس لكنها نظارات No sex but specs) يوجد عليها ملصقان شبه شفافين ينقذا الرجال المتدينين من أي خطر في الشوارع بتشويش الرؤية فيما بعد 10 أقدام، وبهذه الطريقة تقلل كثيرا احتمال إغواء المؤمنين على يد النساء 'العاريات'. الميزة الجديرة بالثناء لهذا الحل العملي هي أن الرجال المرتدين للنظارات يتحملون مسؤولية أمور الإثارة على عاتقهم. تقدم الشركة التي تبيع هذه النظارات كذلك وسائل أخرى لتقليل خطر الإثارة الذكورية، مثل حواجز يضعها الرجال المتدينون بجوار رؤوسهم في الطائرات؛ ليتحاشوا مواجهة النساء اللاتي قد يجلسن بجوارهم.

لسوء الحظ لا تقدم نظارات وحواجز العفة تلك الأمان ضد خطر الصوت الأنثوي، وهو الخطر الذي تم تصنيفه كشكل من أشكال 'العورة'. بالفعل، ومن منظور اليهود الذكور الورعين، حتى صوت المرأة – وبالذات الغناء الأنثوي – يُعتقد أنه يستحضر 'أفكارا شهوانية'. حتى صوت الأم التي تغني أغاني المهد يمكن أن يكون مثيرا لدرجة أن يحوم الجنس غير الشرعي في الجوار.[176] هؤلاء الذين يُسقطون العورة على كل وأي شيء لا يستطيعون تجنب أن يُثاروا باستمرار.

175- http://www.lbc.co.uk/naked-calvin-klein-ad-offends-orthodox-jews-49883.

176- http://rt.com/news/blurry-glasses-orthodox-jews-195/; http://www.examiner.com/article/chastity-lenses-help-devoutjewish-men-avoid-impure-thoughts; Trouw 14 August 2012; Berman 1980: 53.

وتستمر المعركة بين المؤمنين المتدينين المصرين على القراءات الحرفية لنصوص مقدسة من ماض سحيق والليبراليين الذين يجاهدون من أجل التجديد – وينطبق هذا بالتساوي على الدينين التوحيديين الآخرين.

العراة في مقابل المستورين في المسيحية

مثل اليهودية جاءت المسيحية (وفيما بعد الإسلام) من التقاليد السامية. بعد موت **يسوع** – الذي كان هو نفسه يهوديا – أنتجت تعاليمه حركة روحية قوية. انفصلت الكنيسة المسيحية عن الكنيس اليهودي قبل نهاية القرن الأول وامتد هذا المعتقد الجديد – الذي بدأ كطائفة يهودية صغيرة في فلسطين – إلى شمال أفريقيا، وآسيا، وروما، وبلاد الغال؛ وتطور إلى حركة راديكالية في الثقافة المتدهورة للامبراطورية الرومانية.

كان المسيحيون الأوائل متأثرين بأفكار **يسوع** غير التقليدية عن النظام الاجتماعي والعلاقات بين الجنسين. وفقا لهم كان لدى كل إنسان روح وضمير شخصي. لذلك كان لكل شخص حق في الحرية الفردية والمساواة. يجد المرء في هذه الرؤية جذور المجتمع الليبرالي الغربي، مع الحقوق الديمقراطية الأساسية للجميع. كان لدى النساء وظائف في الكنيسة حيث كن يبشرن ويعظن كثيرا مثلهن مثل الرجال الأحرار – وهو تطور استثنائي في سياق الثقافات والأديان المحيطة التي كانت معروفة بعدائها للنساء.

لكن عندما أصبحت الكنيسة مؤسسة أكثر قوة، كان للأفكار الأرثوذكسية والبطريركية اليد الأعلى.[177] بتأثير من الأفكار الإغريقية عن العلاقات بين الجنسين، بذلت السلطات الكنسية أقصى جهودها لتقليل دور النساء بقدر الإمكان. وكان التحكم في المظهر والملبس الأنثوي أحد الوسائل المستخدمة لهذا الغرض.

تعرضت المسيحية لتأثير فلاسفة العصور القديمة الكلاسيكية. أدَّى تعزيز التناقض بين الخير والشر كتناقض بين الروح والجسد إلى رؤية أن الجسد ضار بالروح – مع التأكيد على العفة والأخلاقيات كنتيجة. ولكي نفهم قواعد الملبس في المسيحية الأولى، لا

177- Cf. Elaine Pagels, Adam, Eve, and the Serpent (1988); Ranke Heinemann, chapter VIII.

يمكن الاستغناء عن الأفكار الخاصة بالجنسانية في القرون الأولى من زمننا. حاول الكُتّاب المسيحيون وغير المسيحيين كذلك في العصور القديمة المتأخرة أن يجعلوا قراءهم واعين بقوانين الزيّ في المجال العام.

تأثير التقاليد اليهودية والإغريقية

ترجع الأفكار المتعلقة بالعري في العالم الغربي إلى تراثين: اليهودي والإغريقي. مثّل التراث اليهودي اللاهوت باعتباره محتجبا، وفسَّر العري بأنه فقد للمكانة: فالعراة يُذلون أنفسهم كعبيد أو عاهرات أو مجانين. وكان الإغريق يُجلون الجسد الذكوري الرياضي العاري كصورة شبه إلهية – لكن تلك ليست هي القصة الكاملة. فقد ضم الفكر الإغريقي كذلك رؤية مختلفة للغاية.[178]

في القرنين الأولين كان الجنس يُحاكَم بقسوة متزايدة، وكان ملبس الناس يعكس احتشام أو فسوق مرتديه. كانت العصور القديمة الكلاسيكية مدينة بهذه الصرامة لمدرسة الفلسفة الرواقية ذات التأثير الكبير (300 قبل الميلاد إلى 250 ميلادية)، التي اكتسبت شعبية هائلة في الامبراطورية الرومانية كذلك. كان الأطباء يصفون التقشف والعذرية بدلا من المتعة الجنسية – محبذين الاعتدال عن الإفراط والطمع – ليس خوفا من لعنة الخطيئة، بل لأسباب طبية.

في القرن الثاني وجد **جالينوس** - الطبيب اليوناني الشهير المعالج للامبراطور **ماركوس أوريليوس** – أنه من الجدير بالثناء أن المسيحيين – رغم عدم كفاءتهم في الفلسفة، إلا أنهم ترجموا الفضائل الحقيقية التي كان يضعها في مكانة عالية إلى الواقع:

> "يغدو احتقارهم للموت وعواقبه مقبولا لنا كل يوم، وكذلك زهدهم الجنسي. حيث يوجد لديهم ليس فقط رجال، بل نساء كذلك يعشن حياتهن كلها في زهد جنسي. وتشمل مجموعاتهم أفرادا وصلوا إلى مرحلة من ضبط النفس والتحكم فيها لا تقل عن المرحلة التي وصلها الفلاسفة

178- Laver 11; Mario Perniola in: Barcan 7; Ranke-Heinemann 1990:13.

الحقيقيون.»[179]

باختصار، كان المسيحيون تقريبا في زهد الرواقيين، الذين أدانوا الجنس خارج الزواج وطالبوا بالإخلاص الزوجي من كلا الشريكين. كانت العزوبة ذات سمعة جيدة والزواج لهؤلاء الذين يؤمنون بالعيش دون شهوة. كما صاغها **سينيكا** Seneca في مقال عن الزواج:

> "مخزية كل أشكال الحب لزوجة شخص آخر. لكنه من المخزي كذلك أن يحب المرء زوجته بشطط. في حبه لزوجته يتخذ الرجل الحكيم العقل مرشدا وليس الإحساس... لا يوجد شيء أكثر فسادا من أن يحب المرء زوجته كما لو كانت زانية."

يجب أن يكون الرجل المتزوج زوجا وليس عاشقا. اجتذب هذا المنطق العديد من كبار ممثلي الكنيسة. واحد من آباء الكنيسة – وهو **جيروم** الكاره للمتعة (حوالي 347 – 420) – كان يحب الاقتباس من الرواقيين. في موسوعته (التاريخ الطبيعي) [المجلدان 8، 5] امتدح **بلينيوس الأكبر** الفيل كمثال للطهر؛ لأن هذا الحيوان الجليل كان يتزاوج فقط كل عامين، وهو المثال الذي اقتبسه اللاهوتيون على نطاق واسع وتمت الإشارة إليه في الأدب المسيحي التعبدي.[180]

كانت فكرة أن العذرية تجعل الرجال والنساء 'أطهر' موجودة بالفعل في العالم الكلاسيكي المتأخر الذي وُلدت فيه المسيحية: كان التناسل ضروريا، لكن الحالة العذرية كانت أجدر بالتفضيل. تبنى المسيحيون هذه الفكرة، معتقدين أن نبذ الجنس جعل الإنسان أقرب إلى الله، بينما كان الجنس يدنسه. حتى يومنا الحالي، تظل العزوبة الإجبارية للقساوسة الروم الكاثوليك – التي صدر مرسوم بها لأول مرة في القرن الثاني

179- مقتبس في Ranke-Heinemann 9ffv؛ وانظر أيضا الفصلين الأول والثالث من هذا الكتاب الرائع الذي لخصت بعض الأفكار منه هنا. فقدت المؤلفة منصبها الأكاديمي كأول أستاذة أنثى لعلم اللاهوت الكاثوليكي الروماني، لأنها فسرت ولادة مريم البتولية ليس بطريقة بيولوجية بل بطريقة لاهوتية. مازال المسيحيون يتشاركون مع المتصوفة شكوكهم في مذهب المتعة والأمور المادية، لكن المسيحية لم تكن هي أول من قدم الأفكار الحضارية مثل ضبط النفس والاعتدال في عالم وثني مليء بالفجور، كما يُظن غالبا.

180- Ibid. 10-14.

عشر – كبقايا عنيدة لهذا الاعتقاد.[181]

كان التأكيد على الجسد الخارج عن السيطرة والاختلافات الجنسية يتعلق أساسا بضمان أن يبقى التراتب البطريركي مهيمنا، وهي الفكرة التي تسللت إلى الكنيسة بشكل حتمي، وهكذا كان يقال للنساء مرارا وتكرارا أنهن ينبغي أن يكن خاضعات لأزواجهن ومن الأفضل ألا يُشاهَدن أو يُسمَعن في المجال العام.

في الأصل لم تربط الكنيسة العري بالخزي. فكما رأينا، كان المتقدمون للتعميد المسيحي يخلعون ملابسهم قبل تغطيسهم في حضور الآخرين. وفي العصور الوسطى كان المسيحيون كذلك يسيرون في مواكب عراة تماما أو مرتدين فقط لمئزر، متضرعين للسماء من أجل المطر في أوقات الجفاف.[182] بفضل التأثيرات المستمرة من الخارج، غدت المسيحية تؤمن بأنه ينبغي تحويل كل الاهتمام بعيدا عن الجسد الشهواني الفاني، الذي كانت تغطيته تساعد في تبديد الأفكار الفاسقة ومنع الجنس غير المرغوب.

جاذبية الحياة الزاهدة

تعني كلمة askesis اليونانية في الأصل التمرين أو التدريب (في الألعاب الرياضية على سبيل المثال)، انضباط الجسد والروح. كان الزهد Asceticism مسألة احتواء لاحتياجات الجسد وتيسير للعفة الجنسية.[183] جعلت الحياة الزاهدة الجسد أكثر طاعة، ومكنت الناس بهذا من التحكم في الرغبة والعاطفة والأفكار الشريرة والأحلام الفاسدة والاحتلام في الليل. مثل الرواقيين، رأى المسيحيون ميزات هائلة في الصوم والتقشف وضبط النفس من أجل خيرهم. ميَّز السلوك الزاهد المثالي واللباس المحتشم المؤمنين عن بقية العالم. وتؤكد النصوص المسيحية التي يرجع تاريخها إلى القرون الأولى هذا المسار من الأحداث في قصص عن الزاهدين الصائمين، مثلا عن عذراء لم تكن تأكل إلا أيام السبت والأحد لمدة

181- Upson-Saia 2011. Ranke-Heinemann. 13, 50 and 43
لأنه منذ عام 1046 لم يعد مسموحا للقساوسة أن يتزوجوا ولم يكن ممكنا لغير الرجال العزاب أن يُرسموا كهنة

182- Bologne 129ff.

183- Ibid. 25.

30 عاما، أو عن راهب نحل جسده الصوَّام كثيرا لدرجة أن أشعة الشمس كانت تخترق عظامه وتشع عبرها.[184]

كان الأكل مرتبطا بالرغبة الجنسية وقصة الفاكهة المحرمة التي جلبت الموت للعالم. كان التواضع والصوم موصى بهما للرجال والنساء، لكن النساء على وجه الخصوص رأين الصوم والعذرية فرصة لتحسين مكانتهن الاجتماعية التي لم تكن تُقدَّر حق قدرها. في تلك القرون الأولى بلغ الشطط ببعضهن مبلغا دراماتيكيا بعيدا: فقد أصبحن نحيلات كالأعواد، وأصبن بالجفاف، وذبلت أثداؤهن كأوراق الشجر الجافة، وهؤلاء اللاتي استمررن في الصوم بجنون توقفن عن الحيض. عن طريق محو أنوثتهن – هكذا سار المنطق – كن يجعلن أجسادهن المنهكة أكثر جاذبية للمسيح.[185]

وفقا للاهوتي والأسقف اليوناني **باسيل Basil** من **Ancyra** (أنقرة الآن) – الذي مات عام 364 – فقد خلق الرب الجسد الأنثوي أكثر جمالا للنظر وأكثر جاذبية للمس من جسد الذكر. لقد منح الرب النساء القدرة على الجاذبية الجسدية للرجال 'لكي لا تكون الأنثى عاجزة تماما في تبعيتها'. وكان الصوم يقلل من هذه الجاذبية. فالعذراوات الحقيقيات كن يطهرن أرواحهن وأجسادهن حتى لا تبقى فيهن ذرة من جاذبية. بتحجر أجساد الزاهدات، كانت العذراوات يتقلصن إلى 'صور منحوتة' لم تعد حساسة لمحفزات الحواس والخيالات المتعلقة بالمتعة:

> "رغم أنهن مكتسيات بجسد أنثوي، إلا أنهن عن طريق الزهد قد جعلن الشكل المتولد عنه يتراجع لصالح الروح، وجعلن أنفسهن يبدين مثل الرجال عبر الفضيلة، بالضبط مثلما خُلقت أرواحهن مساوية. وبالضبط مثلما ينتقل الرجال – عبر الزهد – من كونهم رجالا إلى مرتبة الملائكة، فهكذا أيضا تنتقل هؤلاء النساء – عبر الزهد – من كونهن نساء إلى نفس المرتبة التي يبلغها الرجال.»[186]

184- Ibid. 222.

185- Shaw 16-17.

186- Quoted in Shaw 237.

ومع ذلك سارع الأسقف **باسيل** ليضيف إلى هذا البيان الواعد بشكل مبالغ أنه في هذه الحياة تتساوى النساء مع الرجال فقط في مسألة الروح: «فقط في الحياة القادمة سيتساوون في كل شيء.» فبالرغم من كل الجهود التي لا تكل من أجل محو كل المتعة الأنثوية من كينونة المرأة الداخلية، ولكي تصبح ذكورية قدر المستطاع، إلا أن جسد المرأة المادي سيعترض الطريق دائما. في هذا المنطق الواضح ستبقى العذراء الأنثى – مهما فعلت للتشويش على جمالها – 'منطقة إغوائية خطيرة لبقية الحياة الأنثوية'. لكونها مسجونة في جسد المرأة، فإن أي طهر مكتسب عبر الجهود البدنية والروحية لن يكون كافيا أبدا. لأنه حتى بعد أن يذهب جمالها تماما، فإن رؤية أو لمس جسدها المتحجر قد يجازف بإشعال شهوتها وسقوطها – أو شهوة وسقوط الرجال.[187]

تحكي قصص حياة النساء الزاهدات عن عملية التغير. على سبيل المثال قصة **بيلاجيا** Pelagia، راقصة وممثلة جميلة من أنطاكية. يصف كاتب سيرتها – من المحتمل أنه كان شمّاسا من المدينة – كيف كانت هذه السيدة الجذابة والثرية تتحرك وسط الناس، مصحوبة بالخدم والمعجبين:

> "كانت ترتدي في يديها وقدميها أطواقا حول الذراع وخيوطا من الحرير وخلاخيل مزينة بكل أنواع اللآلئ، بينما تلتف حول عنقها عقود وخيوط من القلائد واللآلئ. كان جمالها يصعق من يرونها، ويأسرهم في رغبتهم فيها.»

بعطرها وأدوات تجميلها، وبسلوكها المتحرر والجريء، وببشرتها البيضاء الخالية من العيوب؛ كان جمالها يثير الجميع، ولم يكن هناك رجل يستطيع تجنب السقوط القاتل في حبها. يحكي الشمّاس بعد ذلك كيف كان منظرها بعد سنوات من التدريب الزاهد، عندما ذهب لزيارتها على (جبل الزيتون):

> "فشلت في التعرف عليها لأنها كانت قد فقدت تلك المحاسن التي كنت أعرفها؛ كان جمالها الخلاب قد ذوى، ووجهها الضاحك والمشرق الذي عرفته أصبح قبيحا، وعيناها الجميلتان قد أصبحتا فارغتين وغائرتين

187- Ibid. 236-38.

كنتيجة للصوم الكثير والمحافظة على قيام الليل. وكانت مفاصل عظامها المقدسة – كلها بلا لحم – ظاهرة من تحت جلدها بسبب الهزال الذي حل عليها من الممارسات التقشفية. في الحقيقة كانت بشرة جسدها بأكملها خشنة وغامقة مثل الخيش، كنتيجة لممارستها المرهقة.»[188]

يكتب كاتب سير قديسين آخر عن القديسة **أبوللونيا المصرية** التي عادت – أقرب للموت منها للحياة – من صيامها في مستنقع مليء بالبعوض حيث غدا جسدها مجوفا 'كدرقة سلحفاة' ولم يبق فيها أي مادة دهنية.[189]

في جهادهن من أجل التقدير كانت بعض النساء مستعدات للتضحية بكل شيء ليتخلصن من أنوثتهن الجسدية وليصبحن أشبه بالرجال. كان جفاف دمهن ولبنهن سيحررهن من مكانتهن الدنيا ثقافيا واجتماعيا. بالطبع أبطلت أثداؤهن الذابلة وحيضهن الناضب قدرتهن على الولادة، وهو أكبر اختلاف جوهري بين الرجال والنساء.

وفقا للقديس **جيروم** (حوالي 347 – 420) كان يجب على الزاهدات الإناث أن ينبذن مسألتين هامتين: الجنس والتناسل. كان المديح المفرط للعذراوات الزاهدات الطاهرات – وكن دائما أقلية صغيرة – يتم تأكيده جنبا إلى جنب مع صور سلبية للنساء في نفس المجتمع. كان يتم تصوير الزاهدات المقدسات المثاليات كنماذج لكل النساء الأخريات اللاتي لم ينبذن الطعام والجنس، واللاتي يحضن باستمرار كل شهر إذا لم يكن حوامل.[190]

كان الرجال والنساء الذين يريدون أن يبقوا بلا زواج يختارون الذهاب للدير، حيث كانوا يعيشون في جماعات مستقلة تنتج دخلها الشخصي. كان الرهبان المسيحيون يرون حياتهم في الدير كرمز للتفاني في الله، وهو التقليد الذي مال منذ هذا الوقت إلى السقوط في حالة معلقة. كان الرهبان يلبسون أردية ويحلقون شعرهم على شكل طاقية صلعاء كعلامة على أنه قد تم قبولهم في سلك الرهبانية وأنهم ابتعدوا عن متع الدنيا. (الصورة رقم 27).

188- Shaw 242-243, http://www.vitae-patrum.org.uk/page46.html.

189- Ibid 245.

190- Upson-Saia 51ff; Rosemary Radford Ruether, Misogynism and virginal feminism in the Fathers of the Church, 1974. 150

وكانت الراهبات يغطين شعرهن وأجسادهن بأقمشة بيضاء أو رمادية أو سوداء طبقا لقواعد النظام اللاتي انتمين إليه. وعادة كانت وجوههن وأيديهن فقط هي ما تبقى مكشوفة. حتى القرن السادس كانت الأديرة في الشرق الأوسط تسمح بوجود رهبان من الجنسين، لكن عندما اكتسبت هذه الممارسة سمعة أقل من أن توصف بالطيبة، تم العمل بنظام الفصل الصارم بين الجنسين.

يشبه غطاء رأس الراهبات مزيجا من الخِمار اليوناني - الروماني وغطاء الرأس الإسلامي للإناث والذي أصبح يُسمى بالحجاب. في العصور الوسطى المسيحية كان هذا النوع من الملبس علامة على التقوى والاحتشام، كما يمكن أن يُرى في اللوحات التي تمثل مشاهد من حياة **مريم** العذراء وأسرتها. في لوحة مولد **مريم** التي رسمها فنان مجهول ترتدي كل النساء الورعات اللاتي يعتنين بأم مريم بعد ولادتها ملابس محتشمة تغطي شعورهن ورقابهن ولا تختلف عن الطرق التي تغطي بها النساء المسلمات المتدينات أنفسهن اليوم. (الصورة رقم 28).

في العصور الوسطى الغربية كانت توجد درجات من العفة - بنفس القدر الذي كانت توجد به في ثقافات أخرى - تعتمد على المراحل المختلفة من حياة النساء - العذرية، والزوجية، والترمُّل. وكان بعض اللاهوتيين يقدمون الإناث كعرائس للمسيح، واللاتي يسعدن عريسهن بالصيام:

> "[النساء] المقيدات بالعالم واللاتي يُجمّلن أجسادهن بالزيوت الحلوة، والروائح والعطور، وبالثياب الباذخة والذهب لكي يبهجن الرجال، لا يستطعن أن يبهجن الرب. لا يطلب المسيح منك أيا من هذه الأشياء، لا يطلب إلا قلبا طاهرا وجسدا غير مدنس يُميت الصوم شهواته.»[191]

كان المستوى الأول وأفضل ما يمكن إنجازه من العفة الأنثوية هو العذرية، وكانت الفتيات يُنصحن بالإبقاء على طهرهن الجنسي بكرا من أجل الزواج. وكان المستوى الأفضل الثاني هو الامتناع عن الجنس، والذي كان يُعتبر قرارا جديرا بالثناء؛ أما المستوى الثالث من العفة فكان متروكا للنساء المتزوجات اللاتي كن قد فقدن عذريتهن لا محالة.

191- Basil of Ancyra, De virginibus, quoted in Shaw 250.

بالنسبة للنساء اللاتي كن قد مارسن الإخلاص طوال حياتهن، كانت فكرة العذرية كمثال تتحول إلى فكرة 'العفة الملتزمة بزوج واحد'. في جميع الأحوال لم تكن العفة مسألة سلوك فقط، بل كانت كذلك مسألة ملبس محتشم.

في الكتابات المسيحية من القرون الأولى، يُقدَّم الأبطال الروحيون كنماذج للعفة وضبط النفس. إنهم لا يخضعون للإغواءات الدنيوية. تُصور اللوحات كيف يقاوم النُسَّاك الشهيرون الإغراءات التي تواجههم. والمثال الشهير هو القديس **أنطونيوس** (251 – 356)، وهو قديس مسيحي أصله من مصر. وفقا للقصص فقد قضى هذا الزاهد وقتا في الصحراء الليبية حيث وضعه الشيطان في التجربة. وأصبح صموده النموذجي موضوعا محببا في فن الأيقونات القبطي والأورثوذكسي الشرقي.

في الفن الغربي، يتم تصوير **أنطونيوس** غالبا عند مدخل كهف ناسك عفيف، بينما يبدو الشيطان في شكل نساء عاريات أو يرتدين ملابس مغرية ويبذلن أقصى جهودهن لإبعاده عن الصراط المستقيم. ويتمكن **أنطونيوس** من التخلص من هؤلاء الفاتنات عن طريق تعذيب جسده الهش. وكي يُبعد أي أفكار آثمة يقف بقدميه في النار. لا عجب أنه يتم التوسل بهذا القديس في حالات الأمراض الجلدية مثل الحمرة والقوباء، التي كانت تشير في الأزمنة الأقدم إلى 'نار القديس **أنطونيوس**'. تلك هي الطريقة التي كان الرجال النموذجيون العُزَّاب بسيطو الملبس يرفعون بها مرآة أمام المجتمع ليُروه كيف كان المسيحيون يميزون أنفسهم عن بقية المجتمع – من الوثنيين والهراطقة، المفرطين في الطعام والشراب، المتمرغين في المتع الجنسية التي تحول دون خلاصهم في المستقبل.

في البحث عن هوية مسيحية

مثلهم مثل الحاخامات، كان اللاهوتيون المسيحيون المؤثرون (كان يُشار إليهم بآباء الكنيسة في القرون الأولى) يخبرون أتباعهم كيف يلبسون، وكانوا يولون اهتماما خاصا بمظهر النساء. وكانت وسائل الترف الدنيوي والثياب التافهة والمجوهرات وأدوات التجميل كلها تُربَط بالرغبة البذيئة في الجنس. وكان المسيحيون الذين يرتدون ملابس

ومجوهرات فاخرة يُقرنون باستنكار بفُجر الوثنيين الفاسقين.[192]

كان التشديد الاجتماعي القوي على الملبس المحتشم دون زينة يُظهر هوية المرء المسيحية في المجتمع العلماني المحيط – وهو مثال يمكن مقارنته بموقف بعض المسلمين المعاصرين في الغرب. في القرون الأولى من المسيحية صار الملبس والمظهر يلعبان دورا هاما في الأفكار المتعلقة بالهوية والعلاقات بين غير المؤمنين والمسيحيين، وبين الرجال والنساء، كما تعكس النصوص القادمة من هذا الزمن.

شدد **إكليمندس السكندري** Clemens of Alexandria (حوالي 125/150 – 215) على أنه ينبغي تغطية النساء بالكامل: "إن وعيهن ذاته بطبيعتهن الخاصة يجب أن يستدعي مشاعر الخجل.» لا يشرح الرجل لماذا ينبغي أن يحدث هذا، لكنه يتحدث عن الطريقة التي ينبغي أن تتزيا بها النساء في الفضاء العام: «ينبغي أن تكون النساء محجبات بالكامل، إلا عندما يكنّ في البيت. إن حجب وجوههن يضمن أنهن لن يغوين أحدا إلى الخطيئة.»[193]

في البداية لم تكن هذه القاعدة موجودة في الكنيسة المسيحية، حتى أدخل بعض قادة الكنيسة 'من منطلق احترام الرب' غطاء الرأس للنساء في الأوقات المقدسة؛ مثلا خلال الصلاة أو القربان المقدس. فيما بعد، وفي عدد من الكنائس كانت النساء ملزمات بتغطية أنفسهن بالكامل، وفي بعض الأحيان كان ذلك يشمل حتى أيديهن – وهو إجراء تنعكس فيه صورة القواعد اليهودية المتزمتة. استنادا على الشروح المضجرة للنصوص التوراتية (التي تُرجمت بشكل خاطئ عن اليونانية وفقا للمتخصصين[194]) كان يجب على النساء أن يغطين شعورهن أو يحلقن رؤوسهن، وكان ينبغي أن يلبسن باحتشام، دون تسريحات شعر واضحة أو إضافات فاخرة.

ركّز **ترتليان** Tertullian بشغف (حوالي 160 – 230)، وهو واحد آخر من آباء

192- Tertullianus De Virginibus Velandis; http://www.newadvent.org/fathers/0403.htm; http://www.tertullian.org/works/de_virginibus_velandis.htm; Ranke-Heinemann 126-129; Upson-Saia 48ev, zie ook Shaw 1998.

193- Ranke-Heinemann 126-129; cf Shaw 1998.

194- As Ranke-Heinemann convincingly argues on pp.126-129; Upson-Saia 61ff.

الكنيسة المهمين في شمال أفريقيا، على الهوية المسيحية ولباس النساء: من سن البلوغ ينبغي على الفتيات أن يتحجبن دائما خارج البيت، ولابد أن يكون هذا إلزاما في الكنيسة كذلك. في مدينة قرطاج في زمانه – حتى ذلك الوقت – كان مسموحا للفتيات وللنساء غير المتزوجات أن يتخذن قراراتهن بأنفسهن، وقد أظهرن بقوة رفضهن لأن يبدأن الآن فجأة في ارتداء الحجاب.

اضطر **ترتليان** إلى الاعتراف للسيدات العزباوات القرطاجيات المحتجات بأن تنويهات الرسول **بولس** المتعلقة بغطاء الرأس ليست واضحة. جادلته العذارى بأن النص كان توجيها للنساء المتزوجات وبالتالي لا ينطبق عليهن. رد عليهن في البداية بحجة أن العادة في المنطقة أن المرأة التي تختار أن تُظهر جسدها كانت 'تُعهِّر نفسها'. ثم حاجج علاوة على ذلك بأن معظم الكنائس كان اختيارها بالفعل لصالح الحجاب، وبما أن كل الطوائف المسيحية في منطقة البحر المتوسط تنتمي لكيان كنسي واحد؛ فإن الانحراف عن هذه العادة في قرطاج سيبذر بذور الشقاق.

كان هذا الباحث اللاهوتي يؤمن أن الرجال والنساء بعد الموت سيتشاركون نفس الطبيعة الملائكية، لكن على الأرض تنتمي النساء إلى نوعية مختلفة عن الرجال، سواء كن عذراوات أو أرامل أو زوجات. كانت العذراوات يستخدمن أدوات التجميل، ويثرن ضجة حول مظهرهن، ويصبغن شعورهن، ويرتدين الحلي، ويُحطن أجسادهن بعباءات جميلة، ويضغطن أقدامهن في أحذية ضيقة، وهكذا – بكل الرذائل النسائية التقليدية. جادل **ترتليان** بأن الحجاب كان يربط نساء زمنه بكل ممثلات جنسهن الأسبق رجوعا إلى **حواء**. فكل النساء يتشاركن القدرة على إغواء الرجال وهذا هو السبب في كون الحجاب ضروريا لجنس الإناث بأكمله. في تفسيره كانت مسؤولية الاستثارة الذكورية تقع مرة أخرى وبشكل حصري على عاتق النساء.

وصف **ترتليان** العادات المحيطة في شمال أفريقيا وممارساتها المختلفة للحجاب. كان لدى اليهود تقليدهم المميز في التغطية، بينما اختارت النساء الأخريات أن يغطين رؤوسهن جزئيا فقط بالعمامات، أو شرائط الكتان أو القبعات. ولم يكن محبذا لعدم تغطية الجباه. ومدح «النساء الوثنيات في الجزيرة العربية» – كما أطلق على النساء من

الثقافات قبل الإسلامية – لأنهن «لا يرتدين غطاء للرأس فقط، بل غطاء للوجه أيضا، حتى أنهن قد يقنعن بعين واحدة مكشوفة للاستمتاع بنصف الضوء، بدلا من أن يُعهِّرن الوجه بأكمله.»[195] بالنسبة له كان حجاب السيدات الرومانيات – بقطعة قماش تغطي فقط أكتافهن وآذانهن ورقابهن – غير مؤدٍ للغرض.

واحد آخر من آباء الكنيسة المهمين هو القديس **أوغسطين** (354 – 430) أكَّد كذلك على التراتبية البطريركية للجنسين: "في نظام الطبيعة" خُلق الرجل لتكون له السلطة على المرأة "كما تتحكم الروح في البدن". يأمر الرجال وتلبي النساء. وُلد هذا القديس في شمال أفريقيا مثل **ترتليان**، ومات في هيبو (المعروفة الآن بعنابة في شمال شرق الجزائر)، حيث خدم كأسقف لسنوات طويلة. بناء على خبراته الجنسية الشخصية عندما كان شابا أصغر في السن، كان يؤمن بأن البشر غير قادرين على ممارسة حرية الإرادة.

مع ذلك، وبالنسبة للمتحولين إلى المسيحية في القرون الثلاثة الأولى؛ كانت الحرية الأخلاقية مرادفة للرسالة المسيحية. أين ذهبت قوة حرية الإرادة تلك في السنوات التالية؟ في النهاية أصبحت القصة المسيحية الأصلية عن حرية الاختيار وضبط النفس والمسؤولية قصة إذعان بليد للخطيئة، مع ارتباط الخطيئة بشكل أساسي بالجنس والمتعة.[196]

دفعت عقيدة **أوغسطين** عن الخطيئة الأصلية بأهمية حرية الإرادة الإنسانية إلى المؤخرة. ومهَّد الرجل الطريق لألف عام من الأفكار الغربية عن الأخلاق الجنسية، مع أصداء تتردد في الحياة اليومية بعد وقت طويل من اختفاء حجاب النساء المسيحيات. في كنيسة الروم الكاثوليك لم يتم إلغاء غطاء الرأس الإلزامي للنساء خلال القدَّاس إلا في عام 1965. في بلاد جنوبي أوروبا وأمريكا اللاتينية وكذلك في الكنائس الأورثوذكسية الشرقية، مازالت نساء كثيرات يرتدين إيشاربا أو حجابا قصيرا من الدانتيل. وفي بعض المجتمعات البروتستانتية المحافظة في غربي أوروبا وأمريكا الشمالية مازالت النساء

195- Tertullian in Upson-Saia 62-63.

196- Cf. Elaine Pagels xxvi-xxvii, 99 and 108-114, and Ranke-Heinemann
التي أشارت إلى أوغسطين على أنه «الرجل الذي مزج المسيحية مع كراهية الجنس والمتعة في وحدة منهجية».

يشعرن بأنهن ملزمات بلبس القبعات؛ على أساس تأويل حرفي لنص توراتي.[197] لم تعد معظم الكنائس تحدد أي غطاء معين، لكن مازال مطلوبا من النساء أن يلبسن باحتشام عندما يزرن الكنيسة. في صيف عام 2014 رأيت إيشاربات من الدانتيل متاحة عند مدخل كاتدرائية تروا في فرنسا مع رسالة تقول: «السيدات والآنسات، هذه الإيشاربات تحت تصرفكن، إذا كنتن تعتقدن أنكن بحاجة لتغطية أنفسكن أكثر من منطلق احترام هذه الكاتدرائية.» ليس هناك إجبار على أي أحد ويمكن للنساء أن يحددن اختيارهن بأنفسهن، لكن من الملاحظ أن طلب الاحترام يتوجه فقط إلى النساء.

تحث المسيحية الرجال والنساء على الاعتدال في المأكل والمشرب، وارتداء ملابس بسيطة ومحتشمة، وبشكل خاص على التضامن مع الأقل حظا في هذا العالم؛ سواء كانوا أصدقاء أم أعداء. وفي نفس الوقت حرص آباء الكنيسة واللاهوتيون اللاحقون لقرون كثيرة على تأكيد الاختلافات بين الرجال والنساء من أجل ضمان السلطة الذكورية، ولتجنب نقاط الضعف الذكوري نحو الإثارة الجنسية بفرض قواعد ملبس مقيدة على النساء. مع القليل من التأكيد على ضبط النفسي الذكوري، كما يبدو.

في أزمنة سابقة لم يكن بمقدور المرأة أن ترتدي ملابس الرجال، والعكس صحيح؛ لأن الرب سيكره ذلك وفقا للعهد القديم[198] - وهي القاعدة التي كان يجب على اليهود والمسيحيين كذلك أن يمتثلوا لها (ومازال الحال كذلك في أماكن عديدة). لكن اليوم في معظم أجزاء العالم لم تعد البنطلونات أو الجينز والجاكتات تُعتبر ملابس حصرية للرجال؛ وهو مثال واضح لقابلية الآراء حول الملابس للتغيير.

في النصف الأول من القرن الماضي - وأحيانا فيما بعد - لم يكن مسموحا لبعض الفتيات الأوروبيات بحضور فصولهن الدراسية برقاب أو أذرع أو سيقان مكشوفة. حاليا، لا يميز معظم المسيحيين أنفسهم بملبس منفصل، رغم أن المجموعات الأورثوذكسية تميل إلى اللبس بطريقة أكثر وقارا واحتشاما، ومازالت النساء الأورثوذكسيات يغطين

197- رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 11:5: «وأما كل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها لأنها والمحلوقة شيء واحد بعينه. إذ المرأة إن كانت لا تتغطى فليُقص شعرها وإن كان قبيحا بالمرأة أن تقص أو تحلق فلتتغطَّ.»

198- سفر التثنية 22: 5

رؤوسهن عند الذهاب إلى الكنيسة.[199] لا يأخذ معظم المسيحيين قواعد الملبس التوراتية بشكل حرفي في القرن الواحد والعشرين: فهم يميلون إلى رد المحظورات المطلوبة إلى السياقات الثقافية لآباء الكنيسة البطريركيين. في ضوء هذا يبدو الميل المتزايد بين رجال الدين المسلمين المتشددين لأخذ القواعد القديمة والتقاليد الدينية الخاصة بالملبس حرفيا أمرا مدهشا. فالمحظورات التي أُدخلت في القرون الأولى للإسلام بعد وفاة النبي **محمد** تنعكس في تغطية الجسد المتزايدة بين المسلمات طوال السنوات الأخيرة.

الخزي المستور في الإسلام

الكلمة العبرية عروة erwah والكلمة العربية عورة (مثناها: عورتان) يحملان نفس المعنى: ويشيران لأعضاء الجسد التي لابد من أن تظل مغطاة. تمتد عورة الرجل في الإسلام من السرة إلى الركبة، بينما بالنسبة للنساء فقد أعلن رجال الدين أن جسدها بأكمله نطاق للعيب. تُلزَم النساء بطريقة روتينية على تغطية أجسادهن فيما عدا الوجه واليدين، وفي الممارسة المتزمتة يجب تغطية حتى هذه الأجزاء بحرص في حضور الجميع باستثناء الأقارب الأقربين. لكن توجد آراء مختلفة كلية في الإسلام كذلك، والتي تُمنح اهتماما أقل بكثير في وسائل الإعلام سواء من المسلمين أو غير المسلمين. فيما بعد سنقدم المزيد عن هذه الآراء.

- أصل كلمة (حجاب) الكلمة العربية (حَجَبَ) التي تعني 'غطى' أو 'أخفى'. ميتافيزيقيا تشير كلمة (الحجاب) إلى 'الحجاب الذي يفصل الإنسان أو العالم عن الله'. كان المعنى الأصلي هو 'المظهر والسلوك المحتشم'، وهو المطلوب من جميع المؤمنين، الرجال وكذلك النساء. الآن يتم فهم الكلمة بشكل أساسي كدلالة على الطرحة التي تستخدمها النساء المسلمات لتغطية رؤوسهن وأجسادهن. وبالرغم من أن العلماء المحافظين يصرون على أن وجه المرأة ويديها ينبغي أن يُغطَوا كذلك، إلا أنه من الممكن أن يسمحوا بكشف اليدين طالما أن هذا الفعل لا يسبب فتنة: 'إذا كانت جميلة وتُجمّل وجهها ويديها بمواد خارجية،

199- Cf. http://www.headcoveringmovement.com/ of http://www.verhoevenmarc.be/PDF/kleding.pdf

أو إذا كان المجتمع من حولها فاسدا لا يغض فيه الرجال أبصارهم، عندئذ يُحرَّم عليها أن تكشف وجهها ويديها.' وفقا للآراء المحافظة، هناك خطر آخر هو استخدام الحجاب من أجل 'شهرة دنيوية':

"ثوب الشهرة هو أي ثوب يرتديه المرء ليشتهر. ينطبق هذا سواء كان الثوب باهظ الثمن ويُظهر الإعجاب بهذه الحياة الدنيا أو تم اختياره من خامة رديئة ليُظهر قلة الاهتمام بهذه الحياة الدنيا... سيجعل الله [هذا الشخص] يرتدي ثوب ذل في يوم القيامة [و] ثم تلهب فيه النار.»[200]

بأي الحجج يبرر القرآن والأحاديث النبوية والكتابات الإسلامية اللاحقة التغطية الدينية، وكيف يرى المسلمون أنفسهم هذه القواعد؟ لقد اختلفت إجابات العلماء المسلمين عبر مجرى التاريخ، ومازالت المناقشات الحماسية حول الموضوع مسألة متوهجة – ومرة أخرى يجذب ملبس المرأة اهتماما أكبر بكثير من ملبس الرجل.

التراث الإسلامي وزيّ الرجل

كما في اليهودية والمسيحية بالضبط، كان محرَّما في التراث الإسلامي على الرجل أن يرتدي ملابس النساء، والعكس صحيح: إذ كان يجب أن تكون الاختلافات بين الرجال والنساء ظاهرة بوضوح. وفقا لحديث رواه **البخاري** (810 – 870) – وهو جامع ثقة للأحاديث – 'فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال.' ويطلب رجال الدين المتشددون من الرجال أن يلبسوا اليوم بنفس الطريقة التي كان الرسول (كما يتخيلون) يلبس بها في زمنه عندما كان مفترضا بالرجل – وفقا للعادة السائدة – ألا يطيل ثيابه إلى أسفل كاحليه (كما كانت تفعل النساء وقتها). وكان الرجل الذي لا يحترم تلك القاعدة يُلعن، وتنتظره نار جهنم: 'ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار'. مرَّة أخرى في صحيح مسلم: ثلاثة لا ينظر الله يوم القيامة إليهم، ولا يكلمهم، ولا يزكيهم.. من بينهم المسبل إزاره أي من يدني ثوبه

200- Https://en.wikipedia.org/wiki/Hijab; https://radiyeen.wordpress.com/2010/09/22/the-obligatory-conditions-for-anislamic-hijab/, http://islamqa.info/en/36891.

لأسفل كاحليه.[201]

ستصيب لعنة مشابهة الرجل الذي يحلق لحيته، لأن من يفعل ذلك يتشبه بالنساء. أطلق المسلمون الملتزمون لحاهم تكريما للأنبياء، وعلى وجه الخصوص النبي **محمد**، وتمييزا لأنفسهم عن غير المسلمين، وكثيرا ما يستشهد المسلمون المعاصرون بنفس الأسباب. كانت عادة عدم الحلاقة منتشرة قبل وقت طويل من وجود الإسلام، كما تُظهر اللوحات البابلية والمصرية القديمة، وفي التراث اليهودي الأورثوذكسي مازال إطلاق اللحى الكبيرة إلزاميا.

في قواعد الحجاب التالية اللازمة للرجال المسلمين، تدهشنا التشابهات مع القواعد اليهودية:

- لابد أن يغطي الرجل عورتيه طوال الوقت، من جميع الناس ماعدا زوجته أو الطفل الصغير جدا.
- لابد أن يغطي عورتيه في الصلاة.
- لا ينبغي أن يكون ثوبه مشدودا جدا بحيث يصف ما يفترض به أن يداريه.
- لا ينبغي أن يكون رقيقا بحيث يُظهر لون بشرة الأجزاء التي ينبغي تغطيتها.
- لا ينبغي أن يكون الزي مشابها لأي زي يعتبر في العموم زيا أنثويا.
- لا ينبغي أن تكون ثياب شهرة أو كبرياء أو غرور.
- لا ينبغي أن تكون مصنوعة من الحرير الصافي.
- ليس مسموحا للرجل بلبس الذهب حتى غير الحقيقي.[202]

في أيامنا هذه يضيف رجال الدين المتشددون عناصر جديدة: فماركات الملابس الغربية المعروفة محرمة، لأنه يجب على المسلم أن يكون لباسه محتشما وبسيطا. ويقدم المتعصبون

201- Sahih Muslim quoted on http://www.2muslims.com/directory/Detailed/223911.shtml.

202- E.g. Sayid Saeed Akhtar Rizvi 1997:20-21; https://ahlussunnahpublicaties.wordpress.com/2013/11/25/de-correctekledij-van-de-broeder-enkele-belangrijke-lijnen/

قواعد صارمة للمؤمنين المعاصرين تستند على موقف سلبي تجاه غير المسلمين. ينبغي على المسلم أن يرفض ارتداء ثياب أولئك الذين ينتمون لأديان أخرى أو غير المؤمنين:

> "يُفترض أن يكون المسلم مميزا عن غير المسلمين في مظهره وملبسه، لأن هذا هو ما يقوله الإسلام. لا ينبغي على المسلم أن يرتدي أي شيء يعتبر ملبسا مميزا للكفار. بالنسبة لربطات العنق، لو كان بمقدور الشخص أن يستغني عنها، فذلك أفضل؛ أما إن كان مضطرا للبسها فلا خطأ عليه إن شاء الله – لكن ينبغي عليه أن يتأكد أنها غير مصنوعة من الحرير الطبيعي وأنه ليس عليها صلبان أو صور مخلوقات حية."[203]

هذه المحظورات مستوحاة من الحاجة للأصالة، لكنها أيضا مستوحاة من الخوف من أن المسلم المرتدي لثياب غير المسلمين قد يتبنى كذلك سلوكهم 'غير الأخلاقي' المفترض وخصالهم السيئة أو عدم تقواهم. ومن أجل تشجيع ارتداء ثياب الرجال من زمن النبي، هناك حجة أساسية ألا وهي أن الرجال أنفسهم يفضلون كذلك أن تكون لديهم زوجة تحفظ في اعتبارها قواعد القرون الأولى للإسلام، فتُبقي نفسها مغطاة بالكامل ونظرتها عفوفة:

> "ألن يكون منطقيا أن نتبع نحن [الرجال] القواعد، حتى ترضى زوجاتنا كذلك بنا، فيما يتعلق بملبسنا وهيئتنا؟ أليس من الرياء أن نطلب من زوجاتنا ارتداء الخمار أو النقاب بينما نسير نحن أنفسنا مرتدين تيشرت ورديا مثيرا وبنطلون جينز، مع نظارات شمسية ولحية مهذبة؟"[204]

يميل المسلمون للرد على هذه الأسئلة البلاغية بطرق مختلفة. أما السؤال العكسي عما إذا كانت اللحى الطويلة الإلزامية والمعبرة بوضوح عن ذكورة المرء قد تكون مثيرة للنساء، فلا يقل مقدار إهمالها من قِبل معظم رجال الدين المسلمين عن إهمال الحاخامات اليهود أو آباء الكنيسة المسيحيين.

203- Http://www 2muslims.com/directory/Detailed/223911.shtml.

204- http://ahlussunnahpublicaties.wordpress.com/201325/11/de-correcte-kledij-van-de-broeder-enkele-belangrijkeijmen/.

الحجاب كان هناك بالفعل

في العديد من الثقافات والأديان كان الفصل بين الجنسين والحجاب للنساء (ماعدا الجواري) شائعين بالفعل بين الشعوب المحيطة بالبحر المتوسط عندما ظهر الإسلام. كدين جديد نسب الإسلام معنى دينيا لعادات محلية عديدة، تتضمن قواعد الملبس الموجودة. بنفس الطريقة التي أصبحت بها طاقية الكيباه رمزا يهوديا، رغم أنها جاءت في الأصل من الكنيسة الكاثوليكية الغربية، أخذ الإسلام الحجاب من تقاليد أخرى، وأعلن رجال الدين والعلماء المسلمون أنه رمز للعفة الإسلامية.[205]

خلال القرن السابع تم استيراد الحجاب إلى الثقافة العربية من سوريا، حيث تبنى المسلمون الذين غزوا البلاد شكل غطاء الرأس الذي كانت تلبسه المسيحيات. أثناء حياة النبي **محمد** لم تكن النساء بحاجة لتغطية آذانهن ورقابهن، مثلما تؤمن نساء كثيرات جدا الآن أن عليهن أن يفعلن هذا:

> "أثناء حياة **محمد** وقرب نهايتها فقط، كانت زوجاته هن المسلمات الوحيدات المطالَبات بالحجاب. بعد موته وعقب غزو المسلمين للأقطار المجاورة – حيث كانت نساء الطبقة العليا متحجبات – أصبح الحجاب جزءا شائعا من الملابس بين نساء الطبقة العليا المسلمات، عبر عملية هضم واستيعاب لم يتحقق أحد منها بعد بتفاصيل كثيرة.»

هذا الاقتباس من كتاب **ليلى أحمد** (النساء والنوع في الإسلام). تجادل المؤلفة – وهي متخصصة في دراسات الشرق الأوسط – بأن «المجموعات الإثنية والدينية من غير المجموعات التي كان ينتمي إليها المسلمون قد شكلت الشرق الأوسط وثقافاته بشكل مركزي بنفس القدر الذي شكله بها المسلمون.» في الأيام الأولى للإسلام كان الروتين اليومي متجذرا في العادات الموجودة في المنطقة ومازال هذا هو الحال غالبا.[206]

205- Cf. Leila Ahmed 1992 and 2011.

206- Leila Ahmed 1992:5 and 7.

تصر هذه المؤلفة الإسلامية على أن فصل القواعد الإسلامية عن النماذج والممارسات التقليدية في المنطقة سيعني «تشويها خطيرا للأدلة، لأنه سيعزل بشكل خاطئ الممارسات الإسلامية ويوحي ضمنيا على الأقل بأن التعامل الإسلامي مع تلك الأمور كان خاصا أو حتى فريدا.» إن العديد من الثقافات: من بلاد الرافدين إلى فارس، ومن الهيلينية إلى المسيحية، وأخيرا الإسلامية.. كلها «ساهمت في ممارسات تحكمت في النساء وأضعفتهن، واستعارت بشكل واضح كذلك ممارسات جيرانها المتحكمة والمتناسلة.» إن قراءة النصوص هي دائما مسألة تأويل؛ فهي مُتضمَنة حتما في أفكار مقيدة بزمنها. ينطبق هذا بالتأكيد على شروط الزي الإسلامي للنساء وعلى السؤال حول لماذا يتم الإصرار على هذه الممارسات التي يعود تاريخها إلى عصور ما قبل الإسلام، ليس فقط في القرون التي أعقبت وفاة النبي **محمد**، بل كذلك في القرون التالية، حتى – أو مرة أخرى – في أيامنا الحالية.[207]

القرآن والتراث: بعض الاختلافات المدهشة

توجد في القرآن آيتان هامتان تشير إليهما تعليمات التغطية: إحداهما (الآية 59 من السورة رقم 33 [سورة الأحزاب]) تقول:

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا"

تشير كلمة جلباب (وجمعها جلابيب) إلى ثوب طويل فضفاض ترتديه النساء المسلمات اللاتي يرين هذا الملبس باعتباره التأويل الصحيح لزي الأنثى المطلوب. جاء الوحي بهذه الآية بعد حادثة. كانت الشوارع في المدينة (وتقع في دولة السعودية حاليا) صغيرة، ولم تكن في المنازل أي مرافق صحية، وكان على النساء أن يذهبن إلى أطراف المدينة لقضاء حاجتهن. وفقا للرواية، ذات مساء من العام 626 غادرت **زينب** – إحدى زوجات النبي – البيت لهذا الغرض وغازلها بعض الرجال (كما مازال يحدث في أماكن كثيرة حول العالم،

207- Ahmed 1992:18، وقد لاحظت أنه في مصر البطلمية كانت المواقف والقوانين المتعلقة بالنساء ليبرالية ومتساوية على نحو ملحوظ. لمزيد من التفاصيل انظر كتابها الفصل الثالث.

مع وجود خطر الاغتصاب). بعد هذه الحادثة أمر محمد المؤمنات باستخدام جزء من جلابيبهن لتغطية أنفسهن، بحيث يكن من الآن فصاعدا مميزات كنساء محترمات.[208]

بفضل التغطية المذكورة أعلاه، وفقا لتفسير العالم المسلم **ابن كثير** (1301 – 1373)، تكون النساء المسلمات أكثر أمنا عندما يضطررن للخروج، وأفضل حماية من التهجم أو ما هو أسوأ. كانت الطريقة التي يتغطين بها توضح أنهن مؤمنات تقيات ولسن كافرات أو إماء، ولذلك لن يزعجهن أحد. لا شك أن القصد من هذا النص كان حماية زوجات النبي في أزمنة ومجتمعات لم تكن النساء فيها تحظى بتقدير عال. ولكن هناك تأويلات تشير – حتى اليوم – إلى أن النساء اللاتي لا يغطين أنفسهن بهذه الطريقة لسن محترمات، أو حتى تخلص إلى أن النساء أنفسهن هن الملومات على تعرضهن للتهجم، وليس الرجال الذين يضعون أيديهم عليهن.

في النص القرآني الآخر (الآية 31 من السورة رقم 24 [سورة النور]) الذي يشير إلى حجاب النساء يرد ذكر قطعة ثياب أخرى: (الخمار) وهو 'شال أو حجاب يغطي الرأس والرقبة والكتفين' وتلبسه بعض النساء المسلمات خارج البيت:

" وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ (...) وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ ..."

يستخدم النص العربي كلمة (زينة) ثلاث مرات في نفس الآية ليحذر من التبرج المبالغ فيه والتزين المبهرج بالعقود أو الأساور أو الخلاخيل – بالضبط نفس الرسالة التي علّمتها المسيحية لأتباعها في نفس المنطقة والتي استلهمت فيها نموذجا مشابها من الاحتشام.

تشمل الكلمة العربية (زينة) – التي تعني بالفعل 'الزخرفة' أو 'الجواهر' في العموم

208- لم يصل القرآن إلى شكله النهائي إلا بعد وفاة الرسول، وبالترتيب الزمني كان الوحي بالسورة رقم 33 (سورة الأحزاب) سابقا على السورة رقم 24 (سورة النور). وهذا هو السبب في أننا نناقشهما بهذا الترتيب. لمناقشة هذه الآيات انظر أعمال نظيرة زين الدين في (السفور والحجاب) وكذلك (الفتاة والشيوخ) المنشورين من حوالي 90 عاما، والتي أثرت آراؤها على أشخاص كثيرين في العالم الإسلامي. ولقراءة مراجعة لأفكارها انظر مساهمة بثينة شعبان في «الإيمان والحرية» (1995) أول كتاب عن حقوق النساء المسلمات كحقوق إنسان. انظر كذلك ليلى أحمد 1992، 2011، وناهد سليم 2003.

- 'زينة الذهب أو الفضة التي ترتديها النساء حول الكاحلين.' وفقا لبعض العلماء فإن كلمة (زينة) هنا تنطبق فقط على الزينة والحلي الخارجية: «استخدام نفس الكلمة في الجزء الختامي من الآية ' وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ' يدعم [هذا الرأي]، لأن الحلي الوحيدة التي يمكن معرفتها بضرب الأرجل هي الخلاخيل.»[209] ومع ذلك، يصر آخرون على أن الكلمة تشير إلى جمال الجسد الأنثوي، كما يفعل **ابن عباس** (566 – 653) 'الذي أصر على أن كلمة (زينة) تتضمن الجسد الأنثوي بأكمله، ماعدا الوجه واليدين'. هذا الصحابي الثقة بنى تأويله ليس على عبارة بل على إيماءة صامتة من النبي. ولم يكن **ابن عباس** حاضرا بنفسه عندما قام النبي بهذه الإيماءة المفترَضة. ولم يتلق جامع هذا الحديث الشفاهي الهام الرسالة إلا فيما بعد عن طريق أشخاص آخرين. ليس هذا أمرا غير معتاد، طالما أن سلسلة ناقلي الحديث (الإسناد) غير منقطعة وتتألف من أشخاص ثقات. والنتيجة هي أنه طوال قرون استندت قواعد ملبس المرأة على رأي شخص معاصر للنبي، وليس على القرآن.[210]

متبعين مثال التقاليد اليهودية الأورثوذكسية في المنطقة، جمع **ابن عباس** وآخرون آلاف الأخبار أوالروايات أو الأحاديث من صحابة النبي وأجيال علماء القرآن في القرون التالية، في هذه الروايات أُعلن الجسد الأنثوي بأكمله كمساحة عورة. على أساس نفس الخوف الذكوري من الجاذبية الأنثوية كما كان الحال مع اللاهوتيين اليهود والمسيحيين – والنابع من التقاليد البطريركية – انحاز معظم المسلمين لوجهة نظر **ابن عباس** الذي اكتسبت أفكاره وزنا أكبر حتى من الآيات القرآنية ذات الصلة.

ومازال يجري تمرير القواعد المستقاة من هذه الرؤية في مناطق واسعة من العالم – وتتبعها بخضوع أعداد لا تُحصى من النساء المسلمات اللاتي لم يدرسن أبدا المصادر

209- The Holy Qur-án: Containing Arabic Text with English Translation and Commentary 'translated by Muhammad Ali Ahmadiyya anjuman-i-ishaat-i-Islam, 1920, second edition The University of Wisconsin – Madison, p. 701. An English and Arabic dictionary, in two parts by Joseph Catafago. London: B. Quaritch, 1858.

210- هنا تكمن المشكلة: يمكن لشخص ما أن يعلن أن السلسلة موثوق منها، لأن من مصلحته أن يمرر رسالة أصلها ليس موثوقا منه تماما. أشكر ليلى الزويني على هذه المعلومة.

See also
Hashim 1999, Selim 2003 and the earlier mentioned scholarly works by e.g. Ahmed and Mernissi

الأصلية المعنية. تلك هي القواعد:

- لابد أن تغطي المرأة جسمها بأكمله بما يشمل الشعر والأذنين ماعدا الوجه (من الجبهة إلى الذقن طولا، ومابين الإبهام والوسطى عرضا) واليدين (إلى الرسغين) والقدمين إلى الكاحلين.
- في الصلاة ليس من الضروري بالنسبة لها أن تغطي زينتها أو تبرج وجهها.
- إذا كان هناك شخص ينظر أو قد ينظر بنوايا شهوانية لوجهها أو يديها أو قدميها أثناء الصلاة، فيكون لزاما عليها أن تغطي هذه الأجزاء كذلك.
- لا ينبغي على النساء أن يبدين زينتهن لغير المحارم من أقاربهن [أي الأقارب الذين لا يحل لهن الزواج بهم والذين تُعتبر ممارسة الجنس معهم زنا محارم].
- ينبغي على النساء أن يبقين في بيوتهن وينبغي أن يكون هناك ستار على الباب. ويمكن للمرأة أن تُبقي نفسها مستورة ومخفية لأن مجال نشاطها هو البيت؛ لذلك، أُمرت بأن تغطي جسدها بأكمله، وكذلك بأن تغض بصرها ولا تنظر للرجال من غير المحارم.
- إذا اضطرت النساء للخروج من بيوتهن (لأي سبب شرعي)، فينبغي أن يغطين أجسادهن جميعها بالحجاب.[211]

هناك مفهوم أساسي في الإسلام هو (الفتنة) الذي يحمل دلالات تتعلق بـ 'الاختبار، المحنة، الكرب أو المعاناة'. معنى الفعل الأصلي منه (فَتَنَ): حرق، كان يستخدم ليعني صهر الذهب أو الفضة في النار، وهو ما أدى إلى معاني أخرى، مثل 'أن يختبر (خاصة كطريقة لاختبار تحمل شخص ما)؛ أن يقلقل سلام جماعة ما؛ أن يغوي أو يغري أو يجتذب أو يُذهل.' في اللغة العربية الفصحى الحديثة تحمل كلمة (فتنة) المعاني التصعيدية 'يسحر،

211- Sayid Saeed Akhtar Rizvi 1997: 11, 14 -15.

يجذب، الجاذبية، السحر، السبي، الافتتان، الترغيب، الإغراء، الإعجاب الشديد، المكيدة، التحريض، الشغب، الشقاق، الخلاف، الحرب الأهلية'.[212]

في كتابه (التعامل مع الشهوة والطمع) شرح الشيخ **عبد الحميد كشك** (1933 – 1996) أنه عن الصحابي **أبو أمامة** (المتوفي عام 700) أن النبي **محمد** قال: «ما اختلى رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.» كما سنرى في الفصل القادم، فقد أصبح حديث **أبو أمامة** إشكاليا للغاية الآن بما أن النساء يعملن أكثر وأكثر خارج البيت. من أجل الالتزام بهذه العبارة القديمة يحاول بعض علماء الدين بكل طريقة أن يجدوا حلولا ممكنة للمواقف المحظورة التي يواجهها الرجال والنساء باستمرار في أماكن العمل المعاصرة. هناك صحابي آخر يتم الاستشهاد به في نفس الكتاب، وهو **معقل بن يسار**، الذي صاغ هذه الرسالة بطريقة أكثر دراماتيكية: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له.'»[213] في زمن تال تم تفسير هذه العبارة مرارا وتكرارا كتحريم على الرجال والنساء أن يتصافحوا، وهو التحريم الذي تناضل من أجله التقاليد اليهودية المتزمتة إلى يومنا هذا.

لكي لا يتفوق عليهم زملاؤهم النموذجيون، تبنى العديد من علماء الدين المسلمين غير العرب الشروط الصارمة للتراث العربي. يخرج اللاهوتي الهندي **مفتي ظافر الدين مفتاحي** (1926 – 2011) برسائل مشابهة في كتابه (الاحتشام والعفة في الإسلام) المنشور عام 1993 في دلهي. لا ينبغي أن تظهر النساء على الملأ إلا لأسباب ملحة، لأن «المرأة عورة. فإذا خرجت استشرفها الشيطان»، «وما التمست المرأة رضا الله بمثل

212- Badawi, Elsaid M. & Haleem, Muhammad Abdel. Arabic-English Dictionary of Qur'anic Usage. Boston and Leiden: Brill, 2008: 692; See also Lane, William Edward An Arabic-English Lexicon. Volume 6: ghayn-fā'. Librairie du Liban. (1968) [orig. pub. 1877]: 2335. Cf. https://en.wikipedia.org/wiki/Fitna_(word). See for example Shaaban 1995 who discusses a number of the scholars concerned.

213- Sheikh 'Abd Al-Hamid Kiskh, Dealing with Lust and Greed 27ff; as for the text, cf. http://www.slideshare.net/kingabid/dealing-with-lust-and-greed-15354566. Shaaban 1995 discusses a number of the scholars concerned.

أن تقعد في بيتها، وتعبد ربها، وتطيع زوجها.»[214] بسبب هذا الخطر الشامل للإغواء الشيطاني، لا يُسمح للمرأة في المملكة السعودية بالسفر خارج البلاد حتى تتجاوز سن الخامسة والأربعين.

يحذر **مفتي** أنه بسبب كون النساء بطبيعتهن مغويات وفاتنات، فإنهن يتسببن في مواقف مقلقة في المجال العام. ثم يأتي بحل مذهل: في مواجهة مثل هذا الإغواء الخطير ينبغي على الرجل أن يذهب إلى بيته وزوجته «ويفرغ المادة المهيجة المسببة لكل هذا الجيشان في المكان الصحيح الذي يخصها، حتى لا يتمكن الشيطان من النجاح في إيقاعه في الخطيئة.»[215] يرجع تاريخ هذه النصيحة الشائعة التي تم تمريرها عبر القرون إلى الإمام **مسلم** (821 – 875)؛ واحد من أشهر جامعي الحديث. حتى اليوم يصر بعض الدعاة الدينيين المشهورين على هذه النصيحة. على اليوتيوب، يستمر الواعظون في تحذير النساء من أن صلواتهن لن تُقبل إذا لم يكن متاحات دائما لرجالهن عندما يعودون إلى البيوت هائجين. الانشغال بخبز الخبز ليس عذرا. من الأفضل ترك الخبز يحترق بدلا من ترك الرجل يحترق، و'حتى إذا كانت المرأة جالسة على ظهر جمل، يجب أن تنزل على الفور عندما يرغبها'. تشعر النساء التقيات بالرهبة من الرسالة القائلة أن الله ينصرف عنهن إذا لم يلبسن وفقا لقواعد معينة ولا يكن مطيعات بما يكفي لأزواجهن. وفقا **لأبو شيماء والقرضاوي** وغيرهما من الدعاة المتزمتين، تسجل الملائكة كل شيء و'إذا امتنعت المرأة من زوجها... ستحق عليها لعنة الله'.[216] لكن مَن الذي يبلغ به الغرور حد الاعتقاد أنه قادر أن يقرر مَن سيسمع الله القدير دعاءه، الله الذي يشار إليه في القرآن بأنه 'الرحمن الرحيم'؟

هذه الأفكار المتطرفة جزء من موروثات قديمة تتطلب سيطرة الرجال الكاملة على أجساد النساء وأرحامهن – موروثات ترجع أصولها إلى تقاليد إقليمية غير إسلامية تشكلت قبل وقت طويل من ظهور الإسلام.

214- الترمذي وابن حبان وأبو داوود وابن حجر الهيثمي في (مجمع الزوائد)
https://theheartopener.wordpress.com/books/sins/47-a-wife%E2%80%99s-rebellion-against-her-husband/.

215- Mufti Zafeeruddin Miftahi 72, هوامش شارحة لحديث جمعه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري Vol. I, p. 449

216- See, for example, https://www.youtube.com/watch?v=d55thwza8PU or
http://www.2muslimscom/directory/Detailed/226100.shtml#Clothing% de20and%20Adornment

رجال الدين الذين يصرون على أن حجاب النساء فرض في الإسلام يروجون حججا تستند على أدلة متنافرة، وهدفهم الرئيسي هو تأكيد التراتبية بين الجنسين عن طريق إجبار النساء على البقاء في البيت وتغطية أنفسهن بمجرد خروجهن. مسترشدين بتفضيلاتهم وتحيزاتهم الشخصية، ولم يضعوا في اعتبارهم الأسباب وراء الآيات التي أوحي بها للنبي محمد عن تغطية النساء.

الحجاب "ليس فريضة إسلامية"

وفقا للعديد من العلماء والمتخصصين الإسلاميين المحترمين من عصور مختلفة لا توجد إشارات ملموسة في القرآن للتغطية الكاملة الإجبارية للجسد، أو حتى غطاء الرأس. باختصار، فإن تأويلاتهم للمفاهيم الثلاثة المركزية (الحجاب، الجلباب، الخمار) هي كما يلي:

- الحجاب كإشارة لأغطية الرأس ليس مذكورا في القرآن. وتعني الكلمة حرفيا ستارا أو فاصلا، والآية التي تظهر فيها الكلمة (الآية 53 من السورة رقم 33؛ سورة الأحزاب) تتوجه تحديدا إلى زوجات النبي. في هذه الآية يقول القرآن أنه على الذكور المسلمين أن يحادثوا زوجات النبي من وراء حجاب: يتعلق الأمر بخصوصية زوجات النبي وليس بالنساء في العموم. قبلها بقليل (الآية 32 من سورة الأحزاب) يعلن النبي أن زوجاته لسن كأحد من النساء.

- إن تفسير كلمة (زينة) كإشارة للجسد الأنثوي بأكمله (بما يشمل في بعض الأحيان حتى الوجه واليدين) يستند على منطق مغرض.

- الجلباب هو الثوب العُلوي الأسود أو الرداء العُلوي الذي يمكن للنساء أن يجذبنه فوق رؤوسهن. وقد تجاهل علماء الدين – الذين يستمرون في جعل الحجاب إلزاميا – عن عمد الخلفية التاريخية لهذا الوحي (سورة الأحزاب الآيتان 58 و59) كنصيحة تهدف لحماية النساء المحتشمات الساعيات وراء واجباتهن من نظرات الرجال المختلسة.

- يشير النص الخاص بالخمار في سورة النور (رقم 24) الآية 31 إلى تغطية الصدور بالخُمُر. لم تكن الصدور المغطاة هي السائدة في تقاليد العرب قبل الإسلام. عندما كانت القبائل العربية تخرج للحرب، كانت النساء تخرج لوداع الرجال، وفي تلك المناسبات كان معتادا من النساء أن يعرين صدورهن ليستنهضن السلوك الشجاع في المقاتلين.[217] ليست الآية القرآنية عن تغطية الرأس أو الشعر. أما التفسير الخاص بأنه يجب على النساء أن يغطين الجسد كله بما في ذلك الشعر، فلم يظهر إلا بعد زمن النبي. لو كان **محمد** يقصد تغطية الجسد بأكمله والرأس، فلم يكن هناك منطق على الإطلاق في أن يخبر النساء بأن عليهن من الآن فصاعدا أن يغطين جيوبهن – وهي الكلمة ذاتها المذكورة في النص.[218]

من الواضح أن النساء كن جزءا من المجال العام أثناء حياة النبي **محمد**، وهو ما يقوض الحجج المكررة والضعيفة التي يرددها رجال الدين لإجبار النساء على الاعتزال. هناك باحثون قادمون من طوائف إسلامية مختلفة وأجزاء مختلفة من العالم يخالفون هذه الأفكار المتصلبة وخلاصة أفكارهم هي أن «الإسلام لا يحدد نوعا معينا من الملبس»، ليست النساء ملزمات بتغطية رؤوسهن وهناك مساحة لكل التنوعات الثقافية وتعددية هائلة.[219]

الارتياب ناصح سيء كما تقول المؤلفة اللبنانية **نظيرة زين الدين**، التي أثبتت في العشرينيات من القرن العشرين أن الحجاب ليس إسلاميا وأنه لم يكن بمستطاع أي من المؤيدين له أن يثبتوا آراءهم عن تغطية المرأة. بالنسبة لها:

217- كما فعلت نساء مكة على سبيل المثال في معركة أحد عام 625

218- مختصرة من مصادر مختلفة تم ذكرها سابقا، وعمل الشيخ الدكتور مصطفى محمد راشد ورسالة الدكتوراه الموضحة لدكتور إبراهيم ب. سيد

'Is Head Cover For Women Mandatory In Islam?'
Cf.
http://www islamopediaonline.org/fatwa/dr-ibrahim-b-syed-argues-head-cover-not-mandatory-women-islam and Sheikh Mustafa Mohamed Rashed: http://www.moroccoworldnews.com/2012/06/45 64/hijab-is-not-an-islamic-dutyscholar/ 2012.

219- Ibid. Cf. also Iman Hashim 2010: 10 and Leila Ahmed 2011: 108.

"فرض الحجاب على النساء هو الدليل الأكيد على أن الرجال يشكون في أن أمهاتهم وبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم يمكن أن يكنّ خائنات لهم. هذا يعني أن الرجال يشكون بأقرب النساء وأعزهن عليهم. ما هذه الحياة، حياتك، وفي بيتك إدارة عرفية دائمة أعلنتها ضد أمك وابنتك وزوجتك وأختك خائفا من خيانة منهن؟»

بالنسبة لهؤلاء الذين يقرأون القرآن بحرص، تقدم العديد من النصوص رسالة فحواها أنه لا يوجد إنسان يمثل سلطة الله القدير على الأرض، وأن المسلمين ليسوا مسؤولين إلا أمام ربهم، وأنه ما من مسلم لديه السلطة على الآخرين ولا حتى النبي الذي أُرسل لهذا الغرض.[220]

بما أن البعض مازال يرى الماضي كحاضر غير قابل للتغيير، فإن بعض المسلمين الأتقياء يقرأون التراث الإسلامي بطريقة أكثر نقدية، «بعقولهم ومواهبهم التي منحها الله لهم، وقرآنهم الحبيب بين أيديهم.» كما صاغها أحد الطلاب منذ بضع سنوات في مناقشة بعد إحدى محاضراتي في المغرب.

في كتابه (God Knows the Soldiers) (وما يعلم جنود ربك إلا هو) يتحدى د. **خالد أبو الفضل** – المتخصص في الشريعة الإسلامية – كل أولئك الذي يحاولون خطف أو خنق الاجتهاد الإسلامي:

"لقد تعلمت أن العالم القوي مثل صخرة راسخة لا تهتز لكنها تسمح لرياح النقد بالمرور بها. أما المفكر أو المحامي أو العالم الضعيف؛ فيجعل من التفكير التأملي والتفسير الشخصي قضية، وينسَى قواعد الآداب. تلك مناقشة جيدة ومن المهم للغاية أن تتم مناقشتها بإخلاص لأن حياة الناس على المحك. نحن بحاجة للتمييز بين مبادئ الإسلام وبين العادات

220- نظيرة زين الدين، في بثينة شعبان 68-69. وُلدت نظيرة عام 1905 وكتبت في سن العشرين كتاب (السفور والحجاب) الذي تسبب في حالة من الذعر بين رجال الدين المتعصبين في لبنان، لكنه قوبل بحماس من الآخرين. تُرجم الكتاب إلى لغات أخرى عديدة.

See also: http://www.sunday-guardian.com/analysis/nazirawas-a-feminist-who-questioned-tradition.

الثقافية... لا يفرض الإسلام ولا يحدد نوعا معينا من الملبس. لذلك، طالما أن الملابس ليست كاشفة ولا ضيقة بطريقة مبالغ فيها، فيمكن للاختلافات الثقافية أن تضيف تنوعا هائلا في تحقيق هذا المبدأ التوجيهي.»[221]

لكن رغم أن كتاب المسلمين المقدس لا يفرض غطاء الرأس الأنثوي، إلا أن هذا الشكل من الحجاب قد تزايد بشكل كبير في الآونة الأخيرة. يبدو هذا غير منطقي، لكن هناك أسبابا مختلفة في السياقات المختلفة. يتعلق السؤال بكيف ولماذا بدأت النساء في تغطية رؤوسهن بل ووجوههن أولا في الشرق الأوسط ثم على الصعيد العالمي – لأول مرة أو مرة أخرى – بالموجات المتعصبة من الدعاية السلفية أو الوهابية المتشددة. هذه النوعية من الدعاية – التي تتكلف البلايين – تغذيها بشكل أساسي دولارات النفط القادمة من السعودية والخليج، واضعة البلاد والثقافات الموجودة في أماكن أخرى في العالم تحت ضغط متزايد لتبني العلاقات البطريركية العربية المتحجرة بين الجنسين. والنتائج ظاهرة للعيان طوال السنوات القليلة الماضية في الأعداد المتزايدة من النساء المحجبات من أفريقيا إلى إندونيسيا؛ حيث كانت النساء المسلمات نادرا ما يسرن مرتديات هذا الزيّ.

الانحياز للحجاب له علاقة كبيرة بالمشهد المتغير لعلاقات القوى الدولية. في الفترة التمهيدية لأحداث 11 سبتمبر وبشكل خاص في أعقابها تلعب الدوافع السياسية بالطبع دورا بين النساء المسلمات اللاتي اخترن بإرادتهن الخضوع لقواعد الزي القديمة. في العقود الأسبق أثار الاستعمار الغربي ردود أفعال مضادة للاستعمار وردود أفعال ما بعد استعمارية. كما أن النقص الحالي للفرص بالنسبة للشباب في مجتمعات إسلامية كثيرة طوال السنوات الأخيرة قد نتج عنه إحباطات هائلة، وهو التطور الذي مازال السياسيون المحليون بحماس يعدُّون الغرب مسؤولا عنه. طالما أنه يمكن إلقاء اللوم على الآخرين فيما يتعلق بالركود الاقتصادي، فأنت نفسك لست الشخص المطالب بإيجاد حل؛ وهذه هي أسهل طريقة للتفكير. كنتيجة لهذا لا يقوم السياسيون وحدهم بل والدعاة الدينيون المتشددون كذلك كثيرا بتقديم العالم الغربي أو أشياء معينة منشؤها الغرب – من التعليم إلى الخدمات الطبية – بمفردات سلبية، وفي مناطق عديدة وُضعت رأس المرأة السافرة في

221- Quoted online: http://www.irfi.org/articles/articles_351_400/quran_does_not_mandate_hijab.htm

نفس التصنيف. علاوة على ذلك يلعب الدعم الغربي لإسرائيل – على الرغم من انتهاكاتها الفظة لحقوق الإنسان – بلاشك دورا هاما في الموقف السلبي لأشخاص كثيرين في العالم العربي فيما يتعلق بالغرب.[222]

هناك أيضا أسباب تتعلق بالموضة: فقد أصبح النقاب الأسود شائعا باستلهام نموذج السيدات الثريات في دول الخليج الثرية. وماذا عن كل تلك الأشكال الملونة والمغرية من الحجاب الملفوفة بحرص حول الوجوه الفاتنة ذات الماكياج الجذاب؟ من الواضح أن هؤلاء 'المسلمات بأحمر الشفاه' يبحثن عن حل وسط واضح بين الإظهار والإخفاء: «الإسلام يعني السلام، الطهر، لكنه يعني كذلك الاستسلام. لكن ماذا تفعل لو كنت تحب خالقك وتشعر في نفس الوقت بالحب لكل شيء يقدمه لك العالم من حولك؟»[223]

وفقا لعلماء القرآن الذين درسوا القرون الأولى من الإسلام، كانت النساء تتمتع بحرية أكبر في زمن النبي. قال الشيخ **الغزالي** مثلا: "إن الغض من قيمة المرأة جريمة في الإسلام وإن الإسلام الصحيح يرفض عادات الشعوب التي تفرض القيود على النساء أو تقلل من حقوقهن وواجباتهن." كانت **خديجة** – زوجة النبي الأولى – هي أول من آمن به؛ وكانت آراء واحدة من زوجاته الأخريات – **عائشة** – لها أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين في تاريخ الإسلام. عند قراءة كل القواعد والتهديدات الصارمة الموجهة للنساء على يد رجال دين ذكور لاحقين، قد يتساءل المسلمون العائشون في الوقت الحالي عما كان يمكن أن يحدث لزوجات النبي لو اضطررن للعيش اليوم في مجتمعات تطبق قوانين الشريعة بلا رحمة. الإجابة على هذا السؤال هي محك ممتاز بالنسبة للمؤمنين المعاصرين لاتخاذ القرارات الشخصية.[224]

222- Cf. Sophie Bessis 2007.

223- http://programma.ntr.nl/10560/lipstick-moslims; Ahmed 2011; Tarlo 2010.

224- See Bouthaina Shaaban, p.73

بثينة شعبان مؤلفة تناقش أعمال نظيرة زين الدين ومحمد الغزالي وعبد الحليم أبو شقة وآخرين في مساهمتها الشارحة في كتاب (الإيمان و الحرية: حقوق النساء في العالم الإسلامي)

Faith & Freedom: Women's Human Rights in the Muslim World, Mahnaz Afkhami (ed) 1995.

انظر كذلك المساهمات الأخرى في هذا الكتاب الهام وأيضا الأعمال المذكورة سابقا للمرنيسي وليلى أحمد

يقدم الدين مبادئ توجيهية للمؤمنين الذين يبحثون – بما لا يقل عن غير المؤمنين – عن شيء يتشبثون به في فوضى الحياة. من أجل تلبية تلك الحاجة الإنسانية لهذا المرتكز، قدم الحاخامات اليهود وآباء الكنيسة المسيحيون وجامعو الأحاديث المسلمون قواعد للعفة ولشكل الأنثى تشترك مع بعضها في الكثير. باختصار، لقد قيدت التشابهات في هذه القواعد النساء بطرق كثيرة. وقد بذل رجال الدين كثيرا أقصى جهودهم لفرض أفكارهم الشخصية، معيدين تشكيل القواعد والتقاليد الدينية في تفسيراتهم للنصوص والكتب المقدسة وفقا لمصالحهم. وفي الأماكن التي مازال يجري هذا فيها اليوم، تكون الأسباب ذات دوافع سياسية أكثر منها دينية. والآن حيث تتمتع النساء عبر العالم بتعليم أكبر، يتم الترويج مرة أخرى للتقاليد الدينية القديمة لتخليد التراتبية المألوفة. إن مقدارا كبيرا من التطرف الديني يسببه الخوف الذكوري من فقد السلطة وفقد ماء الوجه.

حتى النصف الثاني من القرن الماضي كان الجسد الأنثوي يشبه لوحا فارغا يعرض عليه اللاهوتيون آراءهم البطريركية دون عائق. وفي نفس الوقت كانت المسؤولية عن الإثارة الذكورية تُلقى بشكل أساسي على عاتق الجنس الآخر.

في مناطق كثيرة مازالت الرغبات أو النزوات الذكورية تضبط النغمة الدينية حيثما تكون العفة والملبس موضعي تساؤل.[225] من المؤسف أنه طوال هذا الزمن لم يكن هناك تقريبا أي فرصة للنساء في الأديان الثلاثة الرئيسية لصياغة صريحة لآرائهن حول أنفسهن وحول الجنس الآخر. لكن باستثناء التباينات المتعصبة، فإن هذه الطريقة القديمة لإدارة الأمور تتغير بشكل واضح.[226]

225- Miles 169.

226- Zie bijvoorbeeld Denise Lardner Carmody, Women & World Religions, 1989; Elizabeth Koltun, The Jewish Woman. New Perspectives,1976; Rosemary Radford Ruether Religion and sexism: images of woman in the Jewish and Christian traditions, 1974; en het eerder genoemde werk van Mernissi, Leila Ahmed e.a.

7

الاحتجاج على العري والعري كاحتجاج

كما رأينا، تتنوع تأويلات العري من الأعضاء التناسلية المكشوفة إلى الأيدي الظاهرة أو الشعر المكشوف، من فستان فاضح إلى جسد متعرٍ بأكمله. وردود الأفعال على هذه الأشكال واسعة الاختلاف من العري متقلبة تماما مثل الأزياء والسياقات الموضوعة تحت المجهر. عندما يصل الحد إلى أن يثير إصبع صغير عارٍ الخوف من الإثارة أو الفجور، بأي شكل كان، فإن 'العري' يمكن أن يؤدي إلى لغة تهديدية وتحريمات صارمة، وصِلات سببية تمت إقامتها بين الجلد الأنثوي المكشوف والكوارث الطبيعية التي كان من المفترض منعها عن طريق ارتداء ملابس محتشمة. وعلى العكس من ذلك، أحيانا يحب العراة أن يجذبوا الانتباه إلى أنفسهم في حشد بملابس محتشمة، سواء بغرض توصيل رسالة أو لا.

الزلازل والانفجارات البركانية

تصور القصص الدينية الاختلافات بين الأخيار والأشرار. في اللوحات المسيحية ليوم القيامة ملائكة بأثواب طويلة ينفخون أبواقهم ليوقظوا الموتى، كما يمكن أن نرى على واجهات الكثير من الكاتدرائيات الشهيرة. عندما يزحف الموتى البؤساء خارجين من أكفانهم، لا يوضع في الميزان غير الأفعال الطيبة والشريرة من حياتهم. يدخل المؤمنون المختارون الجنة مرتدين ثيابا جميلة، بينما يدفع شيطان عارٍ شنيع الخلقة الملعونين العراة جميعهم سواسية إلى هوة الجحيم الفاغرة فاها.

منذ بدأت الذاكرة البشرية والناس في كل مكان معذبون بخوف عميق الجذور من الموت. ومن أجل استدعاء هذا الخوف، يربط المؤمنون أحيانا بين الفسوق والكوارث الطبيعية أو الأوبئة المروعة، ليس فقط في المجتمعات ما قبل الصناعية بل والحديثة كذلك. وبالعكس، وفقا لهذا النمط نفسه من التفكير، فإن المؤمنين المكتسين بطريقة عفيفة قادرون على حماية مجتمعهم من الانحلال، بل ويمكن لثوب ملبوس باحتشام أن يمنع الكوارث.

في جنوب إيطاليا تُحكى قصص عن القديسة **أجاثا** Agatha المولودة في صقلية (كاتانيا، 225 – 251)، وهي واحدة من أوائل القديسين المسيحيين. بعد رفضها الزواج من حاكم روماني وثني كان قد وقع في حبها، عُذبت هذه المرأة الورعة وقطع ثدياها، قبل أن يتم إلقاؤها في السجن. (الصورة رقم 29).

علاوة على ذلك تم دحرجة جسدها على فراش من الزجاج المكسور ووُضعت على جمرات متوهجة. ماتت **أجاثا** نتيجة لهذه الأشكال من التعذيب، لكن بعد موتها، تدخل الرب نفسه: بدأت الأرض تهتز وهدد انفجار لبركان (إتنا) بتدمير مدينة (كاتانيا). انطلقت النساء والفتيات 'بشعر محلول، يولولن ويغنين' في موكب حاملين فيه وشاح **أجاثا**. وبفضل الثوب الإعجازي الذي كانت الشهيدة تغطي نفسها به باحتشام خلال حياتها، نجحن في إيقاف الانفجار البركاني. في (قبة كاتانيا) – حيث ترقد **أجاثا** مدفونة – يتم حفظ هذا الثوب بحرص، لأنه أثر مقدس قوي بالنسبة للسكان المحليين. فقد نجح هذا الشيء المذهل مرارا وتكرارا في إيقاف جداول متدفقة كالدوامات من الحمم المدمرة. كلما أظهر (إتنا) أمارات انفجار؛ يتوسل المواطنون **بأجاثا**. وفي خط تفكير مشابه أعلن مطران نابلس خلال القرن التاسع عشر أن انفجارا بركانيا لجبل فيزوف يقع اللوم في حدوثه على ثياب النساء غير المحتشمة.[227]

في زمننا مازال بعض رجال الدين المتشددين يربطون الغضب الإلهي على الزي البشري بالكوارث الطبيعية. الخوف من الزلازل مفهوم في جمهورية إيران الإسلامية: ففي جنوب البلاد عام 2003 ضربت الزلازل مدينة (بام) بشكل مأساوي وقُتل أكثر من 30.000

227- David K. Chester et al. The importance of religion in shaping volcanic risk perception in Italy, with special reference to Vesuvius and Etna. Journal of Volcanology and Geothermal Research 172 (2008) 216–228. وتذكرنا قصة أجاثا بقوة بحياة القديسة أجنس التي ناقشناها من قبل

من السكان. لفترة لا بأس بها حذر علماء الزلازل من أن زلزالا كارثيا آخر قد يضرب طهران في المستقبل القريب. ومع ذلك، بدلا من البحث عن السبب في تحرك الصفائح التكتونية، يضع بعض رجال الدين اللوم مقدما على ملبس النساء غير المحتشم. في إيران، حيث تُجبَر النساء بالقانون على تغطية أنفسهن من الرأس إلى أخمص القدمين، تتحدى شابات كثيرات القواعد الصارمة بارتداء ثياب ضيقة وإرخاء الحجاب إلى درجة الكشف عن مساحة كبيرة من شعرهن. في عام 2010، حذر حجة الإسلام **كاظم صديقي** – وهو من كبار رجال الدين الشيعة – جماعة المصلين في طهران أن عليهم تغيير أساليبهم؛ لأن 'سلطة إلهية أبلغتني أن أخبر الناس أن يتوبوا إلى الله جميعا. لماذا؟ لأن الكوارث تهددنا.... فالنساء الكثيرات اللاتي لا يرتدين ملابس محتشمة.. يضللن الشباب، ويفسدن عفتهم وينشرن الزنا في المجتمع، وهو ما يزيد من الزلازل.' وبعد تأمله لكيف يمكن أن يتجنب الناس أن يُدفنوا تحت الأنقاض، كانت خلاصة خطبته أن الطريقة الوحيدة لمنع هذه المأساة الفظيعة هي 'أن نعتصم بالدين ونطابق حياتنا مع القوانين الأخلاقية للإسلام.' وافق على هذا وزير الشؤون الاجتماعية: فالصلاة والصوم والملبس المحتشم كانت هي أفضل وصفات لتهدئة الغضب الإلهي من العري المكشوف. وبشكل مشابه، في الجريدة الأسبوعية الهولندية De Waarheidsvriend (صديقة الحقيقة)؛ وهي الجريدة المفضلة للجناح المحافظ الإصلاحي في كنيسة هولندا البروتستانتية، تم تقديم النتائج المأساوية لغضب الطبيعة الهائل الذي عصف بالفلبين في نوفمبر 2013 بأنه مثال 'لكلمات الرب الواضحة والقوية على الأرض' والمقصود بها هداية الناس 'في جميع أنحاء العالم'.[228] يظل بعض رجال الدين والمؤمنين في أديان مختلفة يحاولون بأقصى جهدهم أن يضعوا التفسيرات الدينية للكوارث الكبيرة على قدم المساواة مع العلم العقلاني.

228- http://www.theguardian.com/world/2010/apr/19/women-blame-earthquakes-iran-cleric: Thomas Erdbrink in The Washington Post Foreign Service, 21 april 2010. Ds. J. Muller in De Waarheidsvriend , 28 november 2013.. Ds. J. Muller in De Waarheidsvriend , 28 november 2013. About disasters as God's punishment for Israel and for Christians, see for example http://www.bibletools.org/index.cfm/fuseaction/Topical.show/RTD/CGG/ID/1315/Gods-Punishment.htm.

يميل الناس لأن يروا عاداتهم في الملبس باعتبارها هي المعيار والنموذج. الآن حيث يجول معظم الناس في الحياة اليومية في كامل ملبسهم، قلّما نتذكر أنه طوال جزء كبير من تاريخنا لم يكن البشر يرتدون أي شيء على الإطلاق، أو ما لا يزيد عن مئزر صغير. في جنوب وجنوب شرقي آسيا يلف الرجال قطعة قماش مربعة حول وسطهم، تُسمَّى دهوتي dhoti في الهند، وسارونج sarong في إندونيسيا. الآن يرتدي الرجال عادة قمصانا تغطي النصف العلوي – رغم أنه في بعض المعابد الهندوسية يُطلب من المؤمنين الذكور أن يخلعوا قمصانهم باحترام قبل أن يدخلوا.

عبر القرون كان الجزء العلوي العاري من الجسد يملأ البورجوازية الغربية بالاشمئزاز، وامتد الأمر إلى القرن العشرين. في حديقة سنترال بارك بنيويورك حتى عام 1960 كان يمكن للرجل أن ينال غرامة على خلع قميصه. تدريجيا غدا لدى العالم الغربي مشاكل أقل مع ظاهرة خلع القمصان – أولا في الألعاب الرياضية، وعلى الشاطئ وفي حمَّامات السباحة، وفيما بعد في الحدائق أيضا وغيرها من المساحات العامة. أحيانا قد يكشف قميص مفتوح أو تيشرت بتقويرة واسعة جزءا من شعر الصدر، حسب الموضة السائدة، لكن وجود رجل يتجول في المدينة بلا قميص أمر نادر. في الحقيقة، لا يجرؤ الكثير من الرجال على كشف جذع عارٍ. رغم وجود مواقع إليكترونية معينة للترويج للثقة بالنفس في كشف الصدر:

> "ربما تكون قد تتبعت هذه المدونة لفترة وفكرت في أن فكرة الخروج بلاقميص تبدو أكثر لطفا، لكنك فقط لست واثقا من أين تبدأ، تشعر ببعض القلق حول ما الذي سيظنه الناس أو يقولونه. حسنا، هذه التدوينة من أجلك... لمساعدتك على تطوير حرية بلا قمصان أكثر بعض الشيء في حياتك... أحد المخاوف التي تكون غالبا لدى الأشخاص عندما لا يكونون معتادين فيما سبق على الخروج بلا قمصان، هي أن الناس سيقولون لهم شيئا لم يكونوا ليقولوه لشخص آخر لأن هذا يبدو غير متسق مع شخصيتهم. لماذا تخرج بلا قميص الآن؟ أنا لم أرك أبدا بلا قميص من

قبل. عندما تعمل خارجا في الفناء – خاصة في يوم حار – يمكنك دائما أن تقول 'حسنا، إن الجو حار فعلا هنا في الخارج. فكرت أن هذا سيكون مريحا أكثر.' وانفض الأمر عن كاهلك كأنه شيء طبيعي تماما، وهو كذلك. هناك فائدة أخرى للعمل في الفناء هي أنك في فنائك الخاص، لذلك أنت لا تشعر كأنك تغزو مساحة شخص آخر. إنه فناؤك الخاص في النهاية، من يعنيه الأمر غيرك إذا شعرت بالرغبة في خلع قميصك؟»[229]

هناك اقتراح آخر يقدمه هذا الموقع المتحمس للغاية هو أن تبدأ رياضة الجري عندما يكون الجو حارا وبعد ذلك أن تتأكد من اختيارك لمسار لا تخاطر فيه بمصادفة وجوه مألوفة، مثلا في الغابة: «بعد أن تكون قد جريت بلا قميص لمدة شهر أو اثنين، إذا حدث واصطدمت بصديق يبدو مندهشا، يمكنك الآن فقط أن تقول عَرَضا: 'أوه، نعم، أنا أفعل ذلك منذ فترة.'» كل هذه النصائح ذات النوايا الحسنة توضح جيدا أن الأمر يمكن أن يتطلب بعض الشجاعة من الرجل كي يُظهر جذعه العاري للآخرين. مازال الارتباك والخجل من العري كامنين، والسير بلا قمصان هو في العادة فعل أقلية ضئيلة في المدن الغربية.

صحيح أنه في المجلات ذات الورق الفاخر والفيديوهات والأفلام وما إلى ذلك يتزايد عدد الرجال الذين لا يرتدون قمصانا، لكن صدور النساء وبطونهن ومؤخراتهن تُعرض بشكل أكبر بكثير وبحدة على لافتات الإعلانات. ومع ذلك إذا استبدلت كلمة 'رجل' بكلمة 'امرأة' في الاقتباسات المذكورة أعلاه ستبدو حجج مثل: 'فكرت أن هذا سيكون مريحا أكثر' أو 'إن الجو حار فعلا هنا في الخارج' أو 'من يعنيه الأمر؟' زائفة. من الواضح أن السير بلا قمصان ليس مرادفا على الإطلاق لعري الصدر.

229- http://shirtlessfreedom.blogspot.nl/2013/09/getting-started.html; http://en.wikipedia.org/wiki/Barechestedness.
https://www.youtube.com/watch?v=v3UGHjdz5i8. See also GoTopless.org or in Femen in Oekraïne, Bara Bröst in Sweden etc.

"غطِ هذا الصدر الذي لا يجب أن أراه: مثل هذه الأشياء تجرح النفوس."

- موليير، (طرطوف)

من وقت لآخر تحتج بعض المجموعات من النساء على المفهوم السائد بأن اللباس يمثل الحضارة والعري يمثل افتقادها. مجموعات مثل Free the Nipple (حرروا الحلمات) أو GoTopless (انطلقوا عاريات الصدور) تحتج على فرط الاحتشام الأمريكي وتشجع النساء على الظهور عاريات الصدور على الملأ لإنهاء تلك الوصمة المحيطة بكشف الصدور. وتذهب بعض الناشطات للتسوق عاريات الصدور لهذا السبب.

صور الحلمات الأنثوية الظاهرة وحتى النساء المرضعات ممنوعة في وسائل التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك، وهناك أسباب وجيهة للاحتجاج على هذا. لكن ألا يملك احتجاج يصور نهودا عارية جذابة تأثيرا مربكا، طالما أن صورا شبيهة معروضة في كل مكان على الإنترنت بنوايا مختلفة تماما؟[230]

قبل أن تمارس المسيحية والإسلام والسلطات الاستعمارية وما بعد الاستعمارية تأثيرها وتجعله محسوسا، كان من العادي تماما في أجزاء كثيرة من العالم أن تسير ونصف جسدك العلوي عارٍ، ولم تكن صدور النساء تجذب اي اهتمام خاص. في الشرق الأوسط يرجع تاريخ تحريم الصدور العارية إلى بدايات الإسلام في القرن السابع. منذ القرن التاسع عشر أجبر المتعصبون الدينيون والاستعماريون النساء بحكم القانون على تغطية صدورهن. أحد الأمثلة على هذه الرؤية المتغيرة للحضارة نجده في ملصق حكومي تايلندي

230- http://www.theguardian.com/commentisfree/2014/may/31/scout-willis-topless-instagram-protest.

هناك الكثير من جماعات الضغط الأخرى، مثل جمعية الصدور العارية متساوية الحقوق the Topfree Equal Rights Association في الولايات المتحدة، وفي السويد Bröst Bara ، وجبهة الصدور العارية Topless Front في الدنمارك، التي تعمل من أجل حقوق الرجال والأولاد في السير بجذع عار

من أربعينيات القرن العشرين يحث النساء على ستر أنفسهن أمام الجمهور. (الصورة رقم 30).

مازالت هناك تقاليد لا تُعد فيها الصدور العارية سببا للخلاف، كما بين شعوب هيمبا Himba وسوازي Swazi الأفريقية. في سوازيلاند تتبختر الشابات عاريات الصدور أمام عاهلهن؛ الملك **مسواتي الثالث** Mswati III، في طقس احتفالي يحتفلن فيه بأنوثتهن وعذريتهن.

مرتديات تنورات قصيرة من الخرز وممسكات بسكاكين وهواتف محمولة، كانت النساء والفتيات من سن الخامسة يرقصن ويغنين أغاني التحية والمديح يومي الأحد والإثنين للملك والملكة الأم، المعروفة كذلك بالفيلة العظيمة.[231]

إن الفكرة الحديثة نسبيا لكن المنتشرة بأن أثداء النساء تسبب حتما الإثارة الذكورية قد جعلت من ظهورها اليومي شيئا نادرا على نحو متزايد. في ستينيات القرن العشرين اتجهت الشابات الغربيات إلى مساءلة كافة أنواع القواعد والالتزامات الاجتماعية، ومن بينها تابو العري. تحت تأثير ثقافة الهيبيز بدأت النساء الغربيات من جميع الأعمار بأخذن حمَّامات شمس عاريات الصدور على الشاطئ، أولا في فرنسا وفيما بعد في أماكن أخرى في أوروبا. ورغم الاعتراضات العاطفية من أبناء بلدهم، إلا أنهم طالبوا بهذا الشكل من الحرية لأنفسهم كعلامة على المساواة الجنسية. وتدريجيا تم قبول نفس الحرية عبر أوروبا.

وفقا لمجلة Elle (هي) الفرنسية فقد توقفت كل النساء – ماعدا 2 في المائة – تحت سن 35 عن أخذ حمَّامات الشمس عاريات الصدر، وذلك لثلاثة أسباب: المخاوف من سرطان الجلد، الفكرة التي يتعذر استئصالها أن النساء عاريات الصدور لديهن أخلاق منحلة، وأخيرا التباهي المُسيَّس بالصدور العارية على يد مجموعات مثل Femen فيمين وFree the Nipple حرروا الحلمات. بسؤال صحيفة الجارديان لصحفيين فرنسيين

231- http://www.reuters.com/article/2012/04/09/us-swaziland-reed-idUSBRE88305E20120904, 4 September 2012; http://www.dailymail.co.uk/news/article-2198534/Topless-virgins-parade-Swazi-king-celebrate-chastity-unity.html#ubvirginity parade, 26 August 2013

عن تعليقاتهما يضيف الاثنان أسبابهما: 'العولمة وأمركة صورة النساء والجنس في فرنسا قد دفعا الإيروتيكية الفرنسية الرقيقة (وغير المؤذية عموما) بعيدا نحو البورنو المباشر، والوعي الجنسي المفرط'... 'حرية التعري الأشبه بالحرية على الشواطئ لم تعد كما اعتادت أن تكون... لم تعد النهود تشعر أنها بريئة أو عديمة الجنس مؤقتا.' ثم هناك 'التصور العاري الحاد للفتيات الصغيرات' بمعنى أن الكثير ممن يأخذن حمَّامات الشمس يفضلن إخفاء نهودهن بسبب الخوف من كونهن لا يماشين المعيار 'المُتخيَّل'. والقليلات اللاتي مازلن يأخذن حمَّامات الشمس عاريات الصدور 'كلهن لهن نفس الشكل – نحيفات وصغيرات النهود، الأمر الذي يساهم في إبقاء النظام الاجتماعي والمعيار الجمالي في مكانيهما.' وهناك خطر آخر هو 'أن الشابات في العشرينيات من أعمارهن يفعلن ذلك بشكل أقل لأنهن على وعي بأن... يمكن أن ينتهي بك الأمر بصدر عارٍ على صفحتك الخاصة على فيسبوك.'[232]

بعد سنوات من التلقين المؤثر غدا هذا النموذج غير القابل للتحقق من النهود 'الكاملة الأوصاف' إجباريا على أعداد كبيرة من النساء اللاتي قمن باستبطانه طواعية كضرورة لا مفر منها. في الولايات المتحدة أكثر من 70 في المائة من النساء يبدون غير سعيدات بنهودهن. لكن سواء قمن بتكبيرها أو تصغيرها جراحيا للتوافق مع الصورة الحُلمية أو اخترن الانحياز لاستراتيجية إخفائها، فالأمر بالنسبة لنساء كثيرات يشكل قلقا دائما. هل يُعد هذا سببا آخر لكون النهود العارية قد عفا عليها الزمن؟ قد يكون كشفهم محجوزا للمناسبات الخاصة، لكنه أمر غير مقبول في مكان العمل باعتباره مستفزا أكثر من اللازم.

تعي السياسيات أنه يتم الحكم عليهن على أساس مظهرهن – وبالطبع ليس بواسطة الرجال فقط – وأن الفتحات أو الأقراط الكبيرة أو الفساتين الضيقة لا تسبب احتراما كبيرا. أو بالكلمات التحذيرية للمفوضة الأوروبية السابقة الهولندية **نيلي كروس** Neelie Kroes: "المحتوى هو الأهم. لا تُعطِ الرجال الفرصة للتعليق على فستانك."[233] واحدة من السياسيات اللاتي يمارسن هذه القاعدة هي المستشارة الألمانية **أنجيلا ميركل**؛ فهي

232- http://www.theguardian.com/fashion/fashion-blog/2014/jul/28/real-reason-french-women-have-stopped-sunbathingtopless; see also http://fr.wikipedia.org/wiki/Seins_nus#cite_note-le_monokini_c.27est_fini

233- Haagse hakken (2012). Marius Rietdijk e.a. redactie)

ترتدي بشكل ثابت لا يتغير سترات مقفولة الأزرار بحرص. وقد أثبتت سياستها المعتادة صحتها عندما ظهرت بشكل استثنائي في مهرجان احتفالي في أوسلو عام 2008 مرتدية فستان سهرة يحبس الأنفاس، وانقض المصورون والصحفيون من كل أنحاء العالم على فتحة صدر فستانها الواسعة.

في الرضاعة

وسط كل هذه الضجة يميل المرء لنسيان أن أثداء النساء لديها وظيفة أكثر نفعا من إثارة الشهوة الذكورية. ماذا يمكن أن يكون أكثر طبيعية من إعطاء وليدك ثديك؟ لكن حتى في البلاد التي يكون فيها قانونيا للنساء أن يرضعن أطفالهن على الملأ، قد تؤدي الممارسة إلى مواقف مزعجة.

عانت النساء المرضعات كثيرا من ردود الفعل السلبية في المطاعم، لأن قيامهن بالرضاعة الطبيعية قد أثار صاحب المكان أو الرواد الآخرين، لذلك كانوا يُبعثون إلى الحمّامات أو يقال لهن ببساطة أن يتوقفن. في بلاد غربية مختلفة انضمت الأمهات المرضعات اللاتي عانين من هذه الخبرة إلى كتائب لتنظيم حملات رضاعة طبيعية جماعية عن طريق الرسائل الإليكترونية، أو كما يسمينها 'الرضاعة في الداخل'. عن طريق إرضاع أطفالهن علانية في المكان الذي قام بالإهانة، تثبت الأمهات النشطات حقهن في فعل ما هو طبيعي في الأصل. في بلاد إسلامية عديدة يُسمح بالرضاعة الطبيعية المتحفظة أمام الآخرين، لكنها ممنوعة في السعودية. في نفس الوقت تم إطلاق مجموعة دعم إسلامية على فيسبوك لتشجيع النساء اللاتي يردن إرضاع أطفالهن في الأماكن التي يكون موجودا بها أناس آخرون.[234]

مسألة مختلفة جدا تتعلق بالإرضاع روّعت مؤخرا العالم العربي. إذ تحكي رواية مثبتة في كتب التراث الإسلامية من القرن التاسع عن امرأة تستشير النبي محمد في أمر شاب يعيش معها هي وزوجها في نفس البيت. وجد زوجها إشكالية في وجود هذا الفتى

234- https://www.facebook.com/groups/breastfeeding.muslim.mothers/.

الذي لا يمت لهما بصلة قرابة أثناء إرضاع زوجته لطفلهما. نصحها النبي بأن ترضع الشاب، ممنطقا ذلك بأنها إذا أرضعته خمس مرات سيصبح فردا من أفراد العائلة. طبقا للقصة فقد رضي زوجها بعد أن اتبعت نصيحة النبي؛ بما أن التقليد الإسلامي يُحرّم العلاقات الجنسية للرجل مع امرأة أرضعته من قبل في حياته.

في عام 2007 في القاهرة أصدر د. **عزت عطية** فتوى عن الإرضاع ترجع إلى هذا الحديث، سببت الكثير من الذعر. وصل هذا المحاضر ورئيس قسم الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى استنتاج أن هذه النصيحة الجديرة بالذكر من النبي **محمد** قدمت الحل النموذجي للمشكلة الخطيرة الخاصة بالعلاقات غير المرغوبة بين الرجال والنساء في أماكن العمل: إذا أرضعت النساء زملاءهن الذكور بضعة مرات، فستصير علاقاتهم أوتوماتيكيا علاقة الأم بطفلها، حتى لو لم يكن الرجل هو الابن البيولوجي للمرأة المعنية. كان المراد من هذه الفتوى أن تمنع العلاقات الجنسية في أماكن العمل وبذلك يبطل التحريم الديني للاختلاط.[235]

وفقا لقناة العربية في دبي فإن رجل الدين المصري قد استشهد بنصيحة النبي أن إرضاع الرجل خمس مرات كاف له كي يختلط بالنساء في مكان العمل وللنساء كي يخلعن حجابهن دون انتهاك للشريعة الإسلامية.

أثارت هذه الفتوى لغطا وارتباكا في مصر، وكانت النساء العاملات غير متحمسات على الإطلاق لتبني هذه الممارسة المقترحة. وأدت إلى جلسة نقاش في البرلمان المصري، وسخر النقاد علانية من رجل الدين في التليفزيون. رفضت لجنة جامعية الفتوى، لأنها تتناقض مع مبادئ الإسلام والأخلاق. ونتيجة لموجة عارمة من الضغط الشعبي سحب د. **عطية** فتواه، معترفا أنها استندت على 'تأويلات أقلية قروسطية لحالة خاصة' أثناء زمن النبي. وبعد إيقاف مؤقت سُمح له بالعودة إلى العمل.[236]

للأسف لم يتم حل المشكلة المفترضة الخاصة بتحريم اختلاط الرجال بالنساء اللاتي

235- Sam Shamoun, Islam and the Nursing of Adults http://www.answering-islam.org/Shamoun/nursing_of_adults.htm; see above p.156.

236- BBC 22 May 2007 http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/6681511.stm.

لسن من أهلهم الأقربين. يفتقد معظم المسلمين الوضوح حول هذا الأمر وأمور أخرى تقليدية كثيرة، لكن معظم رجال الدين – خوفا من اتهامهم بالردة – لا يجرؤون على تقديم إفادات واضحة وعملية حول طريقة العيش في مجتمع اليوم الصناعي. وهذا هو السبب في أن الجدل حول هذا الموضوع يشتعل من وقت لآخر في الدوائر الأصولية المتشددة. بعد ثلاث سنوات من الحادثة المذكورة قام الشيخ السعودي رفيع المقام **عبد المحسن العبيكان** مستشار الديوان الملكي السعودي بإثارة الموضوع مرة أخرى في التليفزيون.[237] وكان العنصر الجديد في تفسير الشيخ للفتوى هو أن الرجال ليسوا بحاجة لشرب لبن الثدي من الحلمة مباشرة؛ فشرب اللبن من الكوب يؤدي الغرض. وهناك رجل دين آخر أكبر، هو الشيخ **أبو إسحق الحويني** وافق على كون الفتوى المصرية التي صدرت عام 2007 'هي الطريقة الصحيحة للتحايل على قاعدة فصل الجنسين في السعودية'، لكنه اعترض على تفسير زميله الليبرالي المفرط، مصرا على أن 'الرجال ينبغي أن يرضعوا لبن الثدي مباشرة من ثدي المرأة'. سببت تعليقات الشيخين لغطا كبيرا. وجاء رد الفعل الفوري من سائق حافلة في الجزء الشرقي من البلاد، والذي أخبر معلمة كانت تركب حافلته بانتظام أنه يريد أن يرضع من ثديها. رفضت السيدة بغضب وهددت بمقاضاته.

مرة أخرى كالمعتاد (ليس في الإسلام وحده) كان رجال الدين الذكور راغبين عن إشراك النساء في مناقشاتهم الدينية. وكان لدى المدونة **إيمان النفجان** هذا لتقوله: «كل هذا الكر والفر بين الشيوخ ولم يكلف أحدهم نفسه أن يسأل امرأة إذا كان هذا منطقيا، ناهيك عن إمكانية إرضاع رجل ناضج خمس رضعات مشبعات.' وأضافت: 'علاوة على ذلك، ففكرة وجود وجه كبير مشعر على ثدي امرأة لا يثير مشاعر أمومية ولا حتى أخوية. يمكن أن يتراوح الأمر بين المسخرة والإيروتيكية لكنه لن يكون بالقطع أموميا.'[238]

توضح هذه المناقشة شيئا واحدا: أن رجال الدين المعاصرين واعون بأن الفصل بين الجنسين قد أصبح قاعدة لا يمكن الدفاع عنها في المجتمعات الحديثة؛ الآن حيث تعمل في كل مكان في العالم المزيد والمزيد من الإناث المسلمات خارج البيت. وحيثما يتم فرض هذه

237- Cf. http://www.abigmessage.com/saudi-clerics-tells-how-to-overcome-sex-segregation-rule.html .

238- Cf. o.a. Sahi Muslim, Boek 008: 3424, 3425, 3427, 3428 for the ahadith concerned. http://www.abigmessage.com/saudi-clerics-tells-how-to-overcome-sex-segregation-rule.html.

القيود على المجتمع – كما حدث على سبيل المثال تحت حكم نظام طالبان في أفغانستان – تقاد النساء عائدات إلى بيوتهن وترتد المجتمعات إلى العصور الوسطى. الحقيقة أن معظم المسلمين لا يشعرون على الإطلاق أنهم معذبون بفكرة أن الشيطان قد يكون حاضرا في مكان العمل مع زملائهم من الجنس الآخر، ولكن رجال الدين يمارسون الضغط على أحدهم الآخر ليلتزموا حرفيا بأحاديث حقيقية أو مزعومة للنبي **محمد** في سياق المجتمع المعاصر. وفي منطقهم ضيق الأفق يتجاوزون نداء الواجب إلى حد أن يبدو الدواء أسوأ من الداء.

الاحتجاج العاري

يواجه العراة (آحادا أو جماعات) المحتجبين بملابسهم في جميع أنحاء العالم، لكن دوافعهم تختلف. من بين المحتجين الأفراد البريطاني **ستيفن جوف** Stephen Gough، والتونسية **أمينة السبوعي**، والصيني 'السيد **ليو**' – وقد أدهش كل منهم أو صدم نظراءه المرتدين ثيابهم بفائض من الجلد المكشوف. المسافة الجغرافية الفاصلة بين أحدهم والآخر هائلة، ودوافعهم لا تجعل تلك المسافة الفاصلة أقل بأي حال من الأحوال.

منذ عام 2006 يسير **ستيفن جوف** عبر إنجلترا ليثبت أن الجسد البشري ليس منفرا وليؤكد أن السير عاريا في الحياة هو من حقوق الإنسان الأساسية. أثناء ممارسته لهذه القناعة تم القبض عليه مرات كثيرة وأصبح شخصية إعلامية شهيرة باعتباره 'المتسكع العاري'. (الصورة رقم 31).

في رحلاته الطويلة سيرا على الأقدام عبر إنجلترا تم سجنه مرارا وتكرارا. وفي عام 2008 في إدنبره وجد النائب العام **جو ماكفرسون** Joe MacPherson أن قناعة **جوف** إشكالية؛ متسائلا أمام الجمهور عما إذا كان رجل يمشي عاريا في الطرق العامة سيسبب بالفعل 'الخوف والهلع الكافيين' بين الناس العاديين: «سيكون غريبا، أو ربما مسليا، لكنه لن يزيد عن ذلك. قال القاضي أن يديه مقيدتان. فقد كان هناك إحساس بأن رؤية قضيب رجل كافية لإثارة الخوف والهلع.' وجدت محكمة الاستئناف الأسكتلندية – مع ذلك – أن سلوكه كان خرقا للسلام ولابد من تفسيره كعمل إجرامي. من ساعتها،

تزايدت الأحكام عليه بثبات لتصل إلى الحد الأقصى وأصبحت قضيته حلقة مفرغة: عاريا يُقبض عليه ويذهب إلى السجن، عاريا يغادر السجن من جديد، ويُقبض عليه مرة أخرى. في السجن يلتزم **جوف** بمبدئه الخاص بالعري، وهو المبدأ الذي يتطلب نظاما منفصلا. وحيدا في زنزانته، لا يُسمح له بالمشاركة في الأنشطة اليومية مع السجناء الآخرين ولا باستقبال الزوار: 'في الثامنة والنصف مساء، عندما يتم إغلاق المبنى لفترة الليل، يخرج لمدة 30 دقيقة. يُفرغ قمامته، ويرسل خطاباته ويأخذ دُشا. وإذا كان محظوظا، سيكون لديه وقت كذلك للتمشية، جولة سريعة في الممرات الفارغة.' يكلف هذا السجين الدولة ملايين. نشرت الجارديان مقابلة خاصة مع السجين البالغ من العمر 52 عاما، عندما كان يقضي حكما مرة أخرى عام 2012:

> "أسمع قدميه الحافيتين تدبان على الحجر قبل أن يدخل المكتب. يقول جوف بأدب 'لطيف أن أقابلك'. نتصافح وللحظة يبدو غير واثق أين يجلس... جسده شاحب ونحيل، مرقع بجدائل من الشعر البُنّي. يتدلى قضيبه في الهواء البارد بيننا... عندما يأخذ جوف أوضاع تصوير للمصور، لا يتحرك كرجل عار. ظهره صلب ورشيق، يدق بقدميه الخشنتين على الأرض. هذا رجل ظَل عاريا لمدة ست سنوات تقريبا. الغريب أنه من الصعب تخيله مرتديا ثيابا. يطلب منه المصور أن يضع يديه على جسده. يرفض جوف بأدب، مفسرا ذلك بأنه سيكون شكلا آخر من التغطية، من تشويه نقاء وضعه. وبدلا من ذلك يفرد ذراعيه وينفخ صدره، مؤطرا بضوء الشتاء."[239]

ماذا تعني جملة 'يتحرك كرجل عار'؟ يعكس ما بين سطور المقابلة ارتباك المراسل المرتدي ملابسه في وجه عري **جوف** الخالي من القلق. وفي الصورة المنشورة أعلى المقابلة لا يُرى منه غير رأسه العارية.

تبدأ قصة **أمينة السبوعي** عندما تنشر عام 2013 وهي في سن التاسعة عشر تحت الاسم المستعار **أمينة تايلر** صورة عارية الصدر على وسائل التواصل الاجتماعي. على

239- Interview with Neil Forsyth in The Guardian 23 March 2012; http://www.theguardian.com/lifeandstyle/2012/mar/23/naked-rambler-prison .

الجزء العلوي من جسدها بكتابة عربية سوداء كتبت هذا النص: 'جسدي ملكي.. ليس شرف أحد.' (الصورة رقم 32).

ظهرت صورتها على الصفحات الأولى للجرائد في كل مكان. وتبع ذلك جدل ساخن في تونس وخارجها. تلقت **أمينة** تهديدات بالقتل وأصدر الواعظ الوهابي **عادل العلمي** فتوى ضدها أعلن فيها أنه نظرا لثقل فعلتها فلابد من عقابها بالجلد من ثمانين إلى مائة جلدة أو رجمها حتى الموت – وهذا هو الأفضل: 'ما قامت به من أفعال يمكن أن تكون مُعدية وملهمة لنساء أخريات. لذلك من الواجب عزل هذه الحالة.' باتباعه للخط التقليدي، ربط هذا الشيخ تلك الصورة للعري الأنثوي بالكوارث الوشيكة: حتما سيجلب فعلها المشين البؤس في شكل أوبئة وكوارث. وسارعت إحدى عمات **أمينة** لإبداء رفضها الصريح لسلوك ابنة أخيها: 'أتمنى أن تتحمل العواقب. فهي لا تمثل بلادها ولا النساء التونسيات.' في الوقت نفسه أعلنت أعداد كبيرة من النساء الأخريات في شمال أفريقيا والشرق الأوسط وبقية العالم أن **أمينة** تمثلهن. في كتابها Mon corps m'appartient (جسدي ملكي) المنشور في فبراير 2014، تفسر **أمينة** فعلتها كإشارة على استعادتها لحريتها في بلد يخل بحقوق النساء. أدت تلك الدعوة إلى الحرية بالمجتمع التونسي إلى أن يراها عارا وبعائلتها لإبقائها في البيت لفترة. وبعد ذلك تلقت حكما بالسجن لمدة شهرين ونصف بعد أن نقشت كلمة Femen (فيمن) على جدار مقبرة في جنوبي مدينة القيروان. ورأى الكثيرون في تونس أن علاقتها بتلك الجماعة النسوية النشطة أمر مخزٍ. فيما بعد انفصلت **أمينة** علنا عن حركة (فيمن) لأنها في رأيها معادية للإسلام ولم تعطها أبدا إجابات واضحة لأسئلتها عن تمويلها. في مقابلة حول حركة تصويرها ومشاركتها في مظاهرة دولية بباريس لنساء بشعارات على صدورهن العارية، تكلمت مفسرة عن الحاجة الملحة 'لتغيير الطرق التي يتم بها التعامل مع أجسادنا'. ليس فقط في تونس، بل في كل مكان – طالما أن النساء إما يُدفعن لسحب ظهورهن المادي تماما من المجال العام، أو على الناحية الأخرى يُدفعن لعرض أجسادهن علنا كمتاع للبورنو. وهي ترى

احتجاجها كبيان سياسي ضد كلا الإطارين اللذين يبقيان الجسد الأنثوي حبيسا.[240]

يجيء المثال الثالث من الصين. وفقا لإحصاءات حديثة ستكون هناك زيادة في أعداد الرجال عن النساء في الصين تصل إلى 40 مليون عام 2020، أخبرني بهذا طالب صيني في شينينغ غربي الصين. كان مازال صغيرا لكنه قلق جدا على مستقبله، عندما سيواجه المزيد والمزيد من الرجال تلك المشكلة الاجتماعية الفادحة. لكي تجد زوجة لابد أن تتأكد من كونك ملحوظا، والعري وسيلة ممتازة لأن تكون ملحوظا في الصين المغطاة بحرص.

من أجل هذه المهمة قرر 'السيد **ليو**' بعد ثمان سنوات من طلاقه أن يسافر من جنوب الصين إلى شمالها الشرقي ليجرب حظه في تشانغتشون عاصمة مقاطعة جيلين. تشتهر المدينة بحديقة المنحوتات العالمية الفخمة، وهي حديقة مليئة بالمنحوتات، وسطها نقطة محورية ارتفاعها أكثر من 20 مترا، مزينة بالزهور وثلاث فتيات عليهن القليل من الثياب ويمثلن «الصداقة والسلام والربيع». وهناك لافتة تقول:

ارفعوا عاليا لواء السلام

أعزفوا بقوة نغمة الصداقة

حيوا بابتهاج الربيع الجميل!

ذات يوم من أيام الأحد في ربيع عام 2013، توجه السيد **ليو** – مرتديا جوربا قصيرا وحذاء رياضيا وحزام عفة منزلي الصنع – إلى أكثر نقطة جذب معروفة في الحديقة في فعلة هي وليدة الوحدة. عندما أجاب على أسئلة المارة اتضح أنه جاء عبر طريق طويل ليجد هنا – بعيدا عن مسقط رأسه – تغييرا في النصيب، وقبل كل شيء، زوجة من الشمال الشرقي. **ليو** فلاح في الخمسينات من عمره لديه درجة دكتوراه، وهو كذلك شاعر ومخترع وفيلسوف واختصاصي في طب الذكورة. حزام العفة الذي يرتديه هو اختراعه شخصيا وطريقة ما لمنع الرجال من الخيانة الزوجية.

240- Interview with Aliaa Magda El-Mahdy: http://arcbelsdiary.blogspot.nl/201408//interview-with-amina-sboui-andmaryam. html?zx=a5d5b9b4feceedd6, http://www.kapitalis.com/societe/151 11-tunisie-amina-doit-etre-lapidee-jusqu-ala-mott-estime-un-predicateur-islamiste.html .

يحتشد الناس حوله بفضول. هل يضمن حزام عفة بالفعل الإخلاص المستقبلي لزوجته المستقبلية؟ يشير أحدهم إلى أنه لن توجد امرأة ناضجة ستأخذه على محمل الجد. يومئ **ليو** متفهما تماما. لقد توقع أن بعض الناس سيجدون أسلوبه مثيرا للجدل، لكنه عازم على الاستمرار. هذه هي طريقته لإعلان رغبته في العثور على شريكة حياة بأسرع ما يمكن. يتخذ عن طيب خاطر أوضاع تصوير للمصورين. على ملصقين عن يمينه وشماله كتب أن هذا الـ «آدم» يبحث عن «زواج ملكي». يلقي الناس نظرات عن قرب على اختراع **ليو** الفخور، لكن في الصور المنشورة في الجرائد يتم تشويشه حتى لا يُرى لأسباب تتعلق بالاحتشام.[241] (الصورة رقم 33).

تُظهر الأفعال الواسعة الاختلاف لهؤلاء النشطاء الثلاثة المنفردين في ثلاث قارات مختلفة كم يمكن أن تتباين الدوافع لإظهار جسد المرء العاري أمام الجميع. بعد العديد من الاعتقالات وسنوات السجن مازال **ستيفن جوف** العنيد يحارب النظام القانوني البريطاني، **وأمينة السبوعي** تعمل على تحسين وجهات نظر العالم في النساء، والسيد **ليو** يؤمن أن جهازه الفريد سيساعده في العثور على شريكة حياة جديدة.

يقدم الأدب – بنفس القدر الذي يقدمه الإنترنت – أمثلة لا تُعد ولا تُحصى لأفراد يتعرون من منطلق اليأس أو الوحدة، مجبرين على يد أشخاص آخرين أو محتجين على المظالم. أو – ولعله هو الأكثر شيوعا – من منطلق احتياج غير محدود لجذب الانتباه، سواء بدافع جنسي أو لا. تشير المفردة الإنجليزية **flasher** (المتعري أو المتعرية) إلى كلا الجنسين، رغم أن الاستعراضية ترتبط عادة بسلوك الرجال الذين يشعرون بدافعية لإظهار أعضائهم الجنسية العارية للغرباء، عادة النساء، في الأماكن العامة. وهناك أيضا حالات – أكثر ندرة – لنساء يكشفن صدورهن أو مؤخراتهن أو أعضاءهن التناسلية بلا داع لأسباب تتعلق بإثارة الرجال أو طعن ذواتهم الهشة.

يرى الأطباء النفسيون سلوك المتعرين **flashers** كانحراف. ويعترف بعض المتعرين

241- Raymond Zhou and Liu Mingtai in de China Daily, 8 August 2012; http://shanghaiist.com/201219/09//nude-manchastity-belt.php;
.http://www.globaltimes.cn/content/731630.shtml;
http://english.people.com.cn/90782/7940337.html.

أنهم شعروا بتلك الحاجة نتيجة لمخاوف تتعلق بصغر القضيب؛ وسأل آخرون ضحاياهن: «هل رأيتن أبدا واحدا كبيرا كهذا؟» يبدو أن المتعة تأتي من ردود الفعل العاطفية المتمثلة في الصدمة أو الألم أو الاشمئزاز التي يثيرها المتعري بين النساء، وكذلك من العقوبة على خرق القانون، لأن كليهما «يؤكدان له أن لديه شيئا يعرضه.»[242]

أما المقتحمون العراة Streakers فلهم نظام آخر. فهم لا يتحركون على وجه التحديد بدافع عرض أعضائهم التناسلية، بل الجسد بأكمله أثناء الجري على الملأ، ويُفضل على مرأى من حشد كبير خلال حدث رياضي هام أو تجمعات عامة أخرى. في العالم الغربي يُنظر عموما لهذا العرض العاري على أنه شيء مسلٍ أكثر من كونه مهينا أو مهددا. مع ذلك عادة ما يتم إلقاء القبض على المقتحمين العراة وعقابهم على مخالفة القانون. في سبعينيات القرن العشرين كان هذا الفعل شائعا جدا لفترة على جانبي المحيط الأطلنطي. على حد علمنا يعود تاريخ أقدم مثال لهذه الظاهرة إلى عام 1804 عندما قام الطالب – وقتها – **جورج وليام كرامب** George William Crump، والذي أصبح فيما بعد عضوا في الكونجرس الأمريكي، بالجري عاريا عبر مدينة ليكسنجتون بولاية فيرجينيا. في ستينيات القرن العشرين بدأ الطلاب الأمريكيون في تنظيم مسابقات للعدائين العراة هنا وهناك، لاستفزاز الشرطة.[243] ومثلت مهرجانات الهيبيز وحفلات الروك مثل مهرجان وودستوك (1969) ثقافة مضادة قوية كان لدى الشباب فيها بوضوح محاذير أقل من الجيل السابق بشأن التعري.

في إنجلترا اتخذ الاقتحام العاري شكلا أكثر فردية وأصبحت أسماء قليلة معروفة جيدا بفضل صورهم التي تم نشرها على نطاق واسع، مثل **سالي كوبر** Sally Cooper التي جرت عارية – فيما عدا القليل من المجوهرات – فوق جسر ريتشموند في لندن عام 1974، وعندما أوشك شرطي أن يقبض عليها نجحت في الهروب بفضل الذعر الذي سببه كلب بوليسي عدواني عض مؤخرتها. هناك صورة أخرى شهيرة من نفس العام تُظهر المحاسب الأسترالي **مايكل أوبريان** Michael O'Brien يقتحم عاريا ملعبا في تويكينهام أثناء مباراة رجبي دولية بين إنجلترا وفرنسا. في الصور يقبض عليه شرطيان، أحدهما

242- Barcan 187 لمزيد من التفاصيل انظر الفصل الثالث من كتابها .

243- Carr-Gomm 1974ff.

يغطي باحتشام الأعضاء التناسلية للمقتحم بخوذته الشرطية بينما يدخل إلى المشهد أحد موظفي الاستاد جاريًا بمعطف مطر بسيط ليغطي الجاني. فيما بعد بيعت الخوذة في مزاد علني مقابل 2.400 جنيه استرليني وهي الآن معروضة في متحف الرجبي العالمي بالاستاد. (الصورة رقم 34).

قد يشعر المقتحم بالتحدي للقيام بهذه الأفعال نتيجة رهان ما، لكن ما يحركه أو يحركها بالأساس هو شكل متطرف من الحاجة البشرية العامة لجذب الانتباه – سواء قامت الجماهير المستهدفة بتقدير جهده/ـا أو لا. في وسائل الإعلام الغربية تتحكم المحطات العامة في إذاعة العري بشكل أكثر صرامة مما كانت عليه في الماضي. على سبيل المثال لم يعد التليفزيون الأسترالي يعرض أفعال الاقتحام العاري في الأحداث الرياضية لكي يحبط حالات التقليد:

> "عندما تشاهد مباراة رياضية في التليفزيون هذه الأيام، وإذا تغير المنظر فجأة إلى لقطات تفصيلية للسماء أو أي مكان آخر غير الملعب، بينما يكشف شريط الصوت عن جمهور يزأر ويهتف، يمكنك أن تتأكد تماما أن شخصا ما يقتحم الملعب عاريا، وأنهم يتكرون عليك حرية التفرج والاستمتاع."[244]

الاقتحام العاري من أجل المتعة غير مطروح للتفكير في البلاد الإسلامية، لكن في أجزاء أخرى من العالم ينصح رجال الدين المتشددون أحيانا بعدم حضور الأحداث الرياضية الاحترافية، بسبب وجود مخاطرة (محدودة إلى حد كبير) بمواجهة المستعرضين العراة، كما يقول الموقع الإليكتروني الجنوب أفريقي (الهاتي):

> "المقتحمون العراة (أشخاص يندفعون عراة تماما على الملأ) يختارون أن يميتوا حتى القيم الإنسانية الأساسية. إذا تعرض طفل المرء لمثل هذا السلوك الحيواني في حدث واحد فقط، ستدوم تأثيراته السلبية طوال العمر. هل يمكن للمسلم الحقيقي أن يجازف بمثل هذا الموقف؟... إذا تعرض طفل المرء لمثل هذا السلوك الحيواني في حدث واحد فقط، ستدوم

244- Ibid. 176-190. Ibid. 179

> تأثيراته السلبية طوال العمر. هل يمكن للمسلم الحقيقي أن يجازف بمثل هذا الموقف؟... عندما تنحط الألعاب الرياضية إلى هذه المستويات الوضيعة، فإن الشيء المحترم الوحيد الذي يجب فعله... هو ألا يكون لك علاقة بهذا.»[245]

فكرة أن طفلك سيصاب بصدمة طوال عمره نتيجة لرؤيته مرة واحدة في حياته مقتحما عاريا يهرول، تعكس المخاوف عميقة الجذور من 'أخطار العري'، كما يتم التعبير عنها في الأديان التوحيدية. لا يغير هذا حقيقة أنه طوال التاريخ كانت هناك كذلك جماعات من الناس اختارت أن تتجول دون ملابس كشكل من أشكال الحرية أو كجزء من معتقدهم الفلسفي أو الديني. أحد الأمثلة المبكرة الشهيرة هو لقاء **الإسكندر الأكبر** بمجموعة من الفلاسفة الهنود [أو الجيمنوصوفيين (الزُهَّاد) gymnosophists كما كانوا يطلقون عليهم في العالم الهيليني]. يحكي المؤرخ والفيلسوف العظيم **بلوتارخ** (القرن الأول الميلادي) في تأريخه لقصة حياة **الإسكندر الأكبر** عن مصادفة الملك والقائد الأسطوري لعشرة فلاسفة عراة على ضفة نهر السند.

قابل الإغريق هذه الفرقة من الهندوس العراة أو الزاهدين الجاينيين Jain لأول مرة في القرن الثالث قبل الميلاد في مدينة تاكسيلا – كانت تقع في الهند قديما والآن هي في باكستان – ربما في مركز فيدي Vedic وبوذي قديم. في القرن السابع قام العالم الصيني والراهب البوذي **تشيونتسانج** Xuanzang في رحلته للهند بوصف وجود زاهدين مشابهين (sadhus) في نفس المنطقة. مازالت هذه الجماعات الزاهدة الصارمة موجودة اليوم. (الصورة رقم 35).

مبادئ الزُهَّاد الصادهو sadhus تضعهم أحيانا في صراعات مع وجهات نظر أخرى في المجتمع الحضري المعاصر، وهو ما يمكن استنتاجه من تقرير صحفي حديث في (فيرست - بوست إنديا) Firstpost India عن شكوى بثها أحد السياسيين من زاهد صادهو كان يمشي عاريا عبر حيّ دارا في مومباي – وقال هذا السياسي أنه يتحدث بصراحة نيابة عن النساء:

245- http://allmadi.org/en/articles-publications/articles/69-islam-and-sports.html .

> "'أكثر من 100 امرأة قد شكون لي كتابة من هذا الموضوع. أنا لست ضد أي دين على الإطلاق. لكن ينبغي عليهم أن يفهموا أن الكثير من النساء يجدن فحشا ويشعرن بالحرج من رؤية زاهد عارٍ يتجول في الطرقات...' وصفت جماعة الجاينيين هذه الشكوى بأنها 'سخيفة' قائلين أن الأمر يتعلق بممارستهم الدينية: 'لدى زهاد الصادهو نذور دينية بالتجول والطواف وهم لا يقومون بأي إيماءات سوقية. إنه العقل الآثم الذي يظن الأمر خاطئا. إنها ممارسة دينية ولدى الأقليات الحق وفقا للدستور في إعلان ونشر دينهم. إنه أمر سخيف جدا أن يقوم شخص ما بتقديم شكوى، لكن لا يوجد بند في القانون ينص على اتخاذ إجراء ما في هذه الحالة.' هذا ما قاله **دانبال سولانكي** Dhanpal Solanki وهو محام عمل على قضايا عديدة تخص الجاينيين وجماعات الأقليات.»[246]

ظهرت بين المسيحيين في شمال أفريقيا من القرن الثاني وحتى القرن الرابع طائفة كانت مقتنعة بأنها قد استعادت براءة **آدم** الأصلية. أدان بعض اللاهوتيين أتباع هذه الطائفة باعتبارها فرقة فاجرة، ورآهم أخرون كزاهدين ضالين يسعون لتحريم شهواتهم الجسدية بطريقة عيش متعففة وبإلغاء الزواج. كانوا يستلهمون **آدم**، الشخص الوحيد الذي تحرر من الخطيئة وكان يمشي عاريا في أنحاء الفردوس. مثل **آدم**، كان الآدميون Adamites كذلك يحبون السير عراة. كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون إعادة اكتشاف براءة السلف الأول عن طريق التخلص من حمل الثياب. أثناء الخدمة الدينية في الكنيسة التي كانوا يشيرون إليها بـ 'الفردوس' كانوا يحضرون في زيّ **آدم** كدليل على براءتهم العارية.

من وقت لآخر كانت أفكار الآدميين Adamites تستعيد انتشارها في أوروبا، مثلا بين القائلين بتجديد العماد Anabaptists الذين كانوا يسعون لتحقيق مملكة الرب الجديدة

246- يشير المزيد من الكُتّاب من القرون الأولى للجيمنوصوفيين، مثل سترابو ، وفيلو السكندري، وفلافيوس يوسيفوس، وإكليمندس السكندري: http://en.wikipedia.org/wiki/Gymnosophists. وبالنسبة للشكوى الحديثة من الصادهو:
cf. Firstpost India dd 9 May 2014, http://www.firstpost com/india/mns-leader-files-complaint-against-jain-sadhu-forobscenity-1515765.html.
جاءت الشكوى من حزب قومي محلي يحمل شعار: 'أبناء الأرض'.

ذات النظام العالمي الجديد الذي سيختفي منه الفساد والظلم للأبد. في ثلاثينيات القرن السادس عشر شوهد أحد القائلين بتجديد العماد يجري عاريا عبر شوارع أمستردام وهو يصيح: «يا ويلتاه، يا ويلتاه، من غضب الله!». وقد انتهت حياة بعض أتباع هذه الفرقة بطريقة دراماتيكية:

> "لقد عوقبوا بقسوة بعد أن احتلوا دار البلدية في ساحة دام (السد) في أمستردام يوم 10 مايو 1535. على السد 'قُطعت قلوبهم وهم أحياء من أجسادهم وألقي بها في وجوههم'، مُزقت أجسادهم إلى أربع وعُلقت أجزاء منها على كل بوابة من بوابات المدينة، بينما وُضعت رؤوسهم على أوتاد. كانت أيديولوجية القائلين بتجديد العماد منتشرة بشكل خاص بين البورجوازية الصغيرة، ولذلك كان يُنظر إليها كتهديد للكنيسة وكذلك لمجلس المدينة. وهذا هو السبب في اتخاذ مثل هذه الإجراءات الصارمة شديدة الثقل ضدهم.»[247]

ميدان دام في أمستردام هو نفس المكان الذي يحتفل فيه الهولنديون يوم 4 مايو من كل عام بذكرى المدنيين وأفراد القوات المسلحة الهولندية الذين ماتوا في الحروب أو في بعثات حفظ السلام منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. في الأول من مايو كل عام في تمام الساعة 8 مساء يتم الوقوف دقيقتين من الصمت في ساحة دام وكذلك في كل أنحاء هولندا، ومن الصعوبة بمكان تخيل أن مثل هذه الأفعال الوحشية البشعة قد ارتُكبت في هذا الميدان ذاته. (الصورة رقم 36).

يفضل معظم المؤمنين أن يذهبوا في ثياب مهندمة إلى أماكن عبادتهم، لكن حتى اليوم هناك مسيحيون يفضلون التجمع عراة لأداء خدمات الكنيسة، كطائفة صغيرة على سبيل المثال في ولاية فيرجينيا الأمريكية. وفقا للقس **ألن باركر** Allen Parker «يتعلق الأمر بتعرية المرء روحه للمسيح وقيادة قطيعه عبر هذا الطريق المستقيم، ولا يهم ماذا يرتدون" وليس لهذا صلة بالملابس أو بغيابها. وما يجده جميلا في الأمر أن

247- http://stadsarchief.amsterdam.nl/presentaties/amsterdamse_schatten/oproer/wederdopers/index.html De Adamieten, ook wel 'Broeders en Zusters van de Vrije Geest' genoemd werden later door de rooms-katholieke kerk tot ketters verklaard.

الناس دون ملابس يتخلصون من الإحساس بأنه لابد للمرء أن يكون أفضل من الآخرين بشكل مادي: «نحن بشر، لدينا ندوب، لدينا ما هو لدينا... الأمر هو تعلم الحب وقبوله.» حتى في فصل الشتاء يحضر الكثيرون الخدمة دون ثياب أو مرتدين أقل القليل منها. وفقا لأعضاء الطائفة ليست هذه خبرة مدغدغة للحس على الإطلاق، بل تجلب السلام الداخلي للحاضرين وشعورا بالحرية. الخوف الذي يصل إلى حد الذعر أحيانا من العري بين المؤمنين والذي صادفناه قبل ذلك، يغيب في هذه الكنيسة الصغيرة التي ليس لديها مشكلة مع الجسد العاري. قال القس **باركر** لقناة سي إن إن: "عندما وُلد [يسوع] كان عاريا، وعندما صُلب كان عاريا، وعندما قام ترك ثيابه في القبر وكان عاريا." وأضاف: "إذا كان الرب قد خلقنا هكذا، كيف يمكن أن يكون هذا خاطئا؟" بكلمات أخرى، فإن العري بالنسبة له هو "المُساوي الأكبر؛ إذ يجعل الناس واعين بأنهم جميعا كائنات بشرية بسيطة تشبه بعضها البعض أسفل الملابس.»[248] قد لا يتفق معه الكثير من المسيحيين، والكثير من اليهود والمسلمين كذلك.

بالرغم من أنه (ربما) لم تعد هناك شعوب كاملة تسير عارية، إلا أنه مازال هناك في كل مكان أناس يمضون عكس التيار ويفضلون أن يسيروا بدون ملابس – رغم أنه لا توجد إحصائيات أو نسب مئوية مُسجلة. ولأن القانون يمنع العري على الملأ، فإنهم مضطرون لممارسة تفضيلهم في البيت غالبا، لكن في الغرب هناك استثناءات قليلة لهذا القانون في شكل شواطئ العراة، والمعسكرات وحمّامات البخار وحمّامات السباحة والمروج. يتعرى المنادون بالعري لمتعتهم الشخصية وبلا أي دافع جنسي. منذ بداياته تماما كان الغرض من مذهب العري أو المذهب الطبيعي هو الربط بين العري وبين الرفاهية الذهنية والصحة النفسية، لكن مذهب العري حتما – بكلمات **ساندرا باركان Sandra Barcan** «يحمل تناقضا متأصلا – فهو الممارسة الأصيلة التي تحتاج للمحاججة دائما لإثبات طبيعيتها. إنها الانحراف السليم، الطبيعية غير الشائعة، مذهب العري هو ممارسة عادية واستثنائية في نفس الوقت.»[249] الاختلاف الحاسم بين مقتحمي الملاعب العراة

248- http://www.nbc12.com/story/24677504/nudist-church, February 2014; http://www.dailymail.co.uk/news/article-2556548/And-naked-not-ashamed-Church-allows-nude-worship.html, February 2014.

249- Barcan 166. For information about the history of the Frei Körper Kultur and nudism, see Barcan o.c.166ff and Carr-Gomm 152ff.

وأتباع مذهب العري هو أن المقتحمين يهدفون إلى أن يراهم أكبر قدر ممكن من الأشخاص المرتدين ثيابهم، أما أتباع مذهب العري فليست لديهم أي رغبة في أن ترمقهم عين.

هناك أيضا بلاد لا يُسمح فيها بمذهب العري. إحدى هذه الدول هي الصين، حيث يحظر الحزب الشيوعي العري، والسباحة أو حمّامات الشمس العارية غير قانونية. أحيانا يخالف الشباب المتمرد حظر الحزب الشيوعي بالسباحة العارية الجماعية في شاطئ دادونغاي جنوب البلاد – وهو شكل من الاحتجاج ليس متوقعا حدوثه في أي وقت قريب في الشرق الأوسط. وفقا لجريدة شانغهاي دايلي فقد تم رصد رجال على الشاطئ «يدخنون السجائر ويستلقون على المناشف»، بعضهم عارٍ «وبعضهم بسراويل تحتية نصف مخلوعة" مما يعني أن "الكثير من السائحات شعرن بحرج بالغ من الاقتراب من الشاطئ". بعبارات **لو بومينج**، رئيس الحزي الشيوعي المحلي: فإن السباحة العارية «أمر غير متحضر ومناقض للعادات والثقافة الصينية» مضيفا، وفقا لوسائل الإعلام الحكومية، أن «الناس العاديون لن يفعلوا مثل هذه الأشياء.» بدافع الاحتجاج بدأ المتعرون يملأون الشاطئ، لكن تم القبض على اثنين ونُصبت الكاميرات بسرعة في الجوار لجمع الأدلة حول الجناة المستقبليين. في مقاطعات أخرى فشلت كذلك الجهود في تأسيس مجتمعات للعراة «بسبب الجدل الهائل».[250]

ليس العري أقل إثارة للجدل في الثقافات الأخرى، حتى بالرغم من أنه قد تنظيم احتجاجات عارية خلال السنوات الأخيرة في بلاد كثيرة؛ مثلا ضد التلوث الناتج عن فضلات نباتات الحرق في فرنسا (2011)، أو ضد مصارعة الثيران في المكسيك (2014). ومنذ عام 2004 هناك نشاط سنوي يكتسب شعبية متزايدة هو ركوب الدراجات عراة عبر العالم World Naked Bike Ride، والذي يقام للاحتجاج على الوحش المتغول المتمثل في استخدام السيارات والتلوث المروري الذي يختطف الشوارع من الناس الذين يسوقون أنفسهم اعتمادا على قوتهم سيرا أو على الدراجات. بركوب الدراجات دون ثياب يؤكد المشاركون على هشاشة الجسد البشري ويحتجون على اعتمادنا المفرط على النفط.

250- Thom Phillips in The Telegraph, 5 May 2014: http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/asia/china/10808601/Rebel-China-nudists-defy-Communist-Party-ban-onnakedness.html .

هناك مثال أخير هو عمل احتجاجي عارٍ مدهش بعض الشيء قام به مسلمون أتقياء – ربما يكون هو الأول من نوعه على الإطلاق – في عام 2012: فقد تظاهر طلاب ذكور في الفلبين دون ملابس ضد الفيلم الأمريكي المعادي للمسلمين الذي عُرض على اليوتيوب براءة المسلمين Innocence of Muslims . فقط وجوههم كانت مغطاة بالأقنعة لحماية مجهولية المحتجين. نُظم الاحتجاج للتأكيد على دعم جهود حكومتهم لرفع الفيلم من الإنترنت. وذكر المبادر بالدعوة للاحتجاج: «نحن ندين هذا الفيلم الذي يهين الإسلام ونحث الجميع على احترام جميع الأديان. نحن ندعم حق كل فرد في ممارسة دينه.»[251]

لقد أصبحنا معتادين على التغطية حتى أن العري قد اصبح انحرافا. عندما جاء جنسنا البشري لأول مرة إلى الوجود منذ حوالي 200.000 سنة، وفي نضالهم للبقاء كان لدى البشر العقلاء Homo sapiens الكثير من الأشياء الأخرى التي يهتمون بها عن التفكر في مزايا وعيوب أن يكونوا عراة. وكنتيجة للقوانين الجامدة وقواعد الاحتشام والاحتجاجات الساخطة ضد كل أنواع العري، يُبقي معظم الناس أجسادهم مغطاة في خضوع. وهذا هو بالضبط السبب في أن التعري – من مجرد لمحة من البدن إلى أكثر أشكال الاحتجاج بالجسد العاري وقاحة – مازال يجذب انتباها غير منقطع من سلطات الدولة والدعاة الدينيين والجموع المرتدية ثيابها. في نفس الوقت فإن القواعد الخاصة بالجلد العاري والمغطى، والاحتجاجات المؤيدة والرافضة تُبقي العالم سائرا في حركة دائبة محيرة طوال القرون وعبر الحدود.

251- In The Huffington Post 10 February 2012, http://www.huffingtonpost.co.uk/201202/10//filipino-students-holdnaked-protest-against-innocence-of-muslim_n_1931716.html.

8

عراة أو مستورون في عالم معولم

تُظهر خريطتان للعالم زيادة ملفتة في تغطية الجسد الأنثوي ما بين عامي 1500 و 1900، خاصة في المناطق التي لا يحتاج فيها الناس إلى أي تغطية جسدية لحماية أنفسهم من البرد.[252] هذه الزيادة هي بالأساس نتيجة لتأثيرات خارجية، الاحتلال الاستعماري والدوافع المسيحية بالاشتراك مع اندفاع إجباري نحو الحضارة من جهة، والفتوحات الإسلامية والتعصب الديني من جهة أخرى. تبين العولمة للعيان الحد الذي إليه تكون المجتمعات منفتحة للتغيير.

الملابس والسياسة

هؤلاء المتلكون للسلطة يستغلون الملبس ليؤكدوا أو يناقشوا أو يقلبوا علاقات السلطة الموجودة. هناك أمثلة عديدة. "الريش الجميل يصنع طيورا جميلة"، لعل هذا هو ما فكر فيه **بوكاسا** رئيس جمهورية أفريقيا الوسطى عام 1976 عندما جعل نفسه – متبعا مثال بطله **نابليون** – يُتوَّج إمبراطورا في احتفال باذخ تكلف 20 مليون دولار وخرَّب بلده. تكلف تاجه وحده – المُرصَّع بالماس – 5 مليون دولار.

في عام 1979 أمر هذا الإمبراطور بالقبض على المئات من تلاميذ المدارس لأنهم رفضوا

252- https://archive.org/stream/diefrauenkleidun00straouft#page/46/mode/2up.

ارتداء الأزياء المدرسية الموحدة التي حددها هو شخصيا لهم كي يلبسوها، أزياء صُنعت في مصنع كانت تمتلكه إحدى زوجاته. أمر الإمبراطور باتخاذ إجراءات انتقامية، ذبح فيها حرسه الإمبراطوري مائة من هؤلاء الأطفال. وحضر الإمبراطور نفسه المذبحة.

من وقت لآخر ينشر رؤساء الدولة الأقوياء الأزياء الموحدة كأيقونات لخنق أي شك في سلطتهم. بل إن القادة المخططين للثورات الراديكالية قد يفرضون قواعد جديدة للملبس على جميع رعاياهم. ويتطلب الرفض الظاهر لارتداء الملبس الجديد شجاعة ويمكن أن يكون خطرا على الحياة. ويحدث أن يُظهر الرعايا – وينطبق هذا على المؤمنين كذلك – مساءلتهم أو رفضهم للقواعد المفروضة عن طريق ارتداء ملابس مختلفة بوضوح. ويوضح مظهرهم أنهم يرون حلما مختلفا للمستقبل بالنسبة لأنفسهم ولأطفالهم.

يقدم تاريخ الصين الحديث مثالا ملفتا للإلغاء القسري لزي تقليدي طال احترامه. كانت النخبة معتادة على ارتداء ثياب بطول الإنسان بأساليب مختلفة، مزينة غالبا بشكل جميل بتطريزات مكلفة. بعد عزل أسرة **كينج** Qing المالكة الإقطاعية عام 1911، بدأت النساء الصينيات التقدميات في معارضة أنماط الدور التقليدي، أولا بالتماس يحبذ ملابس أقصر ويعارض تقييد القدمين. تشانجشان Chángshān – وهي كلمة تعني حرفيا في اللغة الصينية الشمالية (الماندارين Mandarin): القميص الطويل، تغيرت عن طريق تهجئة مختلفة باللهجة الكانتونية الجنوبية إلى تشونجسام cheongsam بالإنجليزية – بدأ كثوب طويل للرجال والنساء على السواء. في السنوات الأولى من الجمهورية أصبح هذا الزيّ منتشرا جدا بين الطالبات، وفيما بعد على يد النساء من جميع الأعمار. فقد اعتبرن أن الثوب الجديد يمثل تحركا ماديا نحو المساواة بين الجنسين. وبفضل التأثير الغربي تغيرت التنويعة الأنثوية الواسعة والفضفاضة تدريجيا إلى خط ضيق يؤكد على شكل الجسد، وارتفع طوله من الكاحل إلى الركبة.[253]

نحَّت ثورة 1949 الشيوعية بسرعة هذا الزيّ جانبا عندما سعت حركة متنامية – بناء

253- See http://en.wikipedia.org/wiki/Cheongsam.
مع شكري لويلت إيدما Wilt Idema متخصص الصينيات في هارفارد على المعلومات الشخصية.

على طلب **ماو** – لتدمير كل ما هو 'قديم'، خاصة أشكال الزيّ القديمة:

"... من المجوهرات ومستحضرات التجميل إلى البنطلونات القصيرة، والأحذية عالية الكعب أو مدببة الطرف. بالنسبة للرجال كانت رابطة العنق علامة على نمط الحياة الرأسمالي والشعر الطويل كاشفا عن ميول بورجوازية لا تقل عنه. في 21 ديسمبر 1966 عرض الحرس الأحمر مليوني زي 'منحرف'. وكانت أوبرات هذا الوقت تقدم الممثلات بأزياء موحدة وأسلحة. ولوقت طويل كانت النساء الصينيات يرتدين سترات وبنطلونات، بسبب ندرة أنواع القماش، مقدمات بهذا للعالم صورة هي الأكثر إدهاشا لزيّ للجنسين مفروض نظاميا."[254]

اقترح **ماو** نوعين من الملابس لكلا الجنسين: الأفرولات للعمال والزي العسكري للجيش:

"في اليوم الأول من أكتوبر عام 1949، تجمع ثلاثمائة ألف جندي ومدني صيني في ميدان تيانانمين في قلب بكين وانضموا إلى طقس الاحتفال التأسيسي للصين الجديدة. تلا الزعيم ماو الإعلان العام عن حكومة الشعب المركزية وأعلن للعالم برصانة تأسيس جمهورية الصين الشعبية. كان الجمهور بحرا من الأزرق الداكن والرمادي والأسود... كان تأسيس الجمهورية يعني أن الأزياء الغربية والأحذية الجلدية والتشونجسام المزخرف التي كانت تعتبر رموزا للمكانة الاجتماعية العالية من قبل قد دُفنت عميقا. وبدلا منها، شهد العصر بزوغ بدلة زونجشان **Zhongshan** (المسماة على اسم الثوري الديمقراطي **صُن زونجشان Sun Zhongshan**، المعروف أكثر باسم **سون يات سين Sun Yat-sen**) ومعطف لينين (على اسم القائد الروسي). كان **يات سين** قد قدم بدلة زونجشان – المعروفة في الغرب باسم بدلة **ماو** – كشكل للزي القومي بعد فترة قصيرة من تأسيس جمهورية الصين. وفيما بعد اكتسبت ارتباطا سياسيا وحكوميا واضحا. بعد نهاية الحرب الأهلية الصينية وتأسيس جمهورية الصين الشعبية عام 1949،

254- Bard, p. 328.

أصبحت البدلة زيا يرتديه الرجال وقادة الحكومة على نطاق واسع كرمز للوحدة البروليتارية وكمقابل شرقي لبدلة العمل الغربية.»[255]

كانت الشخصيات السينمائية النسائية المرتدية للتشونجسام مثيرة للريبة بالضرورة: فلابد أن تكون الممثلة المرتدية لهذه الثياب شريرة أو فاسقة، جاسوسة أو عشيقة رجل ما.

يعكس الملبس الصيني أن فترة الستينيات من القرن العشرين كانت صعبة وأن الظروف الاقتصادية كانت قاتمة. في تلك السنوات اختفت كل الاختلافات بين أزياء الرجال وأزياء النساء: فكان الجميع يرتدون إما لباس العمل أو الزي العسكري. وأصبح الأخير ذا شعبية طاغية. حتى الزي والقبعة العسكرية المستعملين كانا حلما للملايين. أصبح هذا الزي هو أكثر ما يُطلب وتسابقت الفتيات مثلهن مثل الفتيان على ارتدائه، حتى كثوب زفاف مفضل. لقد أثبتت ثقافات قليلة طوال التاريخ مثل هذا الاحتشام المفرط بثبات الذي كان عليه الصينيون لقرون عديدة، وهو تقليد تماشى تماما مع بدلة **ماو** للجنسين، الرزينة والمخفية للشكل والمغطية للجسد كله بطريقة عفيفة.[256]

فسَّر الغرب البعيد بسذاجة هذا الزي الاشتراكي الشرقي كإصلاح تحرري، حتى تسربت أصداء الجوانب السلبية الكثيرة للثورة الثقافية. في ستينيات القرن العشرين أصبح ما يصلح للجنسين منتشرا للغاية في العالم الغربي حيث كانت البنطلونات الطويلة تقليديا ثوبا للرجال، خارج نطاق النساء، كوسيلة اجتماعية لتأكيد الاختلاف الجنسي.

255- Http://en.wikipedia.org/wiki/Changshan and http://www.womenofchina.cn/womenofchina/html1/culture/costumes/13/9818-1.htm.

256- Sun Xi ed. Fashion Memories of the 1950s, 1 April 2012: http://www.womenofchina.cn/womenofchina/html1/culture/costumes/13/9818-1.htm. For more information about Chinese fashion history: http://traditions.cultural-china.com/en/15Traditions12360.html.

ملابس صالحة للجنسين: مع أم ضد؟

تقدم القصص الأسطورية مجموعة كبيرة من الإجابات لسؤال كيف جاء الرجال والنساء إلى الوجود. تقدم بعض قصص التكوين السماء والأرض في دور والدي العالم في نوع من الاتحاد ثنائي الجنس. على المستوى الإنساني الجزئي يعني هذا أن كل إنسان يتألف من مكونات ذكرية وأنثوية، كما يؤكد ليس فقط علماء النفس، بل الحكمة التبتية كذلك القائلة أن مائة سمة ذكرية ومائة سمة أنثوية تصنع الإنسان الكامل. ومع ذلك، ومنذ الميلاد مباشرة يُزوَّد الناس آليا ببطاقة ذكرية أو أنثوية، تتضمن قواعد ملبس محددة لكلا الجنسين لتأكيد الاختلاف، وهو الاختلاف الذي يحدد إلى حد كبير مصير وحياة معظم البشر.

في كتابه عن «الزي الأنثوي في تطوره الطبيعي» يميز **كارل هاينريش ستراتس Carl Heinrich Stratz** بين عادات الملبس «الاستوائية» و«القطبية الشمالية»، حيث جاءت المآزر والتنورات وتنويعاتهما من الجنوب الاستوائي، بينما جاءت تنويعات البنطلون من الشمال الثلجي البرودة.[257] بفضل الهجرات المستمرة تداخل الأسلوبان وفي النهاية أصبحت التنورات هي المميزة لملبس النساء وغدت البنطلونات للرجال.

تشير كلمة Unisex 'الصالح للجنسين' إلى كل شيء لا يكون مقصورا فقط على أحد الجنسين، من تسريحة الشعر إلى الملابس. ولعل الجزاءات المفروضة على أي من الجنسين حال ارتدائه ملابس الجنس الآخر كانت بوحي من المخاوف المتعلقة بالنجاسة والمثلية الجنسية. لا ينبغي أن تكون هناك أي حالة من عدم الوضوح الجنسي، فالمهمة الأساسية للرجال والنساء هي التكاثر لتأمين الوجود المستمر للنوع.

أشرنا فيما سبق إلى التقليد اليهودي الذي لا يُسمح فيه للنساء بارتداء زي الرجل، والعكس صحيح، على أساس نص من التوراة العبرية، وهي القاعدة التي لم يأخذها فقط اليهود بجدية؛ بل والمسيحيون كذلك. ووفقا لحديث نبوي ضمه صحيح **البخاري** (810

257- Stratz 1904:40ff.

– 870) فقد تمسك النبي **محمد** بهذه القاعدة اليهودية والمسيحية.[258]

كان لابد أن يكون الاختلاف بين الرجال والنساء واضحا على الفور من مظهرهم الخارجي. فالرجال اليهود المتدينون لن يلبسوا أبدا ثيابا ملونة أو حُليا. وتؤكد لحاهم أنه لن يخطئ أحد أبدا ويحسبهم من الجنس الآخر. وترتدي النساء اليهوديات المتدينات تنورات تغطي الركبة ويرفضن ارتداء البنطلونات، بسبب التحريم المفروض على الزي المختلط وكذلك لأسباب تتعلق بالاحتشام. يُنصح بشدة أن تكون التنورات واسعة، ومتى شعرت أي امرأة يهودية بالتردد حيال طول تنورتها، يمكنها أن تطلب نصيحة الحاخام المحلي. يعتقد بعض الحاخامات أن البنطلونات أكثر احتشاما من التنورات الضيقة، لكن يبدو أن نساء كثيرات يفضلن البنطلونات الضيقة التي تؤكد على شكل أجزاء الجسد المغطاة المعنية والتي تناقض قواعد العفة. بعض الدعاة الروحيين يكونون أقل تشددا فيما يتعلق بالتعاليم، وبعضهم الآخر ليسوا كذلك.[259]

في السياق التاريخي الذي يعود إليه كتاب التوراة اليهودي تحديدا، لم يكن هناك أي شخص يرتدي البنطلون وكان هناك اختلاف بسيط بين لباس الذكر ولباس الأنثى. كان كلا الجنسين يرتدي ثوبا علويا فضفاضا وثوبا تحته أو سترة قصيرة من القماش أو الجلد بها فتحات للذراعين والرأس. كان الاختلاف يتضح بارتداء الرجال لعمامة أو غيرها من أغطية الرأس بينما كان يُحرَّم على النساء ارتداء 'الدروع'. يعود تاريخ الإصرار على وضع الحدود الفاصلة بين البنطلونات والتنورات إلى أزمنة لاحقة ومناطق مختلفة.

كانت هناك كذلك قواعد صارمة بين المسيحيين، كان المقصود منها أحيانا أن تجعل الناس واعين بأجسادهم، لكن هذه الآراء اختلفت مع الوقت. مازالت المجموعات المسيحية المتشددة تصر على وجوب ارتداء الرجال والنساء لملابس مختلفة، وفي المجتمعات المسيحية كانت البنطلونات للرجال والتنورات للنساء علامة على اختلاف غير قابل للوصل بين

258- Hebrew Bible book Deuteronomium 22:5; see also http://sunnah.com/search/?q=woman+dress+man.

259- Http://www.orthodox-jews.com/jewish-religious-clothing.html#ixzz3LlmOWZw0; http://jewinthecity.com/2009/06/why-dont-orthodox-jewish-women-wear-pants/.

الجنسين حتى النصف الثاني من القرن العشرين.[260]

تبين الأسئلة المطروحة مرارا حول هذا الموضوع على مواقع الإنترنت الإسلامية أن كثيرا من المسلمين المعاصرين في صراع مع تفسير قواعد الملبس الإسلامي الإلزامي للرجال والنساء، وخاصة مع السؤال عمَّا إذا كان مسموحا للنساء بارتداء البنطلونات والجينز. وفقا لرجال الدين المتزمتين، هذا مُحرَّم بشدة:

> "الواجب على المسلمة أن تلبس من الثياب ما يستر بدنها، ويستر عورتها، وذلك بلبس ما لا يصف البشرة: كالشفاف. ولا يصف حجم العورة: كالضيق. والبنطلون هو مما يصف جسم وعورة المرأة، فلهذا لا يجوز للمرأة أن تلبس البنطلون، لأن من أهداف الإسلام الحفاظ على العورات، والبعد عن كشفها."[261]

كاتب هذا الاقتباس هو الشيخ **عبد الرحمن بن ناصر البراك**، الذي يصر على أن الجسد الأنثوي منطقة كاملة من العار. عند سؤاله عن كيفية التعامل مع النساء المرتديات للجينز، يصر على أن هذا غير مسموح به على الإطلاق. يجب على المرأة ألا ترتدي هذا الثوب، حتى 'إذا كانت وحدها أو أمام نساء أخريات أو أمام زوجها' لأنه يُظهر شكل جسدها وينشر الارتباك فيما يتعلق بأدوار الجنسين. وكان مواطنه وزميله السعودي الشيخ البارز **محمد بن صالح العثيمين** (1925 – 2001) قد أوضح أن "هذا تشبه بالرجال. لأن البنطال من ألبسة الرجال، والنبي... لعن المتشبهات من النساء بالرجال."[262]

هناك دعاة إسلاميون آخرون يسمحون لأتباعهم بحرية اختيار فردية أكبر، بحجة أن القواعد الخاصة بالرجال والنساء ليست شديدة الصرامة كما زُعم في الماضي. يقول العالم التركي **أحمد شاهين** أن هناك اختلافات محلية هائلة حتى أنه لم تعد هناك قواعد ثابتة فيما يخص ملابس الرجال:

260- E.g. http://www.christianbiblereference.org/faq_dress.htm and http://www.christianbiblereference.org/faq_dress.htmNew Testament.

261- https://islamgreatreligion.wordpress.com/201008/02//women-girl-wearing-pants-or-jeans-women-in-islam/.

262- Ibid.

"أصبحت البنطلونات كذلك جزءا من ملابس النساء. في الحقيقة يرتدي الرجال ثيابا تشبه التنورات في السعودية. إذن لا توجد ثياب ثابتة للرجال. لذلك لاينبغي أن يُنظر للبنطلونات من ناحية كونها جزءا من ثياب الرجال أو لا، بل إذا ما كانت ضيقة أم فضفاضة وتكشف شكل الجسد أم لا. إذا كانت المرأة ترتدي بنطلونا واسعا بما يكفي لمداراة شكل جسدها وتغطي فخذيها بلباس علوي سابغ، عندئذ لا ينبغي أن يُعتبر هذا تشبها بلباس الرجال.»[263]

ليوضح وجهة نظره يحكي قصة من التراث عن امرأة سقطت عن حمارها في الطريق بالقرب من النبي **محمد**، الذي أشاح بوجهه بعيدا على الفور. لكن صحابته نظروا وطمأنوه أنه لم يظهر أي جزء حساس من المرأة لأنها كانت ترتدي بنطالا تحت تنورتها، فدعا النبي للنساء اللاتي يرتدين البنطال تحت تنوراتهن، فيحلن دون انكشاف سيقانهن حتى إذا سقطن. يستنتج **أحمد شاهين** من هذه القصة أن البنطلونات الفضفاضة والواسعة توفر التغطية المحتشمة الضرورية عند ركوب الحافلة أو صعود السلالم وما إلى ذلك. وبحكمة يترك القرار في يد المؤمنين أنفسهم بناء على اختيارهم ومسؤوليتهم الشخصية: «كما تفهم من الفقرة المذكورة أعلاه... لا يأمر الإسلام بطريقة معينة من الملبس والثياب. ولا يجبر أتباعه على اتخاذ طريقة معينة في ارتداء الثياب.»[264] لكن الحجة السابقة بأن النساء المرتديات للبنطلونات متشبهات بالرجال لم تعد نقطة متصلة بالموضوع هنا.

لقد فسرت الأديان التوحيدية الثلاثة القواعد المضادة للملابس الصالحة للجنسين تارة بتشدد، وتارة بمرونة. لقد ارتبط الالتزام بالتمييز الجنسي غالبا بالمزيد من قواعد الملبس للنساء أكثر من الرجال. في الحقيقة يتصل التمييز الإلزامي بالملبس بالإبقاء على العلاقات الجندرية التراتبية التي تعتمد فيها مؤهلات وفرص شخص ما في المقام الأول على الانتماء لجنس أو آخر.

263- http://www.questionsonislam.com/question/it-forbidden-women-wear-trousers-pants-islam.
264- Ibid.

بعد الحملة المؤيدة لقيادة النساء للسيارات والتي أطلقتها ناشطات سعوديات من أجل 'تمكين النساء من خوض اختبارات قيادة وإصدار رخص لمن يجتزن هذه الاختبارات'، تم إعادة تحريم قيادة السيارات على النساء في السعودية عام 2013 على يد رجل دين بارز بحجة جديدة هي أن القيادة ضارة بالمبايض. نصح الشيخ السعودي **صالح بن سعد اللحيدان** – وهو مستشار قضائي ونفسي للجمعية النفسية لدول الخليج – النساء السعوديات أنه في أيام النبي اعتادت النساء المسلمات الصحابيات أن يركبن الخيول والجمال كوسيلة انتقال لكنهن لم يركبن أبدا بمفردهن وكن دائما في صحبة محرم. أضاف الشيخ أنه في حالات استثنائية، منها إذا كان هناك رجل يقود السيارة ومعه ابنته وزوجته، وأصيب بمكروه؛ يجوز للمرأة أن تقود السيارة، لكنه أضاف أن قيادة المرأة بشكل مستمر «يؤثر على المبايض ويؤثر على رفع الحوض إلى أعلى، لذلك يأتي أطفالهن مصابين بنوع من الخلل الإكلينيكي المتفاوت لدرجات عدة.» – وهي حجة بلا أي نوع من الدعم الطبي.

بالرجوع إلى التاريخ، يجد المرء قصصا على نفس القدر من الهراء في العالم الغربي، حيث أوصى بعض العلماء بجدية عند نهاية القرن التاسع عشر بغسيل الأطباق كعلاج للنساء 'العاطفيات' اللاتي تجد أيديهن – بمجرد اتصالها برغاوي الصابون – متنفسا فعالا لكل حماقاتهن الأنثوية.[265]

حيثما يجري التأكيد على الاختلافات الجنسية، يحوم الخوف من المساواة في الجوار – وليس فقط في التقاليد والمجتمعات الدينية.

سياسات البنطلون

في المناطق الشمالية كان المحاربون والصيادون يرتدون البنطلونات الطويلة منذ أزمنة مبكرة جدا ليحموا أنفسهم من البرد وأثناء ركوب الخيل. تحت تأثير السلتيين والجيرمان،

265- http://riyadhconnect.com/saudi-sheikh-warns-women-that-driving-could-affect-ovaries-and-pelvis/; also in De Volkskrant 29 September 2013; سمعت حكاية غسيل الأطباق عند حضور محاضرة في علم النفس منذ زمن بعيد

تبنى الغاليون زيا مشابها في وقت مبكر لعله يعود إلى القرن الثاني بعد الميلاد. قبل أن تصبح البنطلونات شائعة في أوروبا الغربية كان الميديون والفرس يرتدون بالفعل بنطلونات فضفاضة. كان الإغريق والرومان يرتدون أردية بيضاء ويعتبرون البنطلونات زيا بربريا. بالرغم من النفوذ الروماني انتشر ارتداء البنطلون في أوروبا الغربية، تارة إلى الركبة، وتارة إلى الكاحل، مرفوعا بحبل حول الوسط، ودائما يتم ارتداؤه مع سترة قصيرة فوقه.[266]

في كتابها Histoire politique du pantalon (التاريخ السياسي للبنطلون) تناقش **كريستين بار** Christine Bard كيف تطورت البنطلونات تدريجيا في أوروبا لتصبح رمزا من رموز السلطة «كشعار للرجولة». مع الثورة الفرنسية عام 1789 بدأ البنطلون يلعب دورا سياسيا هاما. صنع شعار «الحرية، المساواة، الإخاء» صدعا واضحا في تقاليد ملبس النخبة. قبل ذلك الوقت كانت البنطلونات القصيرة الراقية أو السراويل culottes هي المفضلة في الدوائر الأرستقراطية، والآن خرجت مجموعة مختلطة من متمردي الطبقة الوسطى والحرفيين بموضة جديدة للرجال تعزز فكرة الإخاء. لقد رفضوا بشكل قاطع أن يرتدوا بنطلونات الطبقات العليا، مقدمين أنفسهم بصراحة على أنهم بدون سراويل sans-culottes. بالنسبة لهم كانت بنطلونات العمل الطويلة "موضة السراويل أو البنطلونات الطويلة، أظهرت حريتهم المكتسبة حديثا – موضة تُقدّم لأول مرّة من أسفل إلى أعلى بدلا من أعلى إلى أسفل. بالطبع لم يكن عديمو السراويل يرتدون شعرا مستعارا أو يضعون البودرة في شعرهم، مفضلين بدلا من ذلك قصة شعرهم القصيرة، وكانوا يرتدون كذلك قلنسوات حمراء ومعاطف قصيرة. وكانت هناك ميزة إضافية للبنطلونات الطويلة الجديدة هي أن المرء كان بإمكانه أن يخفي ساقيه المقوستين المعيوبتين من النظرات الانتقادية.[267] (الصورة رقم 37).

أسبغت شعبية وانتشار موضة البنطلونات الأطول بريق المساواة والرجولة على الثوب الجديد، لأن الثياب الثورية الجديدة كانت للرجال فقط. منذ تلك اللحظة فصاعدا، نبذ الرجال الألوان الصاخبة والحلي التي كانت النساء والرجال على السواء في البلاط الملكي

266- Bard 9-10.

267- Ibid. 28-31.

وفي الدوائر العليا مغرمين بها جدا قبل الثورة. وعلى الرغم من ذلك فإن النساء اللاتي أردن أن يُظهرن أنهن لسن أقل جمهورية وثورية من الرجال، وأنهن أيضا يرفضن أن يملأن حياتهن بعد ذلك بالبهرج التافه؛ تلقين رسالة من الرجال والنساء كلاهما فحواها أن اقتفاءهن أثر الرجال يسير عكس طبيعتهن. كان لابد للمجتمع أن يعي أن مثل هذا السلوك سيثير خطرا وشيكا يتعلق بتمييع كل الاختلافات بين الجنسين.

بمجرد أن بدت الموضة الجديدة مقصورة فقط على الرجال، أصبحت البنطلونات الطويلة هي المرغوب الأكبر للنساء. وتلقت إدارة شرطة باريس إشارات مقلقة عن نساء يظهرن مرتديات ثياب الرجال في العاصمة. في يوم 7 نوفمبر عام 1800 أدى هذا إلى أمر من الشرطة بمنع النساء من ارتداء ملابس الجنس الآخر. يعود تاريخ هذا المرسوم إلى زمن القلق المتزايد من التمثيل الخاطئ. أما إذا أراد شخص ما لأسباب صحية أن يرتدي ثيابا تخص في العادة الجنس الآخر، فكان عليه أولا أن يطلب تصريحا وينفذ الإجراءات المطلوبة. وكان هؤلاء الذين لا يفعلون ذلك يُتهمون بشهوة ارتداء الملابس المغايرة، وهي ممارسة منحرفة ممنوعة على الرجال والنساء كليهما. بعد حوالي قرن من الزمان جاء تعديلان – لعامي 1892 و1909 على التوالي – ليقدما استثناءات من التحريم للنساء الممسكات «بمقود الدراجة» أو «لجام الحصان». عند نهاية عام 2012 كان المرسوم القديم مازال موجودا لم يتم إلغاؤه رسميا. اكتشف ذلك عضو في مجلس الشيوخ الفرنسي وأدى ذلك مرة أخرى إلى حالة من الهياج. وأكدت وزيرة حقوق المرأة للبرلمان أن النساء الباريسيات لهن الحق في ارتداء البنطلونات حتى دون مقود الدراجة أو لجام الحصان في أيديهن: لم يعد لدى تحريم عام 1800 أي قيمة اعتبارية، لأنه متعارض مع مبادئ الدستور الخاصة بالمساواة للرجال والنساء. في كل مكان في أوروبا كان الاهتمام المتزايد بالرياضة كمساهمة في الصحة العامة يعني الدعم النشط لتحرير نساء كثيرات، مع شكر خاص واحترام واجب للدراجة.

كتبت المدافعة عن حق المرأة في التصويت **سوزان ب. أنتوني** Susan B. Anthony عام 1897 أن الدراجة لم تحرر النساء فقط من مشدات خصورهن الخانقة والتنورات

الطويلة، لكنها جعلتهن كذلك أكثر استقلالية.[268] في عام 1820 كان الرجال في أوروبا يرتدون البنطلونات، مع بعض الاستثناءات من الزمان القديم مثل الروب أو جلباب النوم أو الرداء في المحاكم واحتفالات الجامعة والكنيسة. في القرن التاسع عشر كانت البنطلونات مقصورة على الرجال، ولذلك اعتبرت الكثير من النساء أن البنطلون بمثابة مجاز لتحررهن.

بالإشارة إلى الترجمات الأوروبية لحكايات ألف ليلة وليلة – من بين أشياء أخرى – تم تمهيد الطريق نحو الارتداء العالمي للبنطلون عن طريق شعبية الاستشراق في العالم الغربي. نحو منتصف القرن بدأت النساء في ارتداء بنطلونات طويلة فضفاضة عُرفت بالبنطلونات التركية أو بنطلونات الحريم – تُلبس تحت تنورة تصل إلى قرب السمانتين. الموضة الجديدة – التي تُذكرنا بلباس السباحة النسائي تام التغطية في نفس العصر – أصبحت معروفة بسروال بلومر bloomers على اسم **إميليا بلومر** Amelia Bloomer التي ارتدت هذه الموضة الجديدة ونجحت في لفت الانتباه إليها.

لحسن الحظ لم يكن هناك أي شيء ذكوري في هذه البنطلونات الغرائبية. وأكدت **إميليا بلومر** لجمهورها أنها لم تعانِ أبدا من من قلة الاحترام، وكانت فكرة مُرضية أنها تلقت الدعم الكامل من زوجها.[269] ومع ذلك فإن رسوم الكاريكاتير العديدة عن النساء والبنطلونات هي مقياس للمشاعر الأنجلوساكسونية القلقة التي أثارها الثوب الجديد. (الصورة رقم 38).

لا شك أن الكثير من الأئمة المتشددين كانوا ليشعرون بالرضا عن هذا الزي النسائي المحتشم: البنطلون الواسع الذي يغطي بسخاء النصف السفلي من الجسد وتتدلى فوقه تنورة تخرس الألسنة. في ذلك الوقت لم تكن مفاتن هذا اللباس الجديد واضحة بشكل تام

268- Bard 75; see the website of the French Senate for the reply of the Minister:
http://www.senat tr/basile/visio.do?id=qSEQ120700692&idtable=q260978%7Cq258422%7Cq257828%7Cq256850%7Cq256784%7Cq266146%7Cq263642%7Cq263649%7Cq262988%7Cq255992&_s=08069G&rcb=qa&de=19780101&au=20130204&dp=1+an&radio=deau&appr=text&aff=sep&tri=dd&off=0&afd=ppr&afd=ppl&afd=pjl&afd=cvn;\ http://www.gazettedesfemmes.ca/6854/la-liberte-sur-deux-roues/.

269- Bard 112ff.

للنساء الغربيات، كما تعكس تعليقات السيدة جي. إي. **بانتون** Mrs J.E. Panton من لندن بعد أن صادفت بعض سراويل بلومر الملفتة:

> "...امرأتان ترتديان بنطلونات طويلة مربوطة عند الكاحل، ونوعا قصيرا من التنورات البارزة للخارج تشبه التنورات التي اعتادت أن ترتديها راقصات الباليه. كانتا تلبسان قبعتين وريشا وحذاءين رماديين خفيفين بريشات زاهية عند موضع أصابع القدمين... لقد عشت لأرى محاولات كثيرة لما يُدعى بالزيّ المعقول، ونظرت إلى التنورة المفروقة من النصف والعزيزة على قلب مبتكرها، ورأيت نساء – لابد أنهن يفهمن الأمور بشكل أفضل – ينطلقن حول المنتزه بالدراجات، مرتديات جوارب كاروهات، وسراويل حتى الركبة، ومعاطف وقمصان وربطات عنق رجالية؛ بينما أخريات يجرجرن ياردات من التنورات خلفهن عبر الشوارع الموحلة المثقلة بالجراثيم، لكنني لا أذكر شيئا منها بنفس القدر الذي أذكر به سراويل بلومر تلك، وبالأخص لأن المرأتين كانتا متبوعتين بأطفال الشوارع الموجودين في كل مكان والمستخدمين لكل المفردات الحقيرة الممكنة. في نفس الوقت – مهما بدا الأمر سخيفا – كانت هاتان المرأتان الشاردتان هما أول شخصين على الإطلاق جعلا النساء يدركن حقيقة أن لهن سيقانا، وأنه ينبغي عليهن أن يستخدمنها أكثر مما يفعلن في تلك الأيام... وعندما أتذكر التمشيات التي اعتدت أن أقوم بها، ممسكة بياردات من القماش في يدي المتشنجة، بينما كانت التنورات تلتوي وتلتف حول أطرافي التعسة، وأني كنت أتزلج بملابس مشابهة، وكانت البكرات عندئذ تسحب التنورة الطويلة في ثنيات حتى أنها لم تكن تعيق تقدم المرء كلية؛ فإني أحسد بنات اليوم، رغم أني لن أكون واحدة منهن بأي شكل مهما كان."[270]

طوال القرن الماضي أصبحت النساء على وعي متزايد بالعلاقات غير المتوازنة بين لابسي

270- Mrs Panton, Leaves from a Life, 1908, http://www.victorianlondon.org/punch/cartoon17.htm.

البنطلون ولابسات التنورة. وأصبح البنطلون أيقونة لتقسيم الأدوار بين الجنسين، كما يمكن أن نستنتج من الشعبية المتزايدة للبناطيل بين النساء في أجزاء كثيرة من العالم.

هناك مثل لشعوب الفون Fon من بنين يساوي بين التشريح والمصير في سؤال بلاغي بسيط يربط حقوق النساء المحدودة في المجتمع بنقص تشريحي مفترض: «امرأة ترتدي بنطلونا، ما الذي يتدلى في الداخل؟» في البلاد التي يرتدي رجالها البناطيل ونساؤها التنورات، تم تأسيس علاقات كثيرة بشكل ملحوظ في الأمثال الشعبية بين الأدوار المختلفة للجنسين في المجتمع واختلافاتهما المحددة في الزي: «إذا كانت تنورتك على مقاسك تماما، فلا تحاولي ارتداء بنطلون زوجك.» هكذا يحذر مثل كريولي من جزر الكاريبي. بمجرد أن تجازف النساء بالانحراف عن نماذج الدور التقليدي، ترتفع أصوات عصبية من جميع الجوانب لتحذر من التآكل المهدد للنظام المألوف، وليس الأمر أقل شيوعا في أوروبا:

المرأة العاقلة تترك البنطلون لزوجها. (مثل هولندي)

حيثما ترتدي الزوجة البنطلون، يكون الشيطان هو رب البيت. (مثل ألماني)

حيثما ترتدي المرأة البنطلون والرجل مريلة المطبخ تنتهي الأمور نهاية سيئة. (مثل إيطالي)

حيثما ترتدي الزوجة البنطلون، يغير الزوج الحفاضات. (مثل لوكسمبورجي)

الزوجة الماكرة تجعل من زوجها مريلة مطبخها. (مثل إنجليزي)

هناك مثل فريزياني Frisian من هولندا يعكس بشكل تام الخوف والقلق المحيطين بنتيجة ذلك الصراع حول السلطة: «قالت الزوجة: لكل منا ساق بنطلون، وأخذت البنطلون كله.» وقد دعمت القواعد الدينية والقوانين الرسمية لساعات العمل نفس الوضع الراهن الذي كان يمنع قبول البنطلونات كملبس للنساء حتى وقت معتبر من القرن الماضي. في كتب الإتيكيت ذات التأثير النافذ، كانت النساء ذات السلوك الحسن يرتدين تنورات أنيقة، حتى في فصل الشتاء عند التزلج على الجليد. في ستينيات القرن العشرين كانت الكثير من التلميذات المرتديات البناطيل تتم إعادتهن إلى بيوتهن ليغيرن: كان مطلوبا منهن أن

يرتدين تنورة فوق بنطلوناتهن قبل أن يكون بمقدورهن حضور حصصهن الدراسية. ظهر الجينز في خمسينيات القرن العشرين وشق طريقه سريعا كثوب مفضل بين الرجال والنساء في جميع القارات.

حتى النصف الثاني من القرن الماضي جسَّد الوصول إلى البنطلون بالنسبة للكثير من النساء الأوروبيات نصرا في معركة مرهقة حول الأعراف التي تحول دون المساواة. مقارنة بالمناقشة الإسلامية حول ارتداء النساء للبنطلون، بدت المجادلات الأساسية في الغرب أقل اعتمادا بوضوح على حجة الفجور الوشيك من اعتمادها على التهديد بتآكل المزايا الذكورية – لكن في الحقيقة يتفق الاثنان ببساطة في الرأي. في الآونة الأخيرة، تم تنظيم المساواة تدريجيا بالقانون في معظم البلاد، لكن في ممارسة الحياة اليومية مازال النصف المجازي الآخر من البنطلون يثير مقاومة هائلة: إذ مازالت خطوات صغيرة للأمام – مثل المزيد من التعليم للفتيات – تثير وقائع عنيفة حول العالم.

في القرن العشرين، بدا أن الزي الرجالي الغربي قد غزا عالم السلطة، كما يتضح في صور جماعية لقادة سياسيين يقدمون أنفسهم – باستثناء بضعة نساء وشيوخ – في واجهة موحدة من البدل الرمادية أو السوداء ذات القطعتين أو الثلاث قطع، كما يبدو على سبيل المثال في المحادثات النووية الدولية في لاهاي عام 2014.

حتى في يومنا هذا تشهد هذه البدل – بالاشتراك مع ربطات العنق – على هيمنة هذا الزي الرجالي الراسخ، على العكس من الأزياء الملونة والحلي المرتبطة بالموضة والصور الشائعة عن الأنوثة. كنتُ هناك يوم 9 ديسمبر 1998 في القصر الملكي بأمستردام عندما ألقى سمو الأمير كلاوس أمير هولندا خطبة لا تُنسى بينما كان يفك على سبيل الإثبات ربطة عنقه التي ألقاها أرضا وهو ينطق هذه الكلمات: «يا لابسي ربطة العنق من كل البلاد، تحللوا وتخلصوا من هذه القطعة القمعية من الثياب.» وبعد ذلك أثنى على قمصان مانديلا الأفريقية المريحة كزي بديل ممتاز للرجال. تم استقبال بيانه وحركته بتصفيق هادر وعلى الفور حذا الحضور من الذكور البارزين حذوه دون تردد. ورغم أن وسائل الإعلام العالمية أذاعت تقارير عما أصبح معروفا بـ «بيان ربطة العنق»، إلا أن الرجال بدأوا بالكاد في التخلص من ربطة العنق في الوظائف الرسمية. (الصورة رقم 39).

وقد أخبرني بعض الرجال أن ارتداء ربطة العنق يجعلهم يشعرون بأنهم يُعامَلون بطريقة أكثر احتراما، ومازالت ربطة العنق مفضلة في الكثير من المقابلات الشخصية للحصول على وظائف. ربما تقدم هذه القطعة من الثياب لمرتديها مرتكزا في لحظات الاضطراب. لقد لاحظت كثيرا رجالا يقبضون فجأة على ربطات عنقهم أثناء مناقشة أو بينما يقدمون محاضرة. بالطبع يمكن لهذه الإيماءة السحرية فقط أن يكون لها مفعولها وسط هؤلاء الذين يرتدون بعناية بدلات وقمصانا لا عيب فيها.

كما أشرنا من قبل، منذ زمن سحيق كانت الوظائف الأساسية للثياب هي التزين، والحماية، وتجنب الخجل؛ لكن بالتدريج أضيف إليها التأكيد على التمييز بين الجنسين. يبين مثال البنطلونات للنساء مرة أخرى كيف تتغير وجهات النظر حول الحياء والاحتشام باستمرار. لقد أعطت الألعاب الرياضية والأجساد المحترفة للنساء مدخلا للوصول إلى البنطلونات كثوب واق، وليس فقط بالمعنى الحرفي. هل أصبحت موضة لحية «الهيبستر» الأخيرة أيقونة جديدة للرجولة الآن بما أن الحق الذكوري الحصري في ارتداء البنطلون قد اختفى؟

لقد أصبحت الاختلافات الإلزامية بين ملابس الرجال وملابس النساء في مجتمعات كثيرة أقل قسرية، وهذا تطور تحرري بالفعل – بالنسبة للنساء أكثر منه للرجال. إذا ارتدى الرجال تنورات وأحذية بكعوب عالية على الملأ، فسيتم تصنيفهم فورا على أنهم ممثلون بملابس نسائية drag queens، بينما النساء اللاتي لا يضعن ماكياج، ويرتدين بدلة رجالية وحذاء بكعبين مسطحين يثرن انتباها أقل بكثير.

مازالت هناك تقاليد للملابس الرجالية تستبعد البنطلون، مثلا التنورة الأسكتلندية أو الكانجا kanga التي يرتديها شعب الماساي في شرق أفريقيا. ومع ذلك، في المجتمعات المعتادة على ارتداء الرجال للبنطلونات، تُعتبر الثياب الأشبه بالقمصان المغطية للجسد كله 'أنثوية' في العادة. إن التوقعات الخاصة بما يعتاد المرء رؤيته كمذكر أو مؤنث تنعكس بطريقة آلية على مظهره. بشكل استثنائي، ابتكرت بعض مغامرات آخر صيحات الموضة تنورات للرجال، لكن مثل هذا البيان الموضوي نادرا ما يتمتع بشعبية خارج نطاق مجموعة نخبوية صغيرة مولعة بالموضة. عادة ما يخشى الرجال وصمة التأنيث، لكن

تاريخ البنطلون يُظهر أن ارتداء ثوب محرَّم يمكن أن يمهد الطريق لحريات جديدة. ينطبق هذا أيضا على إلغاء زي إجباري. أخبرتني العديد من النساء المصريات والمغربيات أن التخلص من الحجاب أشعرهن بالتحرر الشخصي، لكن كان عليهن أن يتحملن ردود الفعل الرافضة من المجتمع المحيط.

سيقان منفرجة

عرَّفت **كريستين بار** الاختلاف بين البنطلونات 'المغلقة' والتنورات 'المفتوحة' كارتباط غير متماثل توحي فيه الفتحة المتسعة للثوب الأنثوي – على العكس من البنطلونات المغلقة بإحكام – 'بإمكانية الدخول' غير المقيد 'إلى جنس الإناث'.[271] وفقا لقواعد الإتيكيت غير المكتوبة، يجب على لابسات التنورات أن يتجنبن أي إيحاء بإمكانية الدخول عن طريق إبقاء رُكبهن مضمومة بإحكام: أي أن المرأة لا ينبغي أبدا أن تجلس بساقين منفرجتين. هل تختلف القواعد بالنسبة للنساء المرتديات البنطلون؟

يمكن العثور على تعبير «انفراج الرجلين» في الكتاب المقدس في سفر حزقيال (الإصحاح 16 الآية 25) حيث ينفجر النبي الذي يحمل الاسم ذاته محتجا على مدينة أورشليم التي يقارنها بامرأة سيئة السلوك بشكل فاضح: "فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ»[272] على الموقع الإليكتروني اليهودي مي يوديا Mi Yodeya سألت امرأة سؤالا هو لماذا ينبغي أن يكون انفراج ساقي المرء مشينا للمرأة أكثر من الرجل. ترسم الإجابة التي تلقتها علاقة مباشرة بين انفراج ساقي المرء والجنس – ليس للرجال بل للنساء: «إن انفراج ساقي الرجل ليس وضعا موحيا لأنه لا يذكر بالجماع (حيث يكون فتح المرأة لساقيها أكثر... راحة)». في العبارة المستخدمة في سفر حزقيال «السياق والشروح واضحة في أن الإيروتيكي في الأمر هو اتخاذها وضعا كانت لتتخذه أثناء الجماع». انفراج سيقان النساء أمر مرفوض على نطاق واسع، كما في مقاطعة آتشيه الإندونيسية على سبيل المثال، حيث تم تطبيق قانون جديد عام 2013

271- Bard 2010: 18.

272-http://mandaeannetwork.com/Mandaean/bibel/31_hazkial.htm

ضد جلوس النساء على ظهر الدراجات البخارية بسيقان منفرجة. كان هذا التحريم ضروريا «لأن منحنيات الجسد الأنثوي تكون أكثر بروزا عندما تضع المرأة ساقيها على جانبي الدراجة البخارية مما هي عليه عندما تجلس وساقاها على جانب واحد» ماذا عن النساء اللاتي يركبن دراجاتهن البخارية الشخصية؟ لا يتعامل القانون الجديد مع هذا السؤال.[273]

لكن مؤخرا في العالم الغربي بدأت النساء في الشكوى من الرجال الذين يجلسون منفرجي السيقان، خاصة في المواصلات العامة:

"عندما يجلس رجل قبالتي، سيجلس غالبا وساقاه منفرجتان على اتساعهما، ولذلك سأظل بقية الوقت – وفي الحقيقة رحلة بالقطار مدتها ساعة وعشر دقائق هي رحلة طويلة إلى حد كبير – في مواجهة هذه البنطلونات المتفخة وغالبا الضيقة على مسافة حوالي 50 سم. أنا أجد هذا سلوكا غير مهذب إلى حد كبير. فأنا لم أطلب أن أقضي الرحلة بأكملها في مواجهة حِجر رجل مفتوح على اتساعه."[274]

تختلف ردود الفعل على هذه الشكوى من النصح بقراءة جريدة إلى التحديق خارج النافذة بديلا عن الانتفاخ المزعج، ومن رجال يدافعون عن أنفسهم قائلين أنهم بحاجة لمساحة كبيرة، إلى رجال يقرون بأن عليهم أن يكونوا أكثر استيعابا. هناك نساء يوافقن على أن الرجال يطلبون مساحة أكبر من اللازم لأنفسهم في المواصلات العامة – «أيها السادة، كونوا مهذبين وابقوا هذه السيقان مضمومة» – وهناك نساء يدافعن بشكل عفوي عن جنس الذكور:

"ليس بمقدور الرجال تفادي أن يكون لديهم 'بروز'، أليس كذلك؟ نحن النساء أيضا لدينا انتفاخ، بل اثنان! وهما لا يزعجا الرجال، أو ليس

273-Http://judaism.stackexchange.com/questions/50584/why-can-men-wear-pants-if-pants-are-immodest.
http://nieuws.marokko.nl/24899/wijdbeens-plaatsnemen-verboden-voor-vrouwen-in-atjeh/.
http://www.bnr.nl/nieuws/619882-1303/sharia-politie-jaagt-op-wijdbeense-motorrijdsters.

274- Http://www.beatrijs.com/wijdbeens-in-de-trein/.

كذلك؟ إذا كان الأمر هكذا، فينبغي على الرجال عندئذ أن يطالبوا النساء بوضع جريدة أو جاكت أمام نهودهن، لأنه من الأفضل لهم ألا يرونها. ولا يمكنكن أن تقلن: نعم، لكن الرجال جميعا يحبون النهود! لا، لأننا نحن النساء كذلك نحب هذا 'البروز' عندما يمتعنا ويُكيِّفنا.»[275]

يمكن سماع الشكاوى من الرجال ذوي السيقان المفتوحة على اتساعها على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. تشكو النساء الأمريكيات من هذا الأمر على المدونات وعلى تويتر. لقد اصبحت عادة الرجال في الجلوس مستريحين بظهورهم وسيقانهم مفرودة على شكل حرف V في المواصلات العامة معروفة بفرشحة الرجال manspreading. ناقشت جريدة نيويورك تايمز الموضوع في مقالة طويلة وبدأت هيئة المواصلات العامة بنيويورك حملة لتشجيع الرجال "على تقليل مقاسمتهم للآخرين في أجسادهم في عربات مترو هذه المدينة المزدحمة دائما". يكتفي بعض الرجال بهز أكتافهم، ويدافع آخرون عن أنفسهم قائلين أن «وضع سيقانهم على بعضها قد يضر فحولتهم»، لكن وفقا لمتخصص طبي مطمئن من نيويورك «ركوب القطار لمدة نصف ساعة بساق على ساق قد يرفع درجة حرارة الخصيتين، لكنه ليس زمنا طويلا بما يكفي لإحداث أي ضرر.» في نفس الوقت تُشهِّر بعض النساء بالرجال المفرشحين بتعصب على وسائل التواصل الاجتماعي. بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون معرفة كافة التفاصيل المتعلقة بالآداب العامة حول هذه المسألة، فإن **بيتر بوست** Peter Post ، حفيد حفيد معلمة الإتيكيت الأمريكية **إميلي بوست** Emily Post ، في كتابه الناجح (السلوكيات الأساسية للرجال) Essential Manners for Men يؤكد أن الرجل الجالس لا ينبغي أبدا أن يفرد ساقيه على شكل حرف V ولكن يضعهما دائما متوازيتين إحداهما مع الأخرى في احتشام،. دون أي ارتباطات مريحة بالجنس.[276]

275- Ibid.

276- http://www.nytimes.com/2014/12/21/nyregion/MTA-targets-manspreading-on-new-york-city-subways.html?_r=0.

عبر الزمان، تزايدت تغطية الجسد إلى أضعاف مضاعفة. أما التقليد القديم الخاص بتلوين الجسد فهو باق إلى حد كبير في الوقت الحالي في شكل الماكياج للوجه. رسوم الوشم وثقب الجسد هي تقاليد قديمة تتمتع بشعبية جديدة في العالم الغربي المعاصر. لقد مال الرجال والنساء دائما لتكييف أو تشكيل أجسادهم وفقا لنماذج الجمال السائدة في أيامهم، بأغلفة القضيب، أو دروع الصدر، أو الخصور المقيدة، أو الكورسيهات، أو جرابات الخصيتين المنتفخة، أو التنورات الواسعة، أو إطالة الرقاب، أو تقييد القدمين.

في أوروبا كان الجسد الممتلئ يُعتبر جذابا إلى حد كبير، ومازال الحال هكذا في المجتمعات الفقيرة. يمتدح شعب البنجاب في الهند وباكستان المرأة السمينة باعتبارها بطانية دافئة للشتاء. في أفريقيا أيضا كانت سمنة الجسد تُرى كعلامة على الترف، وتُمتدح المرأة على طيات رقبتها اللحيمة الفاخرة – والتي تُدعى 'قلادات الرب' في غرب أفريقيا – كدليل ظاهر على الرخاء. في الغرب ابتعد جسد المرأة النموذجي اليوم عن الجمال الممتلئ باللحم الذي كان **روبنز** Rubens يحب أن يرسمه. لو تقدمت فينوس التي رسمها **بوتيتشيلي** Botticelli للعمل كموديل في عالم اليوم، ربما سيتم رفضها لكونها ليست شابة ولا نحيلة بشكل كاف.

مؤخرا في الموضة الغربية، أصبحت مشدات الصدر ببطانة أقل، وتساعد الملابس الداخلية المتخذة شكل الجسد على إبراز المؤخرات بشكل أكبر في البنطلونات الضيقة. «المؤخرة على القمة» وفقا للعنوان الرئيسي في جريدة حديثة تقول أنه من الآن فصاعدا تحتاج النساء «قوة المؤخرة» وأن العديد من النساء قد أجرين بالفعل جراحة لتكبير المؤخرات.[277]

في كل أنحاء العالم تتقوض باستمرار قدرتنا على التعايش في سلام مع أجسادنا عن طريق الصور المهاجمة التي تخبرنا أننا خاسرون إذا لم نبدُ مثل الموديلات المعالجة بالفوتوشوب التي تعترض طريقنا. نحتاج جميعا إلى طبعة جديدة – هكذا يقال لنا مرارا وتكرارا – بما أن أجسادنا الآن يمكن إعادة تشكيلها كاملة. هؤلاء الذين يعيدون

277- Marzano 23ff; NRC-Handelsblad , 4 January 2015.

خلق أطرهم الخارجية طبقا للقواعد المطلوبة، كما تَعِد صناعة بعدة بلايين من الدولارات، سيتحررون من جميع العيوب والشكوك. سيبتسم الحظ لنا جميعا بنفس القدر الذي ابتسم به للموديلات الأنثوية الجميلة فائقة النحافة وللرجال الأقوياء كأبطال الرياضة الذين كانوا في مواجهتنا منذ الطفولة مباشرة.

إن الصور النموذجية للجنسين لها مناطق تأكيد مختلفة: فالمرأة النموذجية لابد أن تكون نحيفة إلى حد بالغ وشابة خالدة؛ أما الرجل النموذجي فلابد أن يميز رجولته بجسد مليء بالعضلات. في المجلات ذات الورق اللمّيع يكشف الرجال والنساء الناجحون والناجحات عن أسرار نجاحهم في العمل والحب كنتيجة لاهتمامهم الراديكالي بالجسد. أينما كانت الحرية الفردية والاقتصادية في تزايد، يُسمح للناس باللبس وفقا لأذواقهم وتفضيلاتهم الخاصة. السيء في الأمر هو أن الصور المتسلطة تظل مقوضة لهذه الحرية، أما الجيد في الأمر فهو أنه ليس على أحد أن يستسلم لهذا الاستبداد، رغم أن قول هذا أسهل من فعله.

رائع أم جميل

تظل الأعضاء التناسلية التي نولد بها مميزة لنا طول العمر، رغم أن هناك أشخاصا أكثر من كل ما سبق ينبذون تلك العلامات التمييزية. في الأجيال السابقة كانت معظم النساء يعتمدن اقتصاديا على الرجال، ومازال الأمر كذلك بالنسبة لكثيرات. سواء كان الأمر بطريقة لا واعية أو العكس؛ كان مغزى ذلك أن رأس مالهن هو أجسادهن. ولأن العثور على زوج كان هو أولويتهن الأولى، كان على الفتيات أن يستثمرن في شيء مثير لحساسية الرجال: الجمال الأنثوي. كانت الفتيات الأجمل أو اللاتي يرتدين ملابس أكثر جاذبية لديهن فرص أفضل في العثور على زوج ثري، وبفضله يحصلن على حياة أفضل.

وكان هناك منطق كثير التكرار أن النساء لسن بحاجة للعقول من أجل القيام بدورهن في الحياة. وتعلق الأمثال الشعبية بشكل سلبي بعض الشيء على تعليم الإناث:

عقل المرأة في زينتها، وزينة الرجل في عقله. (مثل عربي وعبري

وييديشي)

المرأة عديمة المواهب هي بالفعل امرأة تبلي بلاء حسنا. (مثل صيني)

بهاء الرجل هو المعرفة، وبهاء المرأة هو نبذ المعرفة. (مثل برتغالي، البرازيل)

المرأة الحكيمة لا تفوق زوجها ذكاءً أبدا. (مثل إنجليزي، الولايات المتحدة)

المرأة المتعلمة هي امرأة خاسرة. (مثل إسباني)

هذه الأحكام المسبقة حول تقسيم الجمال والعقل بين الجنسين مستمرة حتى اليوم.

"لماذا تستخدمن الماكياج وتُجملن أنفسكن؟"، عنوان بحث حديث توجه بهذا السؤال للقراء لصلحة مجلة ماري كلير Marie Claire . اتفقت نسبة 94% من النساء على أن الماكياج بنى ثقتهن بأنفسهن. إحدى النتائج الشيقة كانت أن النساء المتزوجات ينفقن وقتا أقل نسبيا على مظهرهن. أما البنات اللاتي يستبطنَّ بطريقة لا واعية افتقاد الأم للثقة بالنفس فيمررن هذا النقص إلى بناتهن. وهكذا دواليك. تقدر الإحصاءات الحديثة أن المرأة الأمريكية تنفق أكثر من 800 ساعة على مظهرها كل عام، بينما لا يستغرق تزين زوجها أكثر من 30 ساعة. تعادل تلك الثمانمائة ساعة ما يزيد على شهر كامل في العام، خمس سنوات أو ما يقرب من هذا من عمر امرأة.[278]

لماذا تنفق النساء كل هذا الوقت الثمين على مظهرهن، بدلا من إنفاقه على أشياء أخرى قد تمكنهن من التخلص من قلة الثقة بالنفس؟ على أشياء أكثر فائدة في النهاية مثل الكفاءة المهنية، أو الدراسة، أو الخصائص الفنية، أو السفر - أشياء لا تختزلهن إلى موضوعات لنظرات الآخرين؟ بالنسبة لنساء كثيرات يبدو هذا هو السؤال الخطأ، سؤال يرفضنه بكل قوة مجادلات لصالح تجميل أنفسهن بأنهن يحببن مظهرهن الجيد. وانظر للرجال - هكذا تستمر المجادلة - إنهم كذلك ينفقون وقتا أكثر وأكثر على مظهرهم.

278- بحث بين 2500 امرأة في هولندا من 19 سنة فاكبر: -http://www.nu.nl/lifestyle/2366159/vrouwstaat vijf-dagen-per-jaar-spiegel.html.

بالفعل، لقد اكتشفت سوق التجديد الرجال أيضا. ومع ذلك، تحت هذا كله قد يتساءل المرء متعجبا عما إذا كانت النساء لا يقتفين أثر جدات جداتهن اللاتي علَّمن أجيالا متعاقبة أن المظهر يحدد مستقبل المرأة وليس العقل أو الكفاءة. هناك بحث واسع النطاق على الإنترنت في هولندا بين الرجال من 18 إلى 85 عاما عن أجسادهم وعن مواقفهم من النساء يشير إلى أن 69% يجدون الكعوب العالية غير ضرورية وأن حوالي 60% يشعرون بنفس الإحساس نحو الملابس الداخلية المثيرة. يجد هذا البحث كذلك أن الرجال يُقدّرون النساء ذات المظهر الطبيعي أكثر من هؤلاء اللاتي يضعن ماكياجا ثقيلا. علاوة على ذلك يقول هذا البحث أن الرجال المتعلمين يُقدّرون ذكاء الأنثى أكثر من مظهرها. خلاصة البحث:

"يعني هذا أنه في هولندا يرى الرجال ذوو التعليم العالي النساء كصديقات وشريكات ويتمسكون بالمساواة بشدة. كون الذكاء والأنوثة لا يُقصي أحدهما الآخر بعد ذلك لهي حقيقة تستحق الترحيب.»[279]

من بين كل الرجال الذين تم إجراء مقابلات شخصية معهم، يعتقد 85% أن النساء يتجملن لينافسن النساء الأخريات (وبين الرجال الأكثر شبابا يرتفع الرقم ليصل إلى 94%). وقد وصلت لجنة خبراء من الرجال تم تنظيمها كجزء من البحث إلى هذا الاستنتاج بالإجماع: «في النهاية... النساء غير مطمئنات للغاية.»

وفقا للجنة الخبراء فإن عدم الرضا عن مظهر المرء - لأشياء مثل الصلع أو الكرش الكبير - يوجد كذلك بين الرجال، لكن الاختلاف الأساسي هو «أن مثل هذه العيوب لا تصيب هويتهم بشكل مباشر. إنها موجودة في تصنيف الأمور 'المزعجة' أو 'السيئة للغاية'. لكنها لا تجرحهم عميقا حتى الروح.» طبقا لهذا البحث فإن الرجال يعتقدون أن النساء أقل انتقادا لمظهر الذكر مما هو الحال على الجانب الآخر. وفي نفس الوقت تظل النساء متحفظات للغاية من أي حكم مدمر على مظهرهن. ومثل هذا الحكم يأتي غالبا من نساء أخريات.[280]

279- البروفيسيرة ليزبيث وورتمان Liesbeth Woertman المسؤولة عن هذا البحث متخصصة في علم نفس المظهر، جامعة أوترخت

http://www.volkskrant.nl/mannenspecial/dit-wil-de-man~a3784084 /.

280- Liesbeth Woertman, ibid.

أطلقت الطالبة الكندية **روزيه ليك** Rosea Lake على صورة غلاف هذا الكتاب اسم: الأحكام. تشير العلامات على الساق اليسرى إلى أطوال مختلفة للتنورة، وكذلك إلى أحكام الناس الخاصة بكل منها. هناك بعض الأشياء التي يمكننا أن نقيسها بشكل موضوعي، هكذا تعلمت **روزيه** في فصول تصميم الجرافيك التي حضرتها، وهناك أشياء أخرى تقاس على أساس أحكام الآخرين السلبية، وغالبا ما تُترك مسكوتا عنها. بعد عملها على هذه الصورة تعلمت أن تعيد تقييم أحكامها الشخصية على النساء الأخريات: «اعتدت افتراض أن كل النساء اللاتي يرتدين الحجاب كن مقهورات... وكنت أحتقر وأطلق الأحكام على أي امرأة لا تعبر عن جنوستها بطريقة كنت أجدها مناسبة.»[281] (الصورة رقم 40).

من أين تأتي تلك الأحكام القاسية من النساء على النساء؟ وفقا لعالم نفس الأزياء **جي. سي. فلوجيل** فإنه نتيجة لتاريخ طويل من العادات الاجتماعية والجنسية أصبحت النساء أكثر نرجسية من الرجال – على الأقل في عدد من المجتمعات – وقد أثقلهن هذا بمنافسات أكثر حدة. بمقارنة ملابس الرجال والنساء عام 1930 يقول **فلوجيل** أن المرء يرى على الفور أن ملابس النساء هي في العادة أكثر تنوعا وبهجة، لكن كنتيجة لهذا يعاني الرجال من منافسة أقل بكثير فيما يتعلق بالأزياء من النساء. ويضيف أنه الآن بما أن النساء يلعبن دورا أكثر فعالية في الحياة الاجتماعية، فإن العمل يتطلب منهن تضحية شبيهة: ففي مكان العمل، يحتجن إلى ملابس أقل بهجة وإلى اختيار زيّ 'أكثر رسمية وأقل زخرفا'.

بالرغم من كل التطور الذي مررنا به، مازال الرجال والنساء مضطرين في مواقفهم تجاه الملابس للاختيار من بين نفس الخيارين المتناقضين اللذين كانا متاحين للإنسان العاقل Homo sapiens العاري: التكشف الصفيق أو الإخفاء المُخجل. لا يستطيع أحد أن يستعرض مفاتنه دون إظهار نفسه، وحتى لابسات 'موضة الحجاب' بالغات الأناقة و'مسلمات أحمر الشفاه' اللاتي يصادفهن المرء على اليوتيوب، واللاتي يظل شعرهن

281- مراسلات بالبريد الإليكتروني مع روزيه ليك في 2014، انظر كذلك مقابلتها الشخصية في هافينجتون بوست عام 2013. Http://www.huffingtonpost.com/2013/01/18/rosea-lake-vancouver-judgments-skirt-length-photo_n_2504950.html.

مغطى باحتشام لا يمكنهن الاحتفاظ بكعكهن وأكله في نفس الوقت.[282]

قدمت **أجاثا كريستي** حلا لقلق النساء المستمر حول الجسد والأطراف بطريقتها الحاذقة: «لقد تزوجت من عالم آثار لأنه كلما تقدم بي العمر، كلما زاد تقديره لي.» لا يبدو أن القصة القديمة عن الرجال الناظرين والنساء المنظور إليهن في تراجع، لكن سواء كنا نحبها أم لا؛ فإن الذكاء أقل قابلية للفناء من الجمال.

ممارسة الحب دون خوف من الحمل

عند هذه النقطة يبدو أن هناك إشارة صغيرة ملائمة فيما يتعلق بعواقب الدراما الإنسانية المستمرة في كل أنحاء العالم الخاصة بالناظر والمنظور إليه، باللبس والتعري، بالإغواء والتعرض للإغواء. إن التغطية التي لا تفتأ تتزايد لأعضاء النساء الجنسية لم توقف البشرية عن التزايد ليصل تعداد سكان العالم إلى أكثر من 7 مليار. منذ حوالي 500.000 سنة لم يكن هناك أكثر من 10.000 شخص عار أو شبه عار يعيشون في أفريقيا. في مرحلة الصيد وجمع الثمار زاد تعداد العالم إلى 10 مليون شخص بحد أقصى، وقرب بداية عصرنا لم يكن يزيد تعدادنا على 250 مليون.[283]

إن التاريخ غير المدون للأرحام التي أنتجت كل هذه الحياة مليء بالخوف والاضطرابات والشك والمفاجآت غير المتوقعة والأخطار غير المرغوبة. لقد حدد هذا التاريخ حيوات النساء بشكل أكثر جذرية مما فعل في حيوات شركائهن: «تستطيع المرأة أن تخفي القضيب، لكنها لا تستطيع إخفاء بطنها المنتفخة»، سمعت النساء في أفريقيا يقلن هذا عند مواجهة حمل غير مرغوب. حتى وقت قريب كانت عواقب ممارسة الجنس مختلفة بالنسبة للرجال عنها بالنسبة للنساء. لم يعد هذا حتميا.

أفضل اختراع في القرن الماضي – حبوب منع الحمل – قد غير بطريقة جذرية السياق

282- Flügel o.c. 114-115; ibid. 20; http://www.uitzendinggemist.net/programmas/4948-Lipstick_moslims.html.

283- Wickler and Seibt 232ff

الطبيعي للأشياء فيما يتعلق بالجنس. فهذه الثورة الصامتة لم تخلق فقط مساحة للنساء كي يطورن مهارات أخرى غير قدراتهن على الولادة، بل كان لها أيضا ضرورة عاجلة لرفع نوعية الحياة على هذا الكوكب. إن أعدادا كبيرة من سكان الأرض المحبطين الذين يشعرون بالحرمان في مجتمعاتهم، جزئيا بسبب الانفجارات السكانية، يرحلون بحثا عن حياة أفضل في بلاد أكثر رخاء مما يمكن أن يجدوه في مناطقهم الأصلية.

لقد أنجزت البشرية الآن إلى حد كبير مهمتها الخاصة بالتكاثر. كانت وصية الكتاب المقدس **لآدم وحواء** أن يكونا ولودين وأن يتكاثرا، لكن في تلك القصة لم يكن هناك أكثر من اثنين من الجنس البشري. بالطبع يحتاج كل جيل إلى الذرية، لكن الالتزام بالرسالة مطلقة العنان القائلة «اثنان يصبحان عشرة» سيؤدي إلى سيناريوهات كارثية حول العالم.

ومع ذلك مازال رجال الدين الرسميون من الروم الكاثوليك يُحرِّمون هذه الحبوب «باسم الرب»، في رسالة غير متساهلة يعمى فيها حراس الدوجما الباردة القادمون من زمن سحيق عن المنطق والمعضلات الحقيقية للمؤمنين المعاصرين. يُمكِّن منع الحمل الآمن الناس من تنظيم عدد الأطفال الذي يريدونه، بحيث لا تعود النساء في حاجة بعد ذلك إلى تحمُّل حالات حمل غير مرغوبة أو الموت في أثناء الولادة، وتولد ملايين أقل من الأطفال غير المرغوبين. ويعني هذا أن هؤلاء الأطفال المرغوبين يمكن تربيتهم بعناية مُحبَّة أكثر واحتمالات أفضل للمستقبل. لقد نجح منع الحمل الآمن أخيرا في فصل الجنس عن التناسل، في العالم الغربي أولا، لكن في العالم كله أكثر وأكثر. وعلى حد قول طبيب نساء وولادة متفائل: «حيثما تكون هناك حبَّة، فهناك حل.» باعتبارها وسيلة موثوق فيها لمنع الحمل، يجب أن تكون الحبوب متاحة مجانا في كل أنحاء العالم، بحيث أن التأكيد على ممارسة الجنس من أجل الولادة كوظيفة أصلية للجنس سيتحول أخيرا وجذريا إلى ممارسة عاطفية للحب دون إنجاب – لديَّ حلم.

9

العيش معًا على كوكب واحد

هل كان الإمام الذي كنت أقف معه عند مظلة الأوتوبيس هو الشيخ المتشدد **فوزي جنيد**، الذي يصر على أنه «طبقا للقرآن، الحجاب فرض على النساء.»؟ أمام المظلة في الناحية الأخرى من الطريق كان هناك ملصق إعلاني ضخم لامرأة ترتدي البيكيني يُحدِّق فينا. وبجوارنا زوج من المؤخرات النسائية لا يسترها غير خيط فيما بينها وتتغنَّى في مديح كِريم مضاد للترهلات. كنت أنا والملصقان نحملق في بعضنا بغضب، بينما كان الإمام يُحدِّق في الأرض. استغرق الأمر وقتا طويلا قبل أن يصل الأوتوبيس. بدلا من البقاء صامتين هناك عند موقف الأوتوبيس، كان يمكننا أن نبدأ نقاشا مجتمعيا واسع النطاق – هكذا فكرت فيما بعد – لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

كان هذا النقاش يجب أن يتعامل مع السؤال حول كيفية معالجة مسألة الشعور بالخجل من أجسادنا، وهو شعور ناضلت الإنسانية معه دائما سواء مغطاة أو عارية. لكن كيف السبيل لفتح مثل هذا الموضوع الشائك، إذا كانت المفردات المتصلة به ترقد مدفونة تحت طبقة سميكة من الخجل؟

الخزي في كل مكان

يعاني منه الجميع، لكن في بعض الثقافات وصل الأمر بالخزي إلى أن يحدد ليس فقط سلوك العائلة، بل هيبة المجتمع ككل. تقيد التقاليد البطريركية سلوك الزوجات والبنات

بعصا شرف الجماعة الذكورية. وإذا انحرفت إحداهن عن القواعد، فإنها تخرق درع المجتمع وتتسبب في خزي جماعي. في العلاقات بين الرجال والنساء، قد تثير تغطية الجسد أو تعريته مشاعر معقدة، من الإثارة إلى الخزي والغضب. في سياق يتصل بالشرف، تجعل الإثارة الناتجة عن الرؤية العرضية لشخص من الجنس المقابل المرء في موقف ضعف، كما حدث على سبيل المثال لسائق التاكسي في تونس عندما كان ينتظر عند إشارة مرور حيث كانت تعبر الطريق امرأة أنيقة الملابس. كان يوبخها لعبورها أمام سيارته مباشرة، ملقيا اللوم عليها لإفسادها عليه صيامه في رمضان. كان انتصابه خطأ السيدة الأنيقة، هكذا فهم الصحفي التونسي الذي حدث وكان جالسا في التاكسي وحكى لي عن الواقعة. وفي محاضرتها عن (الخزي) أمام منظمة (كُتّاب بلا حدود) في لاهاي عام 2013 وصفت الكاتبة اللبنانية **حنان الشيخ** الخزي shame (الذي يمكن ترجمته إلى العيب في العربية) بأنه مرض مُعدٍ في السياق الذي نشأت فيه:

> "الخزي، العار، العيب، كلمات سمعتها، ورأيتها في عيون الرجال المسلمين الغاضبين، ونفذت من حجاب النساء الأسود. أشعر أن كلمة العيب وحش يأكل كل ما أنجزته النساء منذ دورة القرن وحتى الآن. إنها تؤثر على الحقوق القانونية، والسياسة، والثقافة، والعلاقة الجنسية، والحق في اختيار مصير المرأة، والحق في اختيار أن تكون محجبة أو لا؛ رغم أن الحجاب لم يكن أبدا اختيارا لنساء كثيرات. الصمت هو الخزي الأكبر، وكذلك الانحناء للظلم، وبيع صوتك الانتخابي، وتعذيب الآخرين، والنظر للمواطنين والرعايا على أنهم ليسوا أكثر من ذباب، العار على غياب حرية التعبير وحرية الصحافة والمناقشات... أود هنا أن أقتبس من كلام د. **خالد شوكات** مدير مركز دعم الديمقراطية في العالم العربي، الذي قال: 'يتركز الخزي في البلاد العربية على الجزء السفلي من أجسادنا بدلا من الجزء العلوي، حيث يعشش عقلنا المريض.'"

في الممارسة اليومية يمهد الهوس بالتغطية الطريق نحو التطرف الجنسي للمجتمع بشكل لا يقل عما يفعله التركيز على العري. ليس فقط أن تكون ناظرا، بل أن تكون منظورا إليك لهو حِمل بائس في مجتمع يهيمن عليه الشرف والعار. تتذكر الكاتبة المصرية

منصورة عز الدين المرة الأولى التي سارت فيها دون أن تغطي شعرها:

> "في تلك الليلة البعيدة من بدايات الألفية الثالثة، كانت شوارع القاهرة مغمورة ببرودة شتوية منعشة. كانت تلك أول مرة أخرج فيها بدون غطاء للرأس. الحجاب الذي ارتديته في الثالثة عشرة من عمري، بات مع الوقت كأنه قطعة من جسدي، عضو إضافي لا يمكنني التخلص منه أو الاستغناء عنه حتى قررت أنه لم يعد يشبهني ولا يعبر عن أفكاري. بينما أسير، في شوارع وسط المدينة، بشعر مكشوف بعد أن خلعت الحجاب قبل ساعات قليلة، خُيل لي أن كل من في الشارع يراقبونني، يعرفون ما أقدمت عليه، وينتقدونني بسببه. بل ساورني شعور مؤرِّق أني أسير عارية تماماً وسط الناس."[284]

حتى بالرغم من أن الحجاب ليس إلزاميا في مصر، مثلما هو الحال في إيران أو السعودية، إلا أن الخزي يمكنه أن يجعل المرء يشعر بالرفض في عيون الآخرين، سواء كان الأمر متخيلا أو لا.

حرية الاختيار

يمكن أن يكون خلع الحجاب خبرة تحررية للمرأة، كما أصبحت الصحفية الإيرانية **مسيح علي نجاد** واعية بذلك عندما دعت النساء الإيرانيات إلى وضع صور فوتوغرافية لهن دون حجاب على فيسبوك. وصلت آلاف مؤلفة من الصور، ملتقطة سرا في الحدائق أو على الشاطئ أو خلف عجلات القيادة. في إحدى الصور ترفع امرأة بلا حجاب علامة النصر في مجمع ياسي ناراغي الرياضي بطهران أمام لوحة إعلانات ضخمة عليها نص يصر على وجوب احترام النساء للحجاب الإسلامي أثناء ممارسة الألعاب الرياضية. هذه الصور كلها تدور حول الحرية 'المختلسة': فالصور الشخصية بلا أسماء حتى لا تجلب المشاكل للمرسلات. لم يكن المقصود من مشروع المصورة أن يجعل الناس يثورون ضد

284- Ez Eldin, 'I refused', in: Heti et.al. 273.

الحجاب الإلزامي: «ليس لديّ أي نية لتشجيع الناس على تحدي الحجاب الإجباري أو الوقوف ضده... أريد فقط أن أعطي الصوت لآلاف وآلاف الإيرانيات اللاتي يعتقدن أنه ليس لديهن منبر للتعبير.» كانت **مسيح علي نجاد** نفسها ترتدي الحجاب حتى أمام أبيها لمدة 30 عاما: «لقد استغرق الأمر مني وقتا لأتمكن من الخروج وإخبار الناس أني أفضل ألا أرتدي الحجاب، أني أريد أن أكون أنا ذاتي.» لم تكن معارضة للحجاب، لكن يجب أن يكون لدى الناس حرية الاختيار.(285)

حرية الاختيار الحاسمة تلك غائبة في السياقات المتصلة بالشرف، حيث تعتمد كرامة كل شخص على الشرف الجمعي للكل. انشقت **أمينة السبوعي** عن هذه الممارسة الشائعة. بظهورها على الفيسبوك وتصفها العلوي عار، كانت تفصل نفسها بهذه الطريقة كفرد عن ثقافة الشرف والعار المنغلقة، كانت تلمس عصبا جمعيا عاريا، كما تدل على ذلك ردود الفعل الساخطة والعدائية من رجال الدين الأصوليين ومن أجزاء أخرى من المجتمع. طبقا للمحللين النفسيين، يشير الشعور السريع بالإهانة إلى ذات تفتقر للأمان وإلى حاجة غير صحية للتحقق من صحة الآخرين.(286)

جسم الجريمة

إن أمثلة النُسَّاك الذين امتهنوا أجسادهم أو قضوا أجزاء من حياتهم جائعين في الصحراء هي دليل على الطريقة التي اشتبك بها التقليد المسيحي كذلك مع مشكلة الإثارة والانتصاب. وكانت هناك أمثلة أخرى لهذا الصراع المستمر هي العذراوات اللاتي كن يجعلن أجسادهن تهزل حتى يتوقف حيضهن الشهري – ليس فقط من أجل إطفاء شهواتهن الشخصية، لكن في المقام الأول حتى لا يثرن الشهوة في الجنس الآخر بعد ذلك.

في فقرة شهيرة من كتابه (مدينة الله) يشير القديس **أوغسطين** إلى **آدم وحواء** اللذين

285- https://www.facebook.com/StealthyFreedom. Saeed Kamali Dehghan in The Guardian 12 May 2014:
http://www.theguardian.com/world/2014/may/12/iran-women-hijab-facebook-pictures-alinejad.

286- Baneke 2009: 69-73; see also Said Shafa's clarifying Leiden University Ph.D. thesis In the Eyes of Others, 2014

كانا عاريين أثناء إقامتهما في جنة عدن قبل السقوط، ولم يوليا أي انتباه لحالتهما المثالية. ولا كانا قادرين:

> "على إدراك البركة التي تلقياها في ثوب النعمة، بنفس القدر الذي لم تعرف به أعضاؤهما كيف تعارض إرادتهما. عندما زالت عنهما هذه النعمة وحل عليهما عقاب يتناسب مع عصيانهما، ظهرت في حركات الجسد بدعة صفيقة معينة، وكنتيجة لها جُعل عريهما مخزيا؛ وعندما لاحظا ذلك، شعرا بالفزع."[287]

وفقا للمتخصص في علم الجنس وعالِم النفس **هافلوك إيليس Havelock Ellis** كان **أوغسطين** يقصد أنه في الفردوس لم تكن هناك أي انتصابات غير مقصودة. لقد صادفنا مثل هذه الإشارة إلى الخوف من «حركات البدن غير المقصودة» من قبل عندما قابلنا الراهب الفلسطيني **كونان** الذي تمكن في النهاية من طريقة تعميد الأشخاص تامي العري دون أن يحدث له أي انتصاب. لا يقتصر الكلام عن هذه الحركات البدنية على سياق القديس **أوغسطين** أو المسيحية. فقد اعتُبرت الانتصابات غير المقصودة خطيئة حتى بالرغم من أنها لا إرادية.

تعتمد الإجابة على السؤال المهم الخاص بدور الإرادة على الرؤية التي طورها الناس في تقاليدهم الخاصة. وتكشف القواعد والتقاليد في الديانات السماوية الثلاث عن خوف الرجال الهائل من السلوك غير المتوقع للقضيب وللجنس.[288] في أغلب الأمر اعتُبرت النساء مسؤولات عن تلك الحالة الذكورية من انعدام القدرة على التحكم، والملفت للنظر تماما أنهن بموافقتهن على هذا المنطق انسقن طواعية مع القيود المحددة. بل إنهن أحيانا كن يدعين المسؤولية الكاملة عن الإثارة الذكورية على أساس أنه من المفترض أن الرجال محكومون بغرائزهم، كما في المنطق الإسلامي القائل بأنه على النساء أن يغطين أجسادهن 'لأن الرجال وحوش'، أو في اعتقاد النساء اليهوديات المتعصبات أن مهمتهن هي 'إنقاذ الرجال من أنفسهم' ليس فقط بإخفاء أجسادهن ولكن أيضا بعدم إظهار وجوههن بعد

287- Miles 46; Bologne 26ev; St Augustine, De Civitate Dei, Book 14, 17: 615 and Havelock Ellis 1937: 6, quoted in Barcan 108.

288- Cf. Wolfgang Lederer, The Fear of Women, 1968.

ذلك. هل هذا خضوع أم غرور؟

منذ بضعة أعوام في القاهرة رأيت لأول مرة ملصقات مرسوم عليها مصاصتان، إحداهما ملفوفة في السيلوفان، والأخرى مكشوفة ومغطاة بالذباب. وكان نص المكتوب تحتهما «الاختيار لك». الملصقات نفسها متاحة الآن على نطاق واسع عبر الإنترنت في عدد من اللغات، حاملة شعار: «استري نفسك. مش هتقدري تمنعيهم، لكن تقدري تحمي نفسك. اللي خلقك أدرى بمصلحتك.» هل سيحط الخالق من قدر مخلوقه – الرجل – كحشرة بائسة وضيعة؟ وما هو رأي الرجال في الإيحاء الضمني بأن نصفهم البشري يتكون من مجموعة من المعتدين المتهتكين؟

كلما اشتد خوف الرجال من الإثارة، كلما زاد تشدد القواعد الخاصة بملبس النساء وسلوكهن، رغم أن جسم الجريمة (حرفيا هنا هو 'الجسد المخالف') نادرا ما تتم الإشارة إليه بشكل مباشرة. في كتابها (وجه حواء الخفي) The Hidden Face of Eve تقتبس **نوال السعداوي** استثناء واضحا أصله من تفسير **ابن عباس**، وهو صحابي جليل للنبي **محمد** وخبير في السُنَّة:

> "في تفسيره للآية «ومن شر غاسق إذا وقب» قال: قيام الذَكَر، وهذه بلية غالبة، إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين. وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم. وإليه أشار عليه السلام بقوله " ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن [النساء]"[289]

ليست الملاحظة الأخيرة إطراء للنساء، لكن من الواضح أن **ابن عباس** يشترك في نفس وجهة النظر القائلة أن بلية الانتصابات يقع اللوم فيها على كاهل الجنس الأنثوي، وهي وجهة النظر التي مازالت تُرى صحيحة على نطاق واسع إلى حد كبير.

أثناء النمو، كان الأولاد دائما قلقين من مشكلة الانتصابات غير المقصودة وكيفية منع الآخرين من ملاحظتها. إنهم بحاجة إلى نصائح عملية حول كيفية فعل هذا – من الإبقاء

289- Sadaawi The Hidden Face of Eve. London: Zed Press 1980: 206ev.

على معطفك مقفول الأزرار وحتى تناول مشروب بارد أو وضع القضيب المنتصب في وضع مسطح مستندا إلى جسدك وراء تكة سروالك الداخلي. في مقاطعة فريزلاند الهولندية كان الآباء يخبرون أبناءهم الخارجين للمغازلة: «ابقِ الرب أمامك وبنطالك مغلقا.» تلك فقط بضع حيل في المتناول لضبط النفس.

في عمود بجريدة دي فولكسكرانت De Volkskrant الهولندية يناقش الكاتب **أرنون جرونبرج** Arnon Grunberg بصراحة عواقب المنظر المغوي لنساء جميلات أثناء قداس للروم الكاثوليك وحفل زواج في إيطاليا:

> "كانت السيدات مرتديات ثيابا جميلة ومثيرة، لكن بعد أن بدأت الطقوس مباشرة، شعرت بخيالات إيروتيكية تجتاحني. وفي لحظة معينة عندما كان الإيتيكيت يتطلب منا أن نقف؛ خشيت من أن يرى ضيوف الزفاف انتصابي."[290]

إنه أمر غير معتاد وجريء إلى حد كبير بالنسبة لرجل أن يشارك الآخرين تفاصيل هذه المشكلة الذكورية بكل هذه الصراحة. ولأنني لست خبيرة في الأمر فلابد لي من أن أكون حذرة، لكن الرواة الذكور أخبروني أن هذا الخوف لم يختف في القرن الواحد والعشرين، ولا حتى في المجتمعات التي لم يعد فيها حِمل الانتصابات غير المرغوبة بسبب الأزياء الأنثوية المغوية يقع على كاهل الشيطان أو يتم تحويله ليقع على النساء.

قصة الفأس المسروق

تشبه آراؤنا حول أنفسنا وجهة نظر ذلك الرجل الذي فقد فأسه في قصة قديمة حكوها لي في الصين. يرى الرجل العالم من وجهة نظر مشكلته ومن خلال إحساسه بأنه ضحية. عندما يرى ابن جاره بجوار حظيرة حطبه، يشك في أن الولد قد سرق الفأس. كل شيء في مظهر الولد وسلوكه يوحي بأنه هو المذنب. بعد بضعة أيام يعثر على الفأس في حظيرته، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ينظر إلى الولد بعينين مختلفتين. فلا شيء في هذا الولد البريء

290- Grunberg in De Volkskrant, 26 June 2013.

يوحي بأنه كان من الممكن اتهامه بالسرقة.

ينبغي علينا جميعا أن ننظر بطريقة نقدية لوجهة نظرنا "الطبيعية". فنحن نميل إلى افتراض أن الناس الذين ينتمون إلى جماعتنا يقولون الحق، وأنهم متحضرون وأنهم دائما على صواب، لكننا أحيانا ما نتعرض للخديعة. كان الفيلسوف الصيني **شاو يونج** (1011 – 1077) يرى سور الصين العظيم باعتباره الخط الفاصل بين الحضارة والبربرية. وقد عبَّر عن عقليته المتمركزة حول إثنيته بوضوح عندما قال: «أنا سعيد لأني كائن بشري ولست حيوانا، لأني رجل ولست امرأة، لأني صيني ولست بربريا، ولأني أعيش في لويانج؛ أجمل مدينة في العالم.»[291] إن الميل للحكم على الغرباء كأشخاص أدنى من جماعة المرء أمر واسع الانتشار، بما أن صدق نظرة ما للعالم يكون غالبا أقل أهمية في اكتساب القبول من المصالح السائدة. يضع هذا مكبحا على الأحكام الانتقادية للذات.

في زمن الاستعمار كان الفرنسيون يقدمون العرب كأناس تقودهم غرائزهم، لكن في الوقت الحالي يُلام الغرب كثيرا على كونه المكان الذي تتحكم فيه الغرائز وسقطت فيه القيم الأخلاقية على جانب الطريق. تحاول الكثير من المواقع الإليكترونية والخطب أن تقنع الناس بأن الأخلاق هي السائدة في المجتمعات الإسلامية وأن الغرائز قد تم التحكم فيها بطريقة مثالية بفضل الإيمان والشريعة.

مرة أخرى يتم استدعاء زيّ المرأة ليقدم الدليل المنقذ على التفوق الإسلامي على طرائق الغرب المنحطة، كما تقول المؤلفة التونسية **صوفي بسيس** في كتابها (العرب والنساء والحرية)Les Arabes, les femmes, la liberté . وتضيف أن معركة الهوية يتم اختزالها مرة أخرى إلى الحفاظ على مجتمع يكون فيه الرجال هم المركز وليس للنساء دور في المجال العام. مازال هذا الفعل الرجعي مستمرا لكنه لن يستطيع أن ينجح بعد الآن. فالنساء يحصلن على المزيد من التعليم ويعمل عدد أكبر منهن خارج البيت. وأيًا كان ما يمكن أن تزعمه التقاليد الثقافية والدينية الشرق أوسطية، فإن الفصل بين الجنسين كان طريقا مسدودا لزمن طويل.[292]

291- Quoted in Sinclair 1977:22.

292- Sophie Bessis 2007: 58-60, 138, 151.

عندما قابلت **بسيس** مؤخرا في باريس، قدمت إلى تحذيرا عاجلا موجها إلى أوروبا: فالسياسيون الأصوليون ورجال الدين المتعصبون في شمال أفريقيا يضعون عينا ثاقبة على الحكومات الأوروبية الساذجة التي تسمح بمساحة أكبر وأكبر لوجهات النظر الأصولية المتشددة. فكلما زاد تفهم البلدان الغربية للفصل بين الجنسين وحجاب النساء في الخدمات العامة والمدارس العامة والتعليم العالي، بل وأحيانا للبراقع؛ كلما قلت المساحة العامة الموجودة في المجتمعات الإسلامية للنساء المعارضات بشكل جذري لكل هذه الأشكال من التغطية.

في الثقافات العربية يكون الرجال الأكبر سنا دائما على حق، هكذا تكتب المصرية **منى إبراهيم علي**: لا يجرؤ أي شخص على معارضتهم. في الوقت الحاضر يختبر الشباب حدود هذا الموقف المستحيل، لكن كنتيجة لتربيتهم مازالوا يجدون من الصعوبة أن يسيروا عكس إرث هذه العادات القوية وأن يقوموا صراحة باتخاذ قراراتهم الشخصية.[293]

ترتدي الكثير من النساء المسلمات أشكال التغطية المقبولة دينيا لأسباب تكتيكية. ليس من السهل عليهن أن يطيحوا بالتوازن بين التراث والحداثة. تنشق بعضهن عن مجتمعهن، لكن الأغلبية تجد هذا ثمنا أفدح من أن يُدفع، ويبحثن عن حلول أخرى، جامعات على سبيل المثال بين بنطلوناتهن الجينز الضيقة وبين ارتداء الحجاب. أو يغادرن البيت محجبات ويغيرن في نصف الطريق ملابسهن إلى زي غربي من أجل الحفاظ على السلام مع جميع الأطراف. وبعضهن يعشن حياة مزدوجة كلية. حتى متى سيتوجب أن يدوم هذا؟ لا يمكن حل هذا الموقف المرير إلا بالتدريج عبر المناقشة اللبقة. مع المزيد من التأكيد على المسؤولية الشخصية، لن تزيد التغطية الإجبارية للرأس والجسد عن أن تكون نقطة اهتمام مهووسة. لا يعني هذا بالطبع أن عبء الإثارة المشتركة يمكن إلقاؤه الآن على عاتق الرجال. إن بقاء أي مجتمع يعتمد على السلوك المسؤول وضبط النفس من كلا الجنسين. للأسف ليست هذه الفضيلة ذات شعبية كبيرة، سواء في المجتمعات التي 'يمر فيها أي شيء' أو في المجتمعات التي تعتبر الجسد الأنثوي هو شعار الشرف الجمعي.

تتكون الفصول السابقة من سلسلة من الحبات في عُقد من تاريخنا المعقد والمحير الذي

293- Mona Ibrahim Ali 2014: 98-104.

بدأ بخيط بسيط. لقد أصبحنا مشعرين بشكل أقل وفي نفس الوقت نغطي المزيد والمزيد من أجزاء أجسادنا. بفضل الهجرة والاستعمار والعولمة، قابل الناس الذين كانوا يحيون عراة الناس الذين يغطون أجسادهم. لم تحترم الأفكار واسعة الاختلاف حول التغطية الإجبارية الحدود أبدا، لكن في القرن الواحد والعشرين تعلن ممارسات متنوعة عن نفسها وتقابل بعضها البعض في أنحاء المدينة على الصعيد العالمي.

يعيش الكثير من الناس مع جيران يعتنقون آراء مختلفة، سواء أحبوا ذلك أم لا. بدافع الفضول أو الريبة، نُبقي أعيننا على بعضنا البعض وأحيانا تتسبب اختلافاتنا في صراعات. في البلاد التي يكفل دستورها الحقوق المتساوية، يمكن لكل واحد أن يلجأ إلى مساواته أو مساواتها في المكانة القانونية، لكن العيش والبقاء معًا يتطلبان كذلك حدا أدنى من الاحترام المتبادل. ويعني الاحترام التعامل بحرص مع مناطق خجل الآخر العارية أو المغطاة، لكننا لا يجب أن نمتنع عن الاقتراب من هذا الموضوع من داخل وخارج حدود ارتياحنا الاعتيادي على السواء.

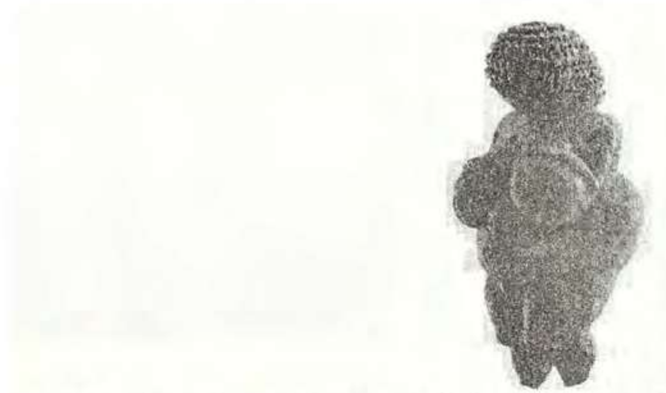
ملحق الصور



(1) على العبَّارة من زنزبار إلى دار السلام



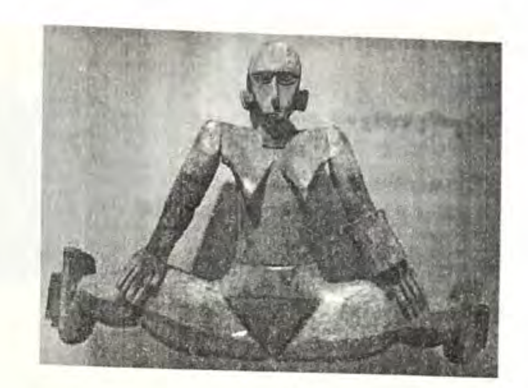
(2) أسرة هندية من الكاريبي، 1818



(3) تمثال فينوس ولندورف (قرية في النمسا): ما بين 24222 و 22222 قبل الميلاد



(4) شيلا نا جيج، إنجلترا، القرن الثاني عشر



(5) ديلوكاي، بالو، 1022



(6) زعيم قبيلة الباكوبا Bakuba وعائلته في زي طقسي



(7) حلقات إطالة الرقبة في جنوبي شرق آسيا



(8) رجلان من جزيرة أندمان، المحيط الهندي، 1875



(9) محاربان من الكاناكا يرتديان المانو، 1880



(10) دون كارلوس ابن فيليب الثاني،1564



الملك هنري الثامن، (1497 - 98)



(11) نساء يتم الاعتداء عليهن، حوالي عام 1478



(12) بورتريه لأجنيس سوريل من القرن السادس عشر يحاكي لوحة الفنان جان فوكيه "العذراء والطفل"



(13) أسرة بوتوكودية، ترتدي أقراص الشفاه، 1830



(14) تغطية الأرداف، كاجارو (نيجيريا)، 1900



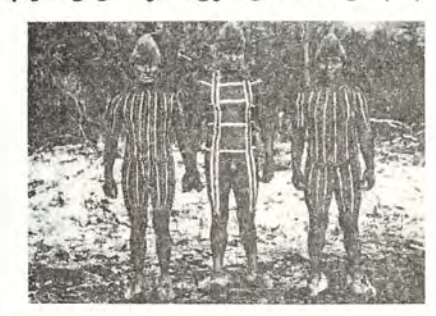
(15) دليل عفة توتسيا: غربال مليء بالماء، 1555



بورتريه بالغربال للملكة العذراء إليزابيث الأولى
على غرار توتسيا، 1583



(16) من الأفضل أن تغرق كعذراء عن أن تحيا بلا شرف، حوالي عام 1478



(17) هنود سالكنام، تييرا ديل فويجو، 1923



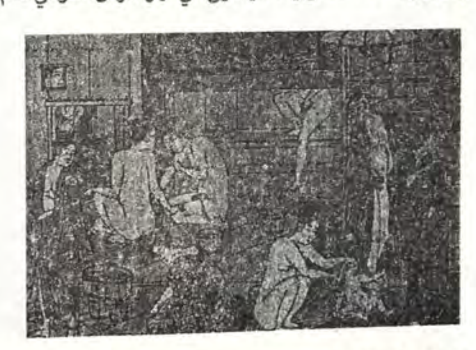
(18) أسرة من شعب بيجمي مع باحثهم، 1921



(19) كنيسة في ترانسلفانيا: فتيات يرتدين قبعات ونساء يرتدين الحجاب مفصولات عن الرجال حاسري الرؤوس



(20) يوحنا المعمدان يعمّد يسوع في نهر الأردن، حوالي عام 1430



(21) حمّام ياباني للسيدات. حفر على الخشب من القرن الثامن عشر



(22) الحمّام هو الحمّام. نساء عفيفات يغزلن.



حمّام من العصور الوسطى، مدينة بروج ببلجيكا حوالي عام 1475



(23) ثوب سباحة كامل التغطية، 1858



(24) البيكيني حوالي سنة 300 قبل الميلاد



(25) بورسعيد، مصر، 2005



(26) البوركيني، 2013



(27) رهبان يديرون ظهورهم لمتع الدنيا، حوالي 1478



(28) نساء متغطيات باحتشام عند مولد مريم العذراء، حوالي 1500



(29) تعذيب القديسة أجاثا، 1520



(30) ملصق حكومي تايلندي مقصود منه "تحديث" الزي التقليدي، حوالي 1940



(31) الاحتجاج العاري، بريطانيا



(32) الاحتجاج العاري، تونس



(33) الاحتجاج العاري في الصين



(34) القبض على مايكل أوبريان في تويكينهام، 1974



(35) زاهدون هندوس في موكب، كومبه ميلا، الهند، 1998



(36) الآدميون Adamites في ميدان دام، أمستردام، 1535



(37) عديمو السراويل في مقابل بنطلونات الركبة، 1793 – 1794



(38) "المذهب البلومري" 1851 ، Bloomerism



(39) الأمير كلاوس يلقي ربطة عنقه أثناء خطبة في القصر الملكي في ميدان دام، أمستردام، 1998



(40) غلاف الطبعة الهولندية من الكتاب

"إن مسألة أي أجزاء الجسد البشري يجب أن تُغطى وأيها يمكن أن يُترك عاريا مازالت ساحة معركة بنفس القدر الذي كانت عليه دائما. وتقدم مينيكه شيبر خلاصة وافية فاتنة وواسعة النطاق ما بين الحقيقة والخيال عن تغطية الجسد عبر العصور."

جي إم كوتزي

"هذا الكتاب من النوع الذي تقرأه في نهاية الأسبوع؛ لأنك بمجرد أن تبدأ لن تكون قادرا على وضعه جانبا. إنه كتاب مليء بالقصص والنوادر والحقائق الثقافية المبهرة، التي تبعث الحياة في سرد بحثي دقيق لتاريخ الجلد البشري، تاريخ الناظر والمنظور إليه، تاريخ الإثارة والخوف. لقد أحببت هذا الكتاب!"

سارة نوتال

"بعين أنثروبولوجية ثاقبة، وأسلوب أدبي لكاتبة روائية، وبمنطق سليم ثابت، تقودنا مينيكه شيبر عبر آلاف السنين من المواقف المختلفة بشكل ملحوظ تجاه ارتداء البشر للثياب وخلعهم لها. كتاب غني بالألوان، جيد في أبحاثه، وملائم لوقته. كتاب أوصي بقراءته بشدة."

ستيفن شانكمان

Mineke Schipper

مينيكه شيبر كاتبة وأكاديمية وروائية هولندية. درست اللغة الفرنسية والفلسفة في جامعة أمستردام الحرة، ودرست النظرية الأدبية والأدب المقارن في جامعة أولتريخت. بدأت حياتها العملية بتدريس اللغة الفرنسية والأدب الأفريقي وكانت أطروحتها التي تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراه عام 1973 أول رسالة دكتوراه في هولندا عن الآداب الأفريقية. وهي مازالت تحتفظ بمنصبها كباحثة في مركز جامعة لايدن للآداب والفنون في المجتمع، لكنها متفرغة حاليا بشكل أساسي لحياتها ككاتبة.




ISBN 978-977-821-016-3
9 789778 210163

Cover design by: Alaa Elnewehy